# هداية المريد

## إلى

# جوهرة التوحيد


تقديم وتقريظ الأستاذ
علي عبد الحميد أبو الخير

تقديم فضيلة المربي الكبير الشيخ
أسامة الخاني

تأليف
الشيخ بكري رجب
رحمه الله

تحقيق وإعداد
حازم محي الدين
محمد وهبي سليمان



دار الخير

## بسم الله الرحمن الرحيم

## تقديم فضيلة المربي الكبير

## الأستاذ أسامة الخاني

الحمد لله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، لا شيء قبله ولا شيء بعده، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون!

قال الله تعالى: ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾.

ودلنا على الطريق فقال: ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾.

فالخلق يدل على الخالق، والنظام يدل على المنظم، والحركة تدل على المحرك، وقانون العقل السليم لا يقبل غير هذا.

إن علم التوحيد: أي توحيد الخالق الرازق الشافي المعطي، الذي يتحبب إلى عباده بعطائه، وخيره المستمر، ليُحبُّوه وليعبدوه عن حب وقناعة واعتقاد.

إن علم التوحيد: هو علم العقيدة، هو من أهم العلوم وأعظمها وأكثرها ضرورة.

ويُبنى عليه ما بعده من الأعمال، كالعبادات والمعاملات، ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾. وهو فرض عين على كل مسلم ومسلمة، لفائدته الكبيرة، ولضرورته الملحَّة.

إن إزالة الأمية العقائدية، وإزالة الأمية الفقهية، وأمية التجويد، وأمية حفظ القرآن، تكون باتباع الطرق العلمية...

والخطر المحدق في العالم الإسلامي كبير، إذ من طريق الجهل دخل العدو مشككاً المسلمين بدينهم وتاريخهم وقد استطاع الخصوم تلقف الملايين وإخراجهم من الإسلام، والجهل بدين الله أكبر ذنب والجهل

بالقرآن من أكبر الذنوب، فأين القراءة والحفظ والمراجعة والفهم والتمثل والتطبيق.

روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه:

قال سيدنا رسول الله ﷺ:

«خمسة غضب الله عليهم إن شاء أمضى غضبه منهم، رجل لا يأمر أهله وولده بطاعة الله، ولا يعلمهم أمور دينهم، ولا يبالي من أين يطعمهم، ورجل استأجر أجيراً فتمم عمله ومنعه أجره، ورجل ظلم امرأته في صداقها».

إن فهم التوحيد وممارسته سعادة ورحمة، وطمأنينة وراحة، فالتوحيد صَمَّامُ الأمان للإنسان، وهو حقيقة هذا الوجود، ولقد جاءت كل الكتب السماوية والرسل عليهم السلام بالتوحيد، فكان الأنبياء أسعد الناس، ومن تبعهم في الدنيا والآخرة، فمن لبس منظار التوحيد، ودخل القرآن الكريم، وجد كل الدلائل واضحة أخّاذة تطير به إلى عالم التوحيد.

والذين فقدوا التوحيد فقدوا وجودهم. قال الله تعالى: ﴿نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾.

وأخيراً لا بد لي أن أوجه الشكر الجزيل للأستاذ الفاضل علي عبد الحميد أبو الخير حفظه الله على عنايته الفائقة بالكتاب عندما عرف أننا ندرسه في حلقاتنا وأننا نصوره من بعضنا حيث ان النسخة القديمة نافذة وكثيرة الأخطاء وإنها بحاجة إلى تعليقات وتحقيقات وترجمات للأعلام الواردة فيها وتخريجات للآيات والأحاديث الشريفة الواردة بها. وبحاجة إلى إعادة النظر بكثير من التصحيفات، فجزاه الله خيراً على هذا الاهتمام وأجزل له المثوبة، كما أنه دفع الكتاب إلى مجموعة من أمثال الأستاذ حازم محي الدين والأستاذ محمد سليمان، حتى حققوا له المزايا الكثيرة من التعليقات والملاحظات فجزاهم الله خير الجزاء وجعل منهم أصحاب أقلام نافعة لخدمة الإسلام والمسلمين، وجعلهم منابر هدى ونور إنه سميع قريب مجيب.

وختاماً أرجوا أن يجعل الله في هذا العمل المتقن خيراً كثيراً. والله نسأل أن يوفقنا لخدمة دينه والحمد لله رب العالمين.

أسامة الخاني

# بسم الله الرحمن الرحيم

# مقدمة

## الأستاذ علي عبد الحميد أبو الخير

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، والصلاة والسلام على حبيبنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى أصحابه الغر الميامين وبعد:

إن علم التوحيد، هو علم معرفة الله تعالى، وهو علم الإيمان الصحيح الذي يوصل العبد إلى رضا الله عز وجل في الدنيا والآخرة، ويحقق له السعادة اليقينية القلبية والروحية والنفسية، كما أنه يحقق للأمة المسلمة الاستقرار والراحة والأمان، ويوصلها إلى المجد الذي تحقق للمؤمنين يوم كانوا سائرين على هدى القرآن؛ وقد رباهم رسول الله ﷺ ﴿وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾ ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تؤمنون بالله...﴾ هذا العلم الذي هو آكد العلوم الإسلامية، إذ هو الأساس المتين لعقيدة المسلم، لا بد أن تكون قواعدهُ قطعية يقينية، بعيدة عن المؤثرات الفلسفية التي غزت بعض المفاهيم عند علماء الكلام. والتي استحوذت على عقائد كثير من عوام المسلمين.

إن العقيدة الإسلامية، هي عقيدة الفطرة السليمة، عقيدة القرآن البعيدة عن التأويلات الباطلة وعن الجمود المخل. عقيدة استطاعت أن تُكَوِّنَ رُؤْيَةً شُمولِيَّةً عند المسلم في الدين والحياة، من خلال منهج سليم وحكيم، معصوم ومفهوم.

لكن أين علماء الإسلام اليوم ليجعلوا من هذه العقيدة، عقيدة حياة، وعقيدة بناء حضاري شامل، وعقيدة خلاقة وبناءة، عقيدة النهضة والشموخ والعزة والكرامة.

إن أركان الإيمان، وقواعد العقيدة، هي أركان فطرية وقواعد منطقية سليمة، ليست بجبرية، وليست معقدة، فهي لا بد أن يفهمها ويتشربها الخاص والعام، فهي لا بد أن يعقد عليها قلب المسلم حتى يأخذ لقب «المؤمن» فكيف يعقد عليها ولم يفهمها بعد: ﴿قالت الأعراب آمنا، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا

اسلمنا، ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾. إن طريق الإيمان الصحيح علم وعمل، علم يتناول الفكر وعمل يغذي القلب. إن الخوض في التراث الإسلامي العظيم - قبل أن يفهم المسلم العقيدة من القرآن ومن السنة الصحيحة المضبوطة بالقرآن - لهو أكبر خطر على عقيدة المسلم، إذ دخل شوائب كثيرة وفاسفات خطيرة تقوض عقيدة المسلم، وتقض شخصيته.

وكثيراً من الكُتَّاب الإسلاميين، كتبوا متأثرين وناقلين ومقلدين، فَلْيحذر المسلم، ولا بد له من وقت غير قليل لأن يتشبع بعقيدة القرآن، وعقيدة رسول الله ﷺ التي فهمها من القرآن وتأسىٰ به السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين، فعقيدة السلف هي عقيدة القرآن ولا شي غير ذلك، فكم هو عبء العلماء في إعادة مناهل ارتشاف المعرفة إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ الصحيحة التي بيَّنت القرآن وأوضحت السبيل.

لا بد للمسلمين اليوم من دراسة سنة النبي ﷺ في ضوء القرآن وفرزها فرزاً سليماً على أسس سليمة، بعيدة عن الروح المذهبية الضيقة، وبعيدة عن مذاهب المتكلمين والفلاسفة الذين كانوا في يوم من الأيام في مرحلة فرضت جواً معيناً من العقائد والأفكار، وبعيدة عن أجواء المصالح الممقوتة التي خدمت عهوداً تاريخية معينة.

إن سنة رسول الله ﷺ هي سنة موضحة للقرآن، ومبينة للقرآن، ومساعدة على فهم القرآن، ولا يجوز أن تكون مشوشة عليه، ولا ناسخة له، ولا معارضة ولا مناقضة، فالقرآن أصل، والسنة فرع وشرح، ولا يمكن للفرع أن ينسخ الأصل ولا يشوش عليه.

فهذا الكتاب: هو مختصر ومهذب من كتاب جوهرة التوحيد الكتاب الذي كثر شارحوه ومختصروه ومهذبوه، والكتاب الذي جمع فيه مؤلفه رحمه الله كثير من الأفكار والأقوال الأخرى من غيره إضافة إلى اختصاره؛ فهو من جملة كتب التراث الإسلامي في العقيدة، فهو لبنة ومرحلة من مراحل دراسة العقيدة وليس غير ذلك.

فالله نسأل أن يوفقنا لأن نعلم الحق ونعلمه وننشره، ويرحم الله مؤلف الأصل ومهذبه إنه سميع مجيب.

علي عبد الحميد أبو الخير

# بسم الله الرحمن الرحيم

## [تمهيد الشيخ بكري رجب رحمه الله]

الحمدُ لله وحدَه، والصلاةُ والسلامُ على مَنْ لا نبيَّ بعدَه، وعلى الآلِ والصحابةِ، والأتباعِ والقرابةِ، ومَنْ والاهم إلى يومِ الدين.

أمَّا بعدُ: لمَّا عَهدتْ إليَّ إدارةُ معهدِ العلومِ الشرعيَّةِ في تدريسِ جوهرةِ التوحيدِ، لطلابِ الصفِ الثالثِ الثانوي، في مَطلعِ عامِ ألفٍ وثلاثمائة واثنين وسبعينَ من هجرةِ سيدِ المُرسلينَ، لِمؤلفها الشيخ إبراهيم اللَّقاني، وكان شارحُها شيخُ الإسلام إبراهيم بن مُحمد البَيجُوري قد أطالَ الشرحَ إطالةً يقصُرُ فهمُ الطلابِ عنهُ، عزمتُ على اختصارِ هذا الشرحِ الطويلِ، تلبيةً لإرادةِ الطلابِ، ولم أقتصر فيه على هذا الشرحِ، بل انتقيتُ من غيره من الكتبِ ما يتناسبُ مع الموضوعِ، والله أسأل وبجاهِ نبيِّهِ الكريم أتوسلُ أَنْ يجعلَهُ خالِصاً لوجهِهِ الكريمِ، وينفعَ بهِ مَنْ أرادَه بقلبٍ سليمٍ وهو حَسبي ونعمَ الوَكيل.

* * *

قال المؤلفُ (بسم الله الرحمن الرحيم) ابتدأ المؤلفُ كتابَهُ بالبسملةِ اقتداءً بالكتابِ العزيزِ، وعملاً بقولهِ ﷺ: «كلُ أمرٍ ذي بالٍ لا يُبدأ فيه ببسمِ الله الرَّحمنِ الرَّحيم فهو أقطع أو أجذمُ أو أبترُ»(١) والمعنى: ناقصٌ وقليلُ البَركةِ. ولا يُقال هذا شعر، والشعر لا يُبدأ فيه بالبسملة، لأن ذلكَ فيما احتوى على مدحِ مَنْ لا يجوزُ مدحُهُ أو ذمِ مَنْ لا يجوزُ ذمُهُ.

أمَّا هذا الكتابُ فموضوعُهُ علمُ التوحيد، وهو أشرفُ العلوم، فكانَ مِنَ الأُمورِ ذَواتِ البالِ قَطعاً، ومعنى ذِي بالٍ: بحيثُ يُهتم به شَرعاً بأَنْ لا يكونَ مِن سَفاسفِ الأمورِ، وليس مُحرماً ولا مَكروهاً ذاتيين، ولفظُ الجلالةِ في البسملةِ

---

(١) قال في الجامع الصغير الحديث (٦٢٨٤) رواه عن أبي هريرة عبد القادر الرهاوي في الأربعين.

ومن طريقه رواه السبكي في طبقات الشافعية (٦/١) بسند ضعيف.

عَلَمٌ على الذاتِ الوجودِ، المستحقِ لجميعِ المحامدِ، المَستغني عن كل ما سواه، المفتقِرِ إليهِ كلُ ما عداهُ، وهو اسمُ الله الأعظم عندَ أهلِ التحقيقِ الذي إنْ دُعِيَ به أجابَ أو سُئِلَ به أعطَى، وتخلُفُ الإجابة لبعضِ الناس لفقدِ الشروطِ[1]، وإلا ففي الحديث: «رُبَّ أشعثَ أغبرَ ذي طِمرين لو أقسمَ على الله لأبرَّهُ»[2]

والرحمنُ الرحيم صفتان مَأخُوذتان مِنَ الرَّحمةِ بمعنى الإحسانِ. فالرحمن المُنعمُ بجلائِلِ النِّعم، والرحيمُ المنُعمُ بدقائِقِها، وقد جمعَ بينهما إشارةً إلى أنَّه ينبغي أَنْ يُطلَبَ منه تَعالى النِّعَمُ الحقيرةُ كما يُطلبُ منه النِّعمُ العظيمةُ لأنَ الكلَّ منه وحدَه سبحانَهُ وتَعالى.

* * *

١ـ الحَمدُ لله على صِلاتِهِ ... ثمَّ سَلامُ الله مَعْ صَلاتِهِ

٢ـ على نبيٍّ جاءَ بالتَّوحيدِ ... وقَدْ خَلا الدِّينُ عن التَّوحيدِ

أتَى المؤلفُ في طَالعةِ منظومتِه بالحمدلَةِ مراعاةً للأمرِ المُستحبِ، وهو ابتداءُ الكُتبِ المُصنفةِ، وكَذَا في ابتداءِ دُروس المدرِّسينَ وقِراءةِ الطَّالِبينَ بينَ يديّ المدرِسينَ، سَواء كانَ حديثاً أو فِقهاً أوَ غيرهما، وأحسنُ العباراتِ في ذلك الحمدُ لله ربِ العَالمينَ.

## [تعريف الحمد]

والحمدُ لغةً: هو الثناءُ بالكلام على الجميلِ الاختيارِي عَلى جهةِ التَّبجيلِ والتعظيم، سواء كانَ في مُقابلةِ نعمةٍ أمْ لا، فمثالُ الأولِ: ما إذا أكرمَكَ زيدٌ فقلتَ: زيدٌ كريمٌ، فإنه في مقابلةِ نعمةٍ، ومثالُ الثاني: ما إذا وجدتَ زيداً



(١) أي شرط إجابة الدعاء.

(٢) رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب باب فضل الضعفاء والخاملين الحديث (٢٦٢٢) دون قوله «ذي طمرين» وبزيادة هذا اللفظ أورده في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٤٦) من حديث أنس وقال: رواه الطبراني في الأوسط وفيه عبد الله بن موسى التيمي وقد وثق وبقية رجاله رجال الصحيح غير جارية بن هرم وثقه ابن حبان على ضعفه.

والأشعث هو الملبد الشعر المغبر.

يصلي صلاة تامة فقلتَ: زيدٌ رجلٌ صالحٌ. فإنه ليسَ في مقابلةِ نعْمةٍ، والتعبير بالكلامِ على الجميلِ ليشملَ التعريفَ حينئذٍ الحمدَ القديمَ، وهو حمدُ الله نفسَه بنفسِهِ، وحمدُه لأنبيائِهِ وأوليائِهِ وأصفيائِهِ. والحمدُ الحادثُ، وهو حمدُنا للهِ تَعالى، وحمدُ بعضِنا لبعضٍ، وهي أقسامُ الحمدِ الأربعةِ، وخرجَ بقيدِ الاختياري الاضطراريُّ، فإن الثناءَ عليه يُسمَّى مَدْحاً لا حَمداً، تقول: مدحتُ اللؤلؤةَ على حُسْنِها دون حَمَدتُها، وقولُنا على جهة التَّبجيلِ والتَّعظيم ليخرجَ ما إذا كانَ على جهة الاستهزاءِ والسُّخريةِ، كما في قولِ الملائكةِ لأبي جهل: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ [الدخان: ٤٩].

- وأما الحمدُ في الاصطلاح فهو ينبىءُ عن تعظيم المُنعِم من حيثُ كونهُ مُنعماً على الحامد أو غيره، سواء كان ذلك قولاً باللسانِ أو اعتقاداً بالجنانِ. أو عملاً بالأركانِ التي هي الأعضاءُ كما في قول القائل:

أفادتكمُ النعماءُ مني ثلاثةً ... يدي ولساني والضميرَ المحجَّبا

- وأما قولُه (على صِلاته) فمعناه على أُعطيَاته، وإنما آثر الحمد على النعمة لأنه مُقيَّد. وهو أفضلُ من الحمدِ المطلَقِ على رأي بعضهم.

- (ثم سلامُ اللهِ) ثمَّ للترتيبِ الرتبي[1] لأن حقَّ الله مُقدمٌ على حقِ المخلوقاتِ، فإنَّ البسملةَ والحمدلةَ ثناءٌ على الله. والصلاةُ والسلامُ ثناءٌ على رسولِه. ولذلكَ تُقدَمُ تحيةُ مسجدِه عليهِ الصلاةُ والسلامُ على السلام عليهِ ﷺ. وقُدِّمَ السلامُ وإن كان رتبتُه التأخيرَ عن الصلاةِ. كما في آية ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦] لضرورةِ النَظمِ.

- والسلامُ تحيةٌ. ومعنى سلامُ اللهِ تحيتُه اللائقةُ بهِ ﷺ بحسَبِ ما عنده، كما تُشعِرُ بإضافتهِ لهُ تعالى، فالمطلوبُ تحيةٌ عُظمى بلغتْ الدرجةَ القُصوى فتكون أعظمَ التحياتِ، لأنَّه ﷺ أعظمُ المخلوقاتِ.

- وأما قولُه (على نبي جاءَ بالتَّوحيدِ) فالمُرادُ به الرسولُ الأعظمُ ﷺ لأنه جاءَ ليرشدَ الخلقَ إلى توحيدِ الله وعبادتِهِ. - ٦ -

---

(١) الترتيب الرتبي: الترتيب على أساس الرتبة، أي القيمة والدرجة.

## [تعريف النبيّ:]

والنبيُّ هو إنسانٌ ذكرٌ حرٌّ من بَني آدمَ، أُوحيَ له بِشرعٍ. فإنْ أُمِرَ بتبليغِهِ كانَ رسولاً. وإلا فنبيٌّ. فلا نبيٌّ من الجنِّ ولا مِنَ الملائكةِ ولَا من الإناثِ.

وأما قولُه تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠] فمعناه من أحدكم وهم الإنس.

وأما قولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

أي يصطفي للأنبياء لِيبلِّغُوهم عن الله الشّرائعَ، لا لِلأُمَّةِ.

وأما مريمُ فهي صِدّيقةٌ وليستْ نبيةً.

## [الوحي]

وأما قولُهُ تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ [القصص: ٧] فالمرادُ بذلك الإلهام وهو الإلقاءُ في القلبِ. فهو يقعُ حتى لبعض الحيواناتِ غيرِ العاقلةِ. كما في آية ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨]. وعددُ الأنبياءِ مائة ألف وأربعةٌ وعشرون ألفاً. ورُوِي أكثرُ من ذلك والرسلُ منهم ثلاثمايَة وثلاثةَ عَشر. والحقُّ أنّه لا يَعلمُ عددَهم إلاَ اللهُ لقولِهِ تَعالى: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨] وخُصَّ رسولُ اللهِ ﷺ بهذا المجيءِ حالَ خُلُوِّ الدِّينِ عن التَّوحيدِ. لأنّه لمْ يأتِ نبيٌّ بالتَّوحيدِ في حالِ خُلُوِّ الدِّين عنهُ إلا نبيُّنا ﷺ. قالَ تَعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [المائدة: ١٩] وإنما كانَ مجيئُه على رأس الأربعين. فكان الوحيُ بالمنامِ في شهرِ ربيعِ الأول. وإتيانُ جبريلَ عليه السّلامُ يقظةً بالقرآنِ كانَ في رمضانَ. والحكمةُ في كونِ النُبوةِ على رأس الأربعينَ لأنَ عندَها يَكتمِلُ العقلُ وكَمالُ القوةِ. وليسَ هذا مُختصّاً بنبيِّنا ﷺ بلْ على كل نبيٍّ كذلك فهوَ على رأسِ الأربعينَ. إلا يحيى وعيسى عليهما السلامُ.

قالَ تعالى في يحيى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢] وقالَ في عيسى عليهِ السلامُ ﴿ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠] وبعضُهم يقولُ: إنَّهما

كغيرِهما وَيُؤَوِلونَ الحُكمَ بالعلمِ والمعرفةِ. والنبوةُ في الآيةِ بالتعبيرِ بالمَاضي عن المستقبلِ أو في علمِ اللهِ أنَّه معدودٌ من الأنبياءِ، وتعبيرُ المؤلفِ بقولِهِ: (بالتوحيد) فيه براعةُ استهلالٍ وهي أَنْ يأتيَ المتكلمُ في طالِعةِ كتَابه بما يُشعِرُ بمقصودِه.

## [تعريف التوحيد]

والتوحيدُ لغةً: العلمُ بأنَّ الشيءَ واحدٌ. وَشرعاً: هُو علمٌ يُقتدَرُ به على إثباتِ العقائدِ الدينيةِ المُكتَسَبةِ من أدلّتِها اليقينيةِ. وقد ذكرَ المؤلفُ هذه الخصوصيةَ لرسولِ اللهِ ﷺ مع أنَّه جاءَ بغيرِ علمِ التوحيدِ أيضاً لأنَّ علمَ التَّوحيدِ هُو أشرفُ العِباداتِ، ويليهِ الصلاةُ كما في حديثِ أبي سعيد (إنَّ اللهَ تعالى لم يفرضْ شيئاً أفضلَ من التَّوحيدِ والصلاةِ)[1] ولو كانَ شيءٌ أفضلَ منه لافترضهُ على ملائكتهِ منهم راكعٌ ومنهم ساجدٌ.

## [مقدمة علم التوحيد]

ولا بدَّ لكلِّ شارعٍ في فنٍ أنْ يعرفَ مبادئَه العشرة في هذا الفن ماتقدم.

## [موضوع علم التوحيد]

وموضوعُه: ذاتُ اللهِ تعالى من حيثُ ما يجبُ له وما يستحيلُ وما يجوزُ، وذاتُ الرسل أيضاً، والممكنُ من حيثُ أنّه يُتَوَصَّلُ به إلى وجودِ صانعهِ والسمعياتُ من حيثُ اعتقادُها.

## [ثمرة علم التوحيد]

وثمرتُه معرفةُ اللهِ بالبراهين القطعيةِ، والفوزُ بالسعادةِ الأبديةِ.

## [فضل علم التوحيد]

وفضلُه: أنَّه أشرفُ العلومِ الشرعيةِ لتعلُّقهِ بذاتِ اللهِ وذاتِ رسلهِ، وما يتبعُ ذلك.

## [واضعُه]

أبو الحسن الأشعري وأبو منصور الماتريدي.

---

(١) عزاه في كنز العمال الحديث (١٠٩٣٨) إلى الديلمي عن أنس.

[اسمُه وحُكْمه]

واسمُه علمُ التوحيدِ(١)، وحُكمُ الشارعِ فيه: الوجوبُ العيني على كل مُكلَفٍ من ذكرٍ وأنثى.

[مسائلُه]

ومسائلُه: قضاياهُ الباحثةُ عن الواجباتِ والمستحيلاتِ والجائزاتِ. وهذه المبادىءُ تُسمى مقدمةُ العلمِ. لأنها اسمٌ لمعانٍ يتوقفُ عليها الشروعُ في المقصودِ.

وقولُهُ (وقد خَلا الدينُ عن التَّوحيدِ) أي إنَّ رسولَ الله ﷺ بُعثَ إلى العالمِ كافةً، في وقتٍ جَهلوا فيه دينَهمَ، وجَحدوا بوحدانيةِ الخَالقِ، وجَعلوا دينَهم هَواهم، لا يعرفونَ مَعْروفاً ولا يُنكرون مُنكراً.

[تعريف الدين:]

والدينُ هو لغةً: ما يُتديَّنُ به حقاً أو باطلاً. واصطلاحاً: هو وضعٌ إلهيٌ سائقٌ لذوي العقولِ السَليمةِ باختيارِهم المحمودِ إلى ما هو خيرٌ لهم بالذاتِ. ومعناهُ بالاختصارِ: إنَّ الدينَ هو الأحكامُ التي وضعَها اللهُ، الباعثةُ للعبادِ إلى الخيرِ الذَّاتي. وهوالسعادةُ الأبديةُ، والقُربُ من ربِ البرّيةِ.

[علامات الدين:]

وأمورُ الدِّينِ أربعةٌ. أي علاماتُ وجودِه.

الصدقُ بالقَصْدِ: وهو أداءُ العبادةِ بالنيةِ والإخلاصِ. والوفاءُ بالعهدِ: وهو الإتيانُ بالفرائضِ. واجتناب الحدّ: وهو اجتنابُ المُحرَّماتِ. وصحةُ العَقْدِ: وهو الجزمُ بعقائدِ أهلِ السُّنةِ والجَماعةِ.

* * *

٣ـ فَأرْشَدَ الخَلْقَ لِدِينِ الحَقِّ     بِسَيْفِهِ وهَدْيِهِ لِلْحَقِّ

---

(١) سُمي علم التوحيد: لأن مبحث الوحدانية أهم مباحثه، ويُسمى علم الكلام أيضاً.

٩١- عَجْبُ الذَّنَبْ كَالرّوحِ لكِنْ صَحَّحَا    المُـزَنِـيُّ لِلبلـى وَوَضَّحَـا
٩٢- وَكُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ قَدْ خَصَّصُوا    عُمُومَهُ فاطْلُبْ لِمَا قَدْ لَخَّصُوا

[بقاء عَجْب الذَّنَب]

عَجْبُ الذَّنَب: هو عظمٌ كَالخَردلةِ في العُصْعُصِ كمغرزِ الذَّنَبِ للدَّابةِ، الحُكْمُ فيهِ كالرُوحِ مِنْ حيثُ الاختلافُ، لِمَا ثبتَ في الصَحيحينِ عنه ﷺ: «ليسَ مِنَ الإنسانِ شيءٌ إلاَّ يَبلى إلا عظماً واحداً وهو عَجْبُ الذَّنَبِ، منه خُلِقَ الخَلْقُ يومَ القيامةِ»(١) لَكِن صَحَّحَ الإمامُ اسماعيلُ بنُ يَحيى المُزَني أنَّه يفنى تَمسُكاً بقوله تَعَالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦] وفَناءُ الكُلِّ يستلزمُ فناءَ الجزءِ إلاَّ أنَّ العلماءَ المتأخرينَ صَحَّحُوا القولَ الأولَ، وأجابُوا عنِ الآيةِ أنَّها عامةٌ خُصَّ منها هَذَا، ونظيرُ هَذا استثناءُ العَرْشِ والكُرسي والجنةِ والنَّار، واللَّوحِ المحفوظِ والقَلم، وهو مَرويٌ عن ابن عباس، وقد جَاءَتْ الآثارُ بأَنَّ الأرضَ لا تأكلُ أجسادَ الأنبياءِ، ولا العلماءِ والشُهدَاءِ، ولا حَملَةَ القُرآنِ ولا المؤذنينَ احتساباً. ومَذهبُ المحققينَ مِنَ المُتأخرينَ في (كُلُّ شيءٍ هالكٌ) أو (كلُ مَنْ عليها فَانٍ) أي قابلٌ للهلاكِ أو للفناءِ فلا استثناء ولاتخصيصَ.

* * *

٩٣- وَلاَ تَخُضْ في الرُّوحِ إذْ مَا وَرَدَا    نَصٌّ عِنِ الشَّارعِ لكِنْ وُجِدَا
٩٤- لِمالِكٍ هِيْ صُورَةٌ كَالجَسَدِ    فَحَسْبُكَ النصُّ بِهَذَا السَّنَدِ

[مسألة الروح]

اختُلِفَ في الرّوحِ، فقالَ قومٌ: إنّها سرٌ من أسرارِ اللهِ تعالَى، لم يُطْلِعْ اللهُ عليها أحداً لِعَدمِ التوفيق بذلك، إذْ هي مِنَ المُغَيَّباتِ التي لا تُعرفُ إلا مِنْ قِبَلِ الشَّارعِ وقدْ قالَ تعَالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]

وَقَد وردَ أنَّ اليهودَ سألوا النبيَّ ﷺ عن أصحابِ الكَهفِ وذي القَرنينِ والرُوحِ، وعندَهُم من العِلْمِ القَديمِ أنّه إذا أجابَ عنِ الأوّلينِ، وسكَتَ عن الثالثِ

---

(١) رواه البخاري (٤٥٣٦) ومسلم في كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: ما بين النفختين الحديث (٢٩٥٥).

فهوَ نبيٌّ، وكانَ الأمر كذلك(١)، إلا أن النبيَّ ﷺ لم يخرجْ من الدُنيا حتى أطلعَهُ الله عَليها وعلى غيرها من سائرِ المُغيَّباتِ، وأمَرَهُ الله تعالى ببثِ البَعضِ. وكَتْمِ البعضِ. وخُيِّرَ في البَعضِ. وفي هذا أكبرُ دليلٍ على عَجزِ الإنسانِ حيثُ لمْ يَعرفْ أقربَ الأشياءِ إليه وهي رُوحُه التي بينَ جَنبيهِ ولقدْ قالَ الإمامُ الغزالي مخاطباً الزَّمخشري:

أنـتَ لا تعـرفُ إيَّـاكَ ولا … تَدري مَنْ أنتَ ولا كيفَ الوصولْ
لاَ ولاَ تَـدري صفـاتٍ رُكِّبَـتْ … فيكَ حارتْ في خَفَاياها العقولْ
أيـنَ منكَ الـرُوحُ فـي جَوهَـرِهـا … هـلْ تَـراهَـا فَتَـرى كيـفَ تجـولْ

وقالَ قومٌ: إنَّها جسمٌ لطيفٌ شَفَّافٌ حيٌّ لِذاتِه مشتبكٌ بالأجسام الكَثيفَةِ اشتباكَ الماءِ بالعُودِ الأخضرِ، وهذا القولُ لإمامِ الحرَمينِ، واحتَجُوا لِهذَا بِوَصفِها بالهبُوطِ والعرُوجِ والترَدُدِ في البَرْزخِ، وهذه الطَريقُ المرجوحةُ التي حَكَاها بقولِه: «لكن وُجِدَ لِمَالكٍ» الخ؛ وعلى كلٍّ فالنهيُ عن البَحثِ في الروحِ هو للتنزيهِ، ولذلكَ خاضَ مالكٌ رحمهُ الله وأصحابهُ، ولو كانَ للتَحريم لامْتَنعوا عن الخَوْضِ، ومَقرُّ هذهِ الروحِ القلبُ والبطنُ، وشُعاعُها مُقوِّمٌ للجسدِ، كالشمعةِ الكائنةِ وسطَ آنيةٍ مِن زجاجٍ فَأصلُها في وَسطه ونُورُها سائرٌ في جميعِ أجزائهِ، هذا في الحياةِ وأمَّا بعدَ الموتِ فأرواحُ الأنبياءِ في الجَنةِ، وأرواحُ الشُهداءِ في حواصلِ طيورٍ خُضرٍ في الجَنةِ وأرواحُ المطيعينَ غيرَ الشهداءِ باقيةٌ في القُبور في البرزخ، وأرواحُ الكُفّارِ ببئرِ برَهوتَ بحضرموتَ...

* * *

٩٥ـ والعَقْلُ كَالرّوُحِ وَلَكِنْ قَرَّرُوا … فِيهِ خِلَافاً فَانظُرَنْ مَا فَسَّرُوا

[مسألة العقل]

الاختلافُ في العقلِ كالاختلافِ في الرُوحِ، إلاَّ أنَّه وُجِدَ نَصٌ للرُوحِ ولمْ يُوجدْ نصٌ للعَقلِ، فقالَ قومٌ: لا يَنبغي البحثُ فيهِ لأنَّه منَ المُغيَّباتِ التي لمْ يُطلِعْنَا الله عليها، وقد قالَ تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦] وقالَ قومٌ بجوازِ الخَوضِ في ذلكَ، ولكنَّ القائلينَ بالجَوازِ اختلَفوا اختلافاً كثيراً، وأشهرُ ما قيلَ فيهِ: إنَّه غريزةٌ يتهيأ بها الإنسان لِدَرْكِ العلومِ النَظريةِ،



(١) رواه الترمذي (٣١٣٩) وعزاه أيضاً في الدر المنثور (٥/٣٣١) إلى النسائي وابن المنذر وابن حبان والحاكم وصححه، وغيرهم.

ونورٌ يقذفه الله في القَلْبِ، فمحلهُ القَلْبُ ونُورُه في الدِّماغ، والمُتأخرونَ من الحُكماء قالوا مَحلُّه الدماغُ لِفَسادهِ بِفَسادِ الدِّماغِ، وأكمل النَّاسِ عقلاً الأنبياءُ، ثم الزُّهَّاد.

* * *

٩٦- سُؤَالُنَا ثُمَّ عَذَابُ القَبْرِ نَعِيمُهُ وَاجِبٌ كَبَعْثِ الْحَشْرِ

[مسألة عذاب القبر]

ممّا يجبُ اعتقادهُ سؤالُ المَلَكين إيانا مَعشرَ المُكلَّفينَ بعدَ الموتِ، ووقوعُ عَذابِ القَبْرِ للعَاصي ونعيمِهِ للمُطيعِ، إذْ قَدْ وردَ بذلكَ أحاديثُ بطرقٍ متعددةٍ تبلغُ حدَّ الاشتهارِ، وإنكارُ المشهورِ بدعةٌ وضلالةٌ، من ذلك ما رُويَ في الصَّحيحينِ وغيرِهما أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «إنَّ العبدَ إذا وُضِعَ في قبرِه وتولَّى عنهُ أصحابُه - حتَّى إنَّه ليسمعُ قَرْعَ نِعالِهم إذا انصرفُوا - أتاهُ مَلَكانِ فيُقعِدانِه. فيقولانِ لَهُ: ما كنتَ تقولُ في هَذَا الرَّجُلِ مُحمَّدٍ؟ فأما المؤمنُ فيقولُ: أشهدُ أنَّه عبدُ الله ورسولُه. فيقالُ له انظرْ إلى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ فقدْ أبدلكَ الله به مَقْعَداً مِنَ الجنَّةِ، قالَ النبيُّ ﷺ فيراهُما جَميعاً، وأمّا الكافرُ أو المنافقُ فيقولُ: لا أدري كنتُ أقولُ ما يقولُ الناسُ فيهِ، فيُقالُ لَهُ لا دريْتَ ولا تَلَيْتَ. ثُمَّ يُطْرَقُ بمطرقةٍ منْ حَديدٍ ضَربةً بينَ أُذنيهِ فيصيحُ صيحةً يسمعهُ مَنْ يليهِ إلاَّ الثَّقلينِ»[(١)].

وفي روَايةٍ للترِمذي «يُقالُ لأحدِهما المنكرُ وللآخر النكيرُ»[(٢)].

ومنْ حديثٍ رواهُ الإمامُ أحمدُ عَنِ البَراءِ بن عَازبٍ «إن المسلم إذا سُئل في قبرِه شهد أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وأنَّ محمداً رسولُ الله فذلكَ قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ [ابراهيم: ٢٧]»[(٣)] قالَ تعالى حكايةً عن الكفارِ ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١] قالَ بعضُ المفسرينَ: الموتةُ الثانيةُ هي الموتةُ بعدَ السؤالِ، ومنَ الأدلةِ على عَذَابِ القَبْرِ قولهُ جلَّ جلالُه:



(١) رواه البخاري (١٣٠٨) و(١٢٧٣) ومسلم (٢٨٧٠) وأبو داود (٣٢٣١) والنسائي (٤/ ٩٧-٩٨).

(٢) رواه الترمذي (١٠٧١) وحسنه.

(٣) هذا حديث متفق عليه رواه البخاري (١٣٠٣) ومسلم (٣١١٩) وأبو داود (٤٧٥٠) وقد رواه أحمد (٤/ ٢٨٢).

﴿ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ۝ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٥ ـ ٤٦] وفي الصَّحيحين وغيرِهما: أنَّ النبيَّ ﷺ مرَّ بقبرينِ. فقالَ: إنَّهما ليُعذبانِ وما يُعذَّبانِ في كبيرٍ ثم قال: «أمَّا أحدُهما فكانَ يمشي بالنَّميمةِ، وأمَّا الآخرُ فكانَ لا يستبرىء من بَولِه»[١].

وثبتَ أنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ كانَ يستعيذُ مِنْ عذابِ القبرِ[٢]، وقدْ أنكرَ بعضُ المُعتزلةِ السؤالَ وعذابَ القبرِ مُتمسّكينَ بأنَّ اللذةَ والألمَ والتَّكلمَ فرعُ الحياةِ والعلمِ والقدرةِ، ولا حياةَ بلا بُنيةٍ لأنَّها فَسَدتْ. ولأنَّا نرى المَيْتَ ساكِناً لا يسمعُ مَقَالاً ولا يَظهرُ عليهِ أثرُ عذابٍ أو نعيم. بلْ مِنَ الأمواتِ مَنْ يُحرقُ ويصيرُ رَماداً أو تذروهُ الرياحُ فلا تُعقَلُ حياتهُ ولا سؤالهُ، والجوابُ ما دامتْ النصوصُ القطعيةُ أثبتتْ ذلكَ وجبَ المصيرُ إليها، ولا نسألُ عنْ الكيفيةِ ونُفوِّضُ علْمَها إلى اللهِ تَعالى. كيفَ لا وإنَّا نَرَى النائمَ ساكِناً بظاهرِهِ وهو يحسُ بلَذةٍ أو ألَم، وليسَ كلُ ما يوجدُ في الكونِ يجبُ أنْ يُحسَّ فقدْ كانَ ﷺ يشاهدُ جبريلَ عليهِ السلامُ ويسمعُ كلامهُ ومَنْ حولَه لا شعورَ لهم.

ولا يُستثنى مِنْ سؤالِ المَلَكينِ إلاَّ الأنبياءُ والشهداءُ والمرابطونَ في سبيلِ اللهِ، وملازمُ قراءةِ المُلْكِ والسَّجْدَة، ومريضُ البطنِ ومنْ ماتَ ليلةَ الجمعةِ أو يومِها، والمطعونُ وقارىءُ سورةَ الإخلاصِ في مرضِه وأطفالُ المؤمنينَ، وقيلَ في الأخيرِ إنَّهم يُسْألونَ ويُلَقَّنُونَ الجوابَ، وأما أطفالُ الكفرةِ فقدْ ثبتَ عن أبي حنيفةَ الوقْفُ في شأنِهم.

## [مسألة الحشر]

وأمَّا بَعثُ الناس للحشرِ هو حقٌّ لا تردُّدَ فيه. دلَّتْ عليهِ الآياتُ الكثيرةُ والأحاديثُ المستفيضةُ، فمنْ أنكرَ ذلكَ فهو كافرٌ لا محالةَ من ذلكَ قولهُ

---

(١) رواه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: عذاب القبر من الغيبة والبول الحديث (١٣١٢) ومسلم (٢٩٢) والترمذي (٧٠) وأبو داود (٢٠ـ٢١) والنسائي (١/ ٢٨ـ٣٠).

(٢) رواه البخاري (١٣١١) ومسلم (٥٨٨).

تعالى: ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٩]،

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس: ٧٨ ـ ٧٩].

وقد جمعتُ رسالةً سَميتُها البعثَ، استقصيتُ جميعَ ما وردَ من الآياتِ الكريمةِ في شأنِ البعثِ، والحكمةُ فيهِ أنَّ الإنسانَ إذا أيقنَ أنَّه لا بُدَّ أنْ يُحشرَ ويُحاسَبَ على أعمالِه، ثم يُصارُ بِهِ إلى نَعيمٍ مُخلَّدٍ أو جَحيمٍ مُؤَبَّدٍ، يرتدعُ عن المَساوي، والدليلُ العَقلي للحشرِ: هو أنَّ اللهَ تعالى أنشأَ الخلقَ من العَدَمِ، ومَنْ كانَ قادِراً على الإنشاءِ فهو قادرٌ على الإعادةِ وهوَ مقدورٌ للهِ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي ﴾ [التغابن: ٧] ولقد أنشدَ بَعضُهم:

زعمَ المنَّجمُ والطبيبُ كلاهما ... لاتحشرُ الأجسادُ قلتُ إليكُما
إنْ صحَّ قولُكما فلستُ بخاسرٍ ... أوَ صحَّ قولي فالخَسارُ عَليكُما

وهذا القولُ من بابِ التَّنزلِ للخصمِ، وإلا فالحشرُ لا تَردُّدَ فيهِ ولا إنكارَ، وأولُ من تنشقُ عنهُ الأرضُ المصطَفى. ثم صاحباهُ ثُمَّ أهلُ البقيعِ ثُمَّ أهلُ مَكَّةَ ثُمَّ أهلُ الشَّامِ ثُم مَنْ بَنى في المدينةِ إلى الشَّام.

* * *

٩٧ـ وَقُلْ يُعَادُ الجسمُ بالتحقيقِ ... عَنْ عَدَمٍ وَقِيلَ عن تَفْريقِ
٩٨ـ مَحْضَيْنِ لَكِنْ ذَا الخِلافُ خُصَّا ... بالأنبيا وَمَنْ عليهِمْ نُصَّا

## [إعادة الأجسام عندَ الحشر]

يجبُ عليكَ أيُّها المكلَّفُ أنْ تعتقدَ أنَّ اللهَ تعالى يعيدُ الأجسامَ بَعدَ فَنائِها أو تَفرُّقِها. فيجمعُها اللهُ تعالى ويؤلفُ بينَها كما كانتْ قالَ تعالى: ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٩] وقال تعالى حكايةً عن إبراهيم عليه السلامُ: ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٠]

وهذا الاختلافُ في الإعادةِ لا يشملُ مَنْ نُصَّ عنهم بأنَّهم أحياءٌ كأجسادِ الأنبياءِ والعلماءِ العاملينَ والشهداءِ المقتولينَ في المعركةِ، والقُرَّاءِ المُخلصينَ. والمؤذنينَ المُحتسبينَ. وعَجْبِ الذَّنبِ والجنةِ والنارِ والعرشِ والكُرسي واللوحِ

القلم قال بعضهم:

لا تأكلُ الأرضُ جِسماً للنبيِّ ولا لِعالمٍ وشهيدٍ قُتِلَ مُعترك
ولا لقارئِ قُرآنٍ ومُحتسبٍ أذانه لإلهِ مجري الفُلك

وَوَرَدَ في الأحاديثِ النبويةِ الزيادةُ على ذلكَ.

* * *

٩٩ـ وفي إعَادَةِ العَرَضْ قَوْلانِ ورُجِّحَتْ إعَادَةُ الأعيانِ
١٠٠ـ وَفي الزَّمَنْ قَوْلانِ والحِسَابُ حَقٌّ وما في حَقٍّ ارْتيابُ

## [إعادة الأعراض والأزمنة]

الأعراضُ القائمةُ بالأجسادِ كالطولِ والقِصَرِ، والبياضِ والسوادِ تُعادُ بأعيانِها، ولا يُشكِلُ عليهِ قولهُ تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦] ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧] ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢] وكحديثِ الغُرِّ المُحجَّلين(١)، وإنَّ أهلَ الجنةِ مُردٌ(٢)، لأنَّ الأعراضَ الأصليَّةَ تُعادُ عندَ البَعثِ منَ القُبورِ، ثمَّ تُبَدَّلُ بغيرِها، وهكذا يُقالُ في إعادةِ الأزمنةِ التي مرتْ على الجسمِ بالتدريجِ، وإنْ كانَ الأحسنُ التفويضَ وعدمَ التعمقِ في مثلِ هذه الأمورِ.

## [مسألة الحساب]

ويجبُ على المُكلَّفِ الاعتقادُ بالحسابِ لِثُبوتِهِ بالكتابِ والسُّنةِ وإجماعِ الأمةِ، وقد وردَ في صحيحِ البُخاري عن عائشةَ رضيَ الله عنها أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «مَن حُوسِبَ عُذِّبَ، قالتْ عائشةُ: فقلتُ أوَ ليسَ يقولُ الله عزَّ وجلَّ (فسوفَ يحاسَبُ حِساباً يسيراً) فقال إنمَّا ذلكِ العَرْضُ، ولكنْ مَنْ نُوقشَ الحِسابَ هَلَكَ»(٣) والعَرْضُ أنْ يُعَرَّفَ ذُنوبَه ثم يُتجاوزَ عنهُ وحسابُ كلِّ واحدٍ بحَسَبِه، ومنَ المؤمنينَ مَنْ لا يُحاسَبُ كما جاءَ في البُخاري: «إنَّ سبعينَ ألفاً مِن



(١) رواه البخاري (١٣٦) ومسلم (٢٤٦).
(٢) رواه الترمذي (٢٥٤٨) وهو حسن بشواهده.
(٣) رواه البخاري (١٠٣) ومسلم (٢٨٧٦) وأبو داود (٣٠٩٣) والترمذي (٢٤٢٨).

أُمَّتِه ﷺ يدخلون الجنة بغير حساب وهم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون، فقال عُكاشةُ بنُ مُحصنٍ، أمنهم أنا يا رسول الله ؟ قالَ: نعم فقامَ آخرُ فقال: أمنهم أنا قال: سبقكَ بها عُكاشةُ»[1] وقد ثبتَ أن أبا بكرٍ الصديق لا يحاسب، ومن أنكر الحساب فهو كافر.

* * *

١٠١- فَالسَّيِّئَاتُ عِنْدَهُ بِالمِثْلِ ... وَالحَسَنَاتُ ضُوعِفَتْ بِالفَضْلِ
١٠٢- وَبِاجْتِنَابِ لِلكَبَائِرْ تُغْفَرُ ... صَغَائِرٌ وَجَا الوُضُو يُكَفِّرُ

قالَ الله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] وهذا كَرَمٌ منَ الحقِّ وتَفَضُّلٌ على عَبيدِه، فَمَنْ عَمِلَ حَسنةً جازاهُ الله عَليهَا عشراً، وهذا أقلُ التَّضعيفِ، وقد تُضاعفُ إلى سَبعمائةٍ، كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١].

ورَوى البُخاري بِسَنَده عن ابن عَباس رضيَ الله عنهما عن النبي ﷺ فيما يرويهِ عن ربهِ عزَّ وجلَّ قالَ: «إنَّ الله كَتَبَ الحسناتِ والسيئاتِ، ثُمَّ بيَّنَ ذلكَ فَمن هَمَّ بحسنةٍ فلمْ يَعملْهَا كَتَبها الله لَهُ عِندَهُ حَسَنةً كامِلةً، فإنْ هُوَ هَمَّ فعملَها كتبهَا اللهُ لهُ عِندَهُ عَشر حسناتٍ إلى سَبعمائة ضعفٍ إلى أضعافٍ كثيرةٍ، ومن هَمَّ بسيئةٍ فلمْ يعملْها كتبَها الله عندهُ حَسنةً كاملةً، فإنْ هُوَ همَّ بها فعمِلَها كتبَها الله له سيئةً واحدةً»[2] وظاهرُ هَذا فيما لو تَركَها لوجهِ الله، أمَّا لو تَركَها مُكرهًا فلا تكتبُ لهُ، والهَمُّ هو حديثُ النفس، وهو دونَ العزمِ، والعزم يؤاخذُ العبدُ عليهِ، لأنَّه تَوطِينُ النفس. ويشهدُ لِذلكَ قَولهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ «إذا التقَى المسلمانِ بسَيفَيْهِما فالقاتلُ والمقتولُ في النَّارِ، فقيلَ يا رسولَ الله: هذا القاتلُ



(١) رواه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب الحديث (٦١٧٥) ورواه الترمذي في كتاب: صفة القيامة، رقم: (٢٤٣٧).
(٢) هذا حديث متفق عليه فقد رواه البخاري (٦١٢٦) ورواه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: إذا هم العبد بحسنة كُتبت، وإذا همَّ بسيئة لم تُكتب الحديث (١٣١).

فما بالُ المقتولِ؟ قال: إنَّه كانَ حريصاً على قَتْلِ صاحبِه»[1].

## [مسألة الكبائر]

وليُعلَمْ أنَّ العبدَ إذا اجتنبَ الذنوبَ الكبائرَ، يُكَفِّرُ الله عنهُ الذنوبَ الصَغائر قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]

أي الصَغائرَ، وفي الحديثِ «ما مِنْ عبدٍ يُصَلِّي الصلواتِ الخمسَ. ويصومُ رمضانَ. ويُخرجُ الزكاةَ. ويجتنبُ الكبائرَ السبعَ. إلا فُتحتْ له أبوابُ الجنةِ. ثمَّ قيلَ ادخلْ بسلام»[2] رواهُ ابنُ جَريرٍ في تَفسيرِهِ من حديثِ أبي هُريرةَ وأبي سعيدٍ الخُدري، وأَجْمَعُ قولٍ في الكَبائرِ ما رُوِيَ عنْ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما، أنَّها كُلُّ ذَنبٍ خَتَمهُ اللهُ، بنارٍ، أوغَضَبٍ، أو لَعنةٍ، أو عَذابٍ، ومِثله لو قُرنتْ بِتَفسيقِ صاحبِها.

والأخبارُ الواردةُ بِحَصرِها في سَبْعٍ أوتسعٍ، فالمرادُ منها الموبقاتُ كما وردَ في الحديثِ: «اجتنبوا السبعَ الموبقاتِ. الشِركَ باللهِ. والسِّحرَ. وقتلَ النفسِ التي حرَّم الله قتلَها إلا بالحقِ، وأكلَ الربَا، وأكلَ مَال اليتيمِ، والتَّولي يومَ الزَحفِ، وقذفَ الغافلاتِ المؤمناتِ»[3].

وممّا وردَ في السُّنةِ أنَّ الوضوءَ يُكفرُ الصغائرَ. كما وردَ في الحديثِ[4]، ومن المُكَفِّراتِ الصلواتُ الخمسُ. وصومُ رمضانَ. والحجُ. ووردَ أنَّ من الذنوبِ ذُنوباً لا يُكفرهَا صومٌ ولا صلاةٌ ولا جهادٌ وإنما يُكفرُهَا السعيُ على العِيالِ، وهذا كُلهُ في المُتعلِقَةِ بحقوق الله تَعالى، وأمّا المتعلقةُ بحقوقِ العِبادِ فلا بدَّ فيها من المُقاصَّةِ، بأنْ يؤخذَ من حسناتِ الظالمِ وتُعطى للمظلومِ كما

---

(١) رواه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما الحديث (٣١) ومسلم الحديث (٢٨٨٨).

(٢) رواه النسائي (٥/٨) في كتاب الزكاة باب وجوب الزكاة.

(٣) رواه البخاري في كتاب: الوصايا، باب: قول الله تعالى ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى..﴾ الحديث (٢٦١٥) ومسلم (٨٩) وأبو داود (٢٨٧٤) والنسائي (٦/٢٥٧).

(٤) انظر مسلم (٢٣٤) وأبو داود (١٦٩-١٧٠) والترمذي (٥٥).

وردَ في البخاري «من كانتْ عندَه مظلمةٌ لأخيهِ فليتحلَّلْهُ مِنها فإنَّه ليسَ ثَمَّ درهمٌ ولا دينارٌ من قبلِ أنْ يُؤخذَ لأخيهِ من حَسَناتِه، فإنْ لم تكنْ له حسناتٌ أُخِذَ من سيئاتِ أخيه فَطُرِحتْ عليهِ»[1].

* * *

١٠٣ـ واليومُ الاخِرْ ثُمَّ هَوْلُ المَوْقِفِ حَقٌّ فَخَفِّفْ يَا رَحِيمُ واسْعِفِ

[يوم القيامة وأهواله]

يجبُ الإيمانُ باليوم الآخرِ وأهوالِه لوُرودِ ذلكَ في القرآنِ العظيم قالَ تَعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ [النساء: ٨٧] ولقد سمَّاهُ الله تعالى بالصَّاخةِ. والقارعةِ والغَاشيةِ. ووصفَهُ بِضُروبِ الشِّدةِ والهَولِ. قالَ عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ﴾ [غافر: ١٨] ﴿فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦ﴾ [المزمل: ١٧ـ١٨ ] ﴿يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ﴾ [المعارج: ١١]

وفي حَديثِ الشَفاعةِ العُظمَى «أنَّ الله يجمعُ الأولينَ والآخرينَ في صَعيدٍ واحدٍ، يُسمعُهُم الدَّاعي ويُنفِذُهم البصرُ، وتدنُو الشمسُ فيبلغُ النّاسُ من الغم والكَربِ ما لا يطيقونَ ولا يَتحملونَ، فيقولُ الناسُ ألا ترونَ ما قدْ بَلَغكُمْ، ألا تنظرونَ مَن يشفعُ لكم إلى ربكم»[2] ووردَ: «أنَّ الناسَ يعرقُونَ. فيذهبُ عَرقُهم في الأرضِ سبعينَ ذِراعاً، ويُلجِمهُم العرقُ حتى يبلغَ آذانَهم»[3].

فَرحمتكَ اللهمَّ يا رحيمُ، خَففْ عن عبادِكَ، واسعِفْنَا بحنانِكَ، وليُعْلمَ أنَّ الأنبياءَ والأولياءَ والصُّلحاءَ ناجونَ بفضلِ الله تعالى من هذهِ الأهوالِ، مُسعفونَ

---

(١) رواه البخاري في كتاب: المظالم، باب: مَنْ كانت له مظلمة عند الرجل فحلَّلها له الحديث (٢٣١٧).

(٢) رواه البخاري في كتاب: الأنبياء باب: ﴿إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه..﴾ الحديث (٣١٦٢) ومسلم الحديث (١٩٤).

(٣) رواه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: ﴿ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون..﴾ الحديث (٦١٦٧) ومسلم الحديث (٢٨٦٣).

برحمةِ ذي الجلالِ قالَ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠ ـ ٣٢]

* * *

١٠٤ـ وَواجبٌ أَخْذُ العِبادِ الصُّحُفَا ... كَمَا مِنَ القُرْآنِ نَصّاً عُرِفَا

١٠٥ـ وِمِثْلُ هَذَا الوَزْنُ والمِيزَانُ ... فَتُوزَنُ الكُتْبُ أَوِ الأَعْيَانُ

## [أَخْذُ العبادِ الصحفَ]

مِمّا يجبُ اعتقادُه أيضاً. أنَّ المُكلَّفينَ مِنَ الثَّقلينِ يأخذونَ صُحفَهم التي كُتبتْ فيها أعمالُهم ما عدا السَّبعين ألفاً. والملائكةِ، والأنبياءِ. ولقد وردَ أنَّ الريحَ تُطَيِّرُهَا منْ خِزانةٍ تحتَ العَرْشِ فلا تخطىءُ صحيفةٌ عُنقَ صاحِبها. قالَ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩ ـ ٢٠] ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٥ ـ ٢٦]

## [الوزن والميزان]

ويجبُ الاعتقادُ أيضاً بالوزنِ وأنَّ ذلكَ حقيقةٌ كما وردَ به القرآنُ. قالَ تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ [الأعراف: ٨] وقالَ تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧] ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢ـ ١٠٣].

وأمّا كيفيةُ وَزنِ الأعمالِ معَ أنّها أعراضٌ. فقد ثبتَ بالسُّنةِ أنَّها تُصَوَّرُ بصُوَرٍ حَسَنةٍ إنْ كانتْ الأعمالُ صالحةً، وبصُورٍ قبيحةٍ إنْ كانتْ بخلافِ ذلكَ وَلا يُعجِزُ الله شيءٌ، فلا عِبْرةَ لكلامِ المُعتزلةِ الذينَ يُنكرونَ ذلكَ، ويقولونَ إنَّ المُرادَ بالوزنِ والميزانِ إقامةُ العَدْلِ.

ومِنْ فوائدِ الوزنِ امتحانُ العبادِ بالإيمانِ بالغيبِ في الدُّنيا، وجعلُ ذلكَ علامةً لأهلِ السَّعادةِ والشقاوةِ، وتعريفُ العبادِ ما لَهم من الجزاءِ على الخَيرِ والشرِ،

هذا الكلامُ مُرتبٌ على مَا قبلهُ. ويُؤخذ منهُ أنّه لم يتأخرْ عن الإرشاد لحظة ما. والمرادُ بالخلقِ هم الثّقلانِ: الإنسُ والجنُّ المُكلّفون منهم. فإرسالهُ لهما إرسالَ تكليفٍ بنصِّ القُرآن، [لا] سيّما في سورة الرحمنِ والجنِّ. ولم يُرسَل للجن نبيٌّ غيرُ نَبيِّنا ﷺ. وأما حُكمُ سليمانَ فيهم فحُكمُ سلطَنةٍ ومُلكٍ لا حُكم نُبوة.

وأما قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا﴾ [الأحقاف: ٣٠].

فالمراد: أنَّ هذا الكتابَ يدعو إلى اللهِ كما كانَ مُوسى يدعو إلى اللهِ، وأما إرسالهُ للملائكةِ فإرسالُ تكليفٍ على الخِلافِ، لكنْ بأمورٍ تليقُ بهم لا تقاس على أمورِ الثَّقلَيْنِ؛ وأما إرسالُه لباقي الخَلْقِ من الحيواناتِ غير العاقلة فإرسال تشريفٍ إجماعاً. وأمَّا ما وردَ أنَّه يُقتَصُّ للجلحاءِ مِنَ القَرْنَاءِ؛ فالقصاصُ بغير العذابِ بالنَّار بل بشيءٍ يُرضي الآخَر.

والإرشادُ أعمُّ من أنْ يكون بنفسه أو بواسطةٍ، وقد قال ﷺ: «ليبلِّغ الشاهدُ منكم الغائبَ فربَّ مُبلَّغٍ أوعى من سامعٍ»[1].

ورُبَّ قائلٍ يقولُ: إنّ إرشادَه بالسيفِ لم يكن عقبَ البعثةِ، بل كان بعد الهجرةِ بسَنةٍ، لأنه شُرعَ في صَفَرٍ من السنة الثانية من الهجرةِ. فلم يحسن التعقيبَ. بالنسبةِ للأمرِ بهِ: أي فحينَ أُمرَ بالجهادِ لم يتأخرْ أبداً.

## [سيوف رسول الله ﷺ:]

والمراد بالسَّيف آلةُ الجهادِ التي يُباح قتالُ الحربيين بها حتى الحجارة، فقد رمى رسولُ الله ﷺ بالحجَر في يوم أُحد. وقد كانَ لرسولِ الله ﷺ سيوفٌ متعددةٌ. منها ـ المأثورةُ ـ وهو أول سيفٍ مَلَكه، ورثَهُ عن أبيهِ، ومنها ـ القضيبُ ـ ومنها ذو الفَقار ـ ومنها غيرُ ذلك. وقد دفعَ رسولُ الله ﷺ لعُكاشة جذل حطب حين انكسر سيفُه يومَ بدرٍ. وقالَ: اضربْ فعادَ في يدِهِ سيفاً صارماً طويلاً أبيضَ

(١) رواه البخاري في العلم باب قول النبي ﷺ «رب مبلغ أوعى من سامع» الحديث (٦٧). ورواه أحمد (٥/٣٩ـ٤٩).

وإقامةُ الحُجَّةِ عليهم، وإلا فالله تَبارَكَ وتَعَالى لا يخفى عليهِ شيءٌ مِن اعمالِ العبادِ.

* * *

١٠٦ـ كَذَا الصِّرَاطُ، فَالعِبادُ مُختلِفْ مُـرورُهُـم، فَسَـالِـمٌ ومُنْتَلِـفْ

[الصراط المستقيم]

الصِّراطُ: هُوَ جسرٌ ممدودٌ على مَتْنِ جهنَمَ يَردُهُ الأولونَ والآخرونَ، ويتفاوتُ مرورُهم عليهِ، فَمِنْهم فريقٌ سَالِمٌ، وهؤلاء مِنهم مَنْ يجوزُ كَطَرْفِ العَينِ. وبَعدهَم كالبَرقِ الخَاطفِ، وبَعْدَهم كَالرِّيحِ العَاصِفِ، وبَعدَهم كالطَّيرِ، وبَعدَهم كَالجَوادِ السَّابقِ، وبَعَدَهم سَعْياً، وبَعْدَهم مَشْياً، وبَعْدَهم حَبْواً، ومِنهم فريقٌ هالكٌ، بالوقوعِ في جَهنمَ، فالإيمانُ بهِ واجبٌ لقولهِ تَعالى: ﴿فَٱسْتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ﴾ [يس: ٦٦] وهو أَحَدُّ مِنَ السَّيفِ وأَدَقُّ مِنَ الشَّعْرَةِ، إلاَّ أنَّه يَدِقُّ وَيتَسِعُ بحَسَبِ ضِيقِ نُورِ المَارِ وَسَعتهِ، والأسلمُ تفويضُ عِلْمِه إلى الله تَعالى، قالَ رسولَ الله ﷺ:

«فأكونُ أَولَ مَنْ يُجيزُ، ودعاءُ الرُّسلِ يَومَئذٍ اللهمَّ سَلِّمْ اللهمَّ سَلِّمْ. وبهِ كلاكيبٌ مِثلُ شَوْكِ السَّعدَانِ، أمَا رَأيتُم شَوكَ السَّعدانِ؟ قَالُوا بَلى يا رسولَ الله، قالَ فإنها مثلُ شَوْكِ السَّعدَانِ، غَيرَ أنها لا يَعلمُ قَدْرَ عِظمِها إلاَّ اللهُ، يُخطَفُ النَّاسُ بأعمالِهِم، مِنْهم الموبَقُ بِعمَلِه ومنهم المُخَردَلُ ثم يَنجُو»[1] والمُخَرْدَلُ: المُنقَطِعُ تُقَطِعهُ الكَلاليبُ، وفيه، طريقانِ يُمنَى لأهلِ السَعادةِ، ويُسرى لأهلِ الشَقاوةِ، فَمنْ أَعرضَ عنِ الشَهواتِ وسَلَكَ طريقَ الطاعاتِ كانَ أسرعَ مُروراً عليهِ.

* * *



(١) هذا جزء من حديث طويل رواه البخاري (٧٧٣) ورواه مسلم في كتاب: الإيمان باب: معرفة طريقة الرؤية الحديث (١٨٢).
الكلاليب: جمع كلُّوب، وهي حديدة معطوفة الرأس، يُعَلَّقُ فيها اللحم، ويُقال لها: كُلاَّب.
أما السعدان: فهو نبت له شوكة عظيمة مثل الحسك من كل الجوانب.

١٠٧- وَالْعَرْشُ والكُرسيُّ ثُمَّ القَلَمْ والكاتبونَ اللَّوْحُ كُلٌّ حِكَمْ

١٠٨- لَا لِاحْتِيَاجٍ وَبِهَا الإِيمَانُ يَجِبُ عليكَ أيُّها الإِنسَانُ

## [العرش والكرسي واللوح المحفوظ والقلم]

منَ الواجباتِ السَّمعيةِ الإيمانُ بالعرشِ والكُرسي والقَلم والكِرام الكاتبين واللَّوحِ، إذْ كلٌّ وردتْ النصوصُ فيه قال تعالى: ﴿هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۩﴾ [النمل: ٢٦] وقال أيضاً: ﴿وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾ [هود: ٧]

والكُرسي: وهو جسمٌ عَظيمٌ يسعُ السَّمواتِ والأرضَ تحتَ العَرشِ وفوقَ السماءِ السابعةِ، رَوى ابنُ جَريرٍ الطبري في تفسيرهِ عنِ النَّبي ﷺ: «ما السموات السبعُ في الكُرسي إلا كدراهمَ سبعةٍ أُلقيتْ في ترس» وروى أيضاً: «ما الكرسيّ في العَرشِ إلا كحلقةٍ من حديدٍ أُلقيتْ بينَ ظَهري فَلاةٍ منَ الأرضِ»⁽¹⁾. والقلمُ يقولُ الله تَعالى فيه: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ [القلم: ١]

رَوى ابنُ جَريرٍ في تفسيرهِ عنْ ابنِ عباس رضيَ الله عنهما قال: «أوّلُ ما خلقَ الله القَلمَ قال: اكتبْ قال: ما أكتبُ قال: اكتبْ القَدَر فجرى بما يكونُ من ذلكَ اليومِ إلى قِيام السَّاعةِ»⁽²⁾.

والكرامُ الكاتبونَ: همُ السَّفَرةُ الذين عَناهم اللهُ بقولِه: ﴿إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ۝١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ۝١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ۝١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ﴾ [عبس: ١١-١٦]

واللوحُ المحفوظُ: هيَ الصحفُ المُكرَّمةُ، وكلُّ هذهِ المخلوقاتِ لمْ تُخلقْ عَبثاً ولا لِحاجةٍ إليها، بلْ لِفوائدَ يَعلمُها اللهُ تَعالى، فيجبُ الإيمانُ بوجودِها لِورودِ النُّصوصِ القطعيةِ مع الإمساكِ عن تعيينِ حَقائقِها.

* * *

١٠٩- وَالنَّارُ حَقٌّ أُوجِدَتْ كَالجَنَّهْ فَلَا تَمِلْ لِجَاحِدٍ ذِي جِنَّهْ

---

(١) عزاه في الدر المنثور (٢/١٧) إلى ابن جرير وأبي الشيخ في العظمة وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات.

(٢) عزاه في الدر المنثور (٨/ ٢٤٠) إلى عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وغيرهم وقد روى أبو داود (٤٧٠٠) والترمذي (٢١٥٦) وأحمد (٥/ ٣١٧) نحوه عن عبادة بن الصامت بسند صحيح.

١١٠- دَارَا خُلُودٍ للسَّعيدِ والشَّقي        مُعَـذَّبٌ مُنَعَّـمٌ مَهْمـا بَقِـي

## [الجنة والنار]

مذهبُ أهلِ السُنة أنَّ الجنَّةَ والنارَ مخلوقتانِ اليومَ، ووافقَ على ذلكَ قِسمٌ مِنَ المعتزلةِ، منهم أبو عَلي الجُبَّائي، وأبو الحُسينِ البَصْري، إلا أنَّ جمهور المعتزلةِ قالوا، إنَّهما تُخلقَان يومَ القيامةِ لِأنَّ خَلْقَهُما قبلَ يوم الجزاءِ عَبثٌ، وهَذَا القولُ لَيسَ بصحيح لأنَّهُ مُعارَضٌ بالنُصوصِ القَطعيةِ قالَ تَعالى: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣] وقالَ تَعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣١].

ومنَ الدليلِ أيضاً على وُجودِها قصةُ آدمَ عليه السلامُ وحواءَ، وقالَ أيضاً: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴾ [النجم: ١٣].

ومنَ الأحاديثِ الصَّحيحةِ قولُه عليهِ الصلاةُ والسلامُ كما رواه الإمامُ مالك في المُوطَّأ: «إنَّما نَسمةُ المُؤمنِ[١] طائرٌ يَعْلَقُ في شَجَرِ الجنَّةِ حتَّى يُرْجِعَهُ اللهُ إلى جَسَدِهِ يومَ القيامةِ»[٢].

وفي حَديثِ المعْراج: ثُمَّ أُدخلتُ الجنَّةَ فإذَا فيها جنابذُ اللؤلؤِ، وإذا تُرابُها مِسكٌ[٣].

ومنْ فوائدِ وُجودِهما الآنَ تأكيدُ التَّرغيبِ والتَّرهيبِ، وهما دارَا إقامةٍ مؤبدةٍ فالسَّعيدُ مُنعَّمٌ في الجنَّةِ أبداً، والشَّقيُّ مُعذَّبٌ في النَّارِ أبداً، لقولهِ تَعالى في حق المؤمنينَ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٨٢] وفي حق الكفار: ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٧].

وأما عُصاةُ المؤمنينَ فلا يُخلَّدُونَ.

* * *

---

(١) نَسمةُ المؤمن هنا: روحه.

(٢) رواه مالك في الموطأ، رقم: ٥٦٨. ورواه النسائي (١٠٨/٤) وابن ماجه (٤٢٧١) وأحمد (٣/ ٤٥٥-٤٥٦).

(٣) رواه البخاري الحديث (٣٤٢) ومسلم الحديث (١٦٣).

١١١- إيمانُنا بِحوضِ خيرِ الرُّسُلِ ... حَتْمٌ كَما قَدْ جاءَنا في النَّقْلِ
١١٢- يَنالُ شُرْباً مِنْهُ أقوامٌ وَفَوْا ... بِعَهْدِهِمْ وَقُلْ يُذادُ مَنْ طَغَوْا

[الحوض]

يجبُ عَلينا مَعْشَر المُكلَّفينَ الإيمانُ بحَوْضِ النَّبيِّ ﷺ، وذلكَ لِورودِ الآثارِ الجليلةِ الصَّحيحةِ بذلكَ، وقَد قالَ شارحُ الفِقهِ الأكبرِ الشيخُ علي القَاري: إنَّ حَديثَ الحوضِ رواهُ مِنَ الصَّحابة بضعةٌ وثلاثونَ، وكادَ يكونُ متواتراً[1]، وقد وردَ عنهُ ﷺ أنَّه قال: «حَوضِي في الجنَّةِ مَسيرةُ شَهرٍ، وزواياهُ سواءٌ، ماؤهُ أبيَضُ مِنَ اللبنِ، وريُحه أطيبُ مِنَ المسكِ، وطعمهُ ألذُّ وأحلى من العَسلِ، وأبردُ مِنَ الثَّلجِ، وألينُ من الزُّبْدِ، وحَافتاهُ من الزَّبَرْجَدِ، وأوانيهِ مِنَ الفضةِ، وكيزانهُ كنجومِ السَّماءِ، مَنْ شربَ منهُ لا يظمأُ بعدَه أبداً»[2]، وقالَ تَعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ [الكوثر: ١].

رُوِيَ عَنْ سعيدِ بنِ جُبير عَنِ ابنِ عَبَّاس رضيَ اللهُ عنهما: أنَّ الكوثرَ هوَ الخيرُ الكثيرُ الذي أعطاهُ اللهُ إياهُ، فقيلَ لهُ: إنَّ أناساً يزعمون أنَّه نهرٌ في الجنَّةِ، فقالَ سعيدٌ: النهرُ الذي في الجنةِ مِنَ الخيرِ الكثيرِ، يشربُ مِن هذا الحوضِ مَنْ صَدَّقَ باليومِ الآخرِ واتَّبعَ سُنةَ الرَّسولِ ﷺ، ويُطرَدُ عنهُ مَنْ تجاوزَ طريقَ الحقِّ.

ونَقلَ القُرطبي: أنَّ مَنْ خالفَ جماعةَ المسلمينَ كالخَوارجِ، والرَّوافضِ، والمعتزِلةِ والظَّلَمةِ والفَسَقةِ المُعلِنَةِ يُطْرَدُونَ عن الحَوْضِ.

* * *

١١٣- وواجِبٌ شَفاعةُ المُشَفَّعِ ... محمَّدٍ مُقَدَّماً لا تَمْنَعِ
١١٤- وغَيْرِهِ مِن مُرْتَضى الأَخْيارِ ... يَشْفَعُ كَما قَدْ جاءَ في الأَخْبارِ
١١٥- إذْ جائِزٌ غُفْرانُ غَيْرِ الكُفْرِ ... فَلا نُكَفِّرْ مُؤْمِناً بِالوِزْرِ



(١) الحديث المتواتر: هو الذي رواه جمع كثير يؤمن تواطؤهم على الكذب عن مثلهم، إلى انتهاء السند، وكان مستندهم الحس.
(٢) رواه البخاري الحديث (٦٢٠٨) ومسلم (٢٢٩٢).

## [مسألة الشفاعة]

شَرعَ المصنفُ في نوعٍ آخرَ من الواجبات السّمعيةِ، وردتْ به الآثارُ ونطقتْ به الأخبارُ، وهو اعتقادُ وقوعِ شَفاعةِ النبيِّ ﷺ، فهو الشفيعُ المُشَفَّعُ المقدَّمُ على غيرِه في مرتبة الشَفَاعةِ، فله ﷺ شفاعاتٌ، منها الشفاعةُ العُظمى في فصلِ القَضَاءِ، وهي عامةٌ لكلِّ الخلائقِ، فيأتي أهلُ المحْشرِ الأنبياءَ فَرداً فرداً، ويطلبونَ منهم الشفاعةَ. فكلٌّ يُحيلُ على غيرِه. حتى يُرشِدُهم عيسى صلواتُ اللهِ عليهِ إلى الحبيب الأعظم ﷺ، فيقولُ أنا لَها فَيسجدُ تحتَ العرشِ، فيقولُ اللهُ لهُ: ارفعْ رأسكَ، واشفعْ تُشَفَّعْ، وهَذا هو المقامُ المحمُود يحمدُهُ الأولونَ والآخرونَ[1]. ومنها الشفاعةُ في إدخالِ قوم الجنةَ بغيرِ حِسابٍ. ومنْها فِيمنِ استحقَ دخولَ النار فلا يدخلها، ومنها في علماءِ الأمةِ للتَّجاوزِ عن تقصيرِهم، ومنها في تخفيف العَذاب عَمَّنْ خَلَدَ في النارِ كأبي طالبٍ وأبي لهبٍ، قالَ اللهُ تَعالى في إثباتِ الشَّفاعةِ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩].

وهو مُطلَقٌ يشملُ أصحابَ الكبائرِ، وقولُه عليه الصلاةُ والسلامُ: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»[2].

وقد بلغتْ أحاديثُ الشَّفاعةِ الشهرةَ، فَمُنكروهَا كالمُعتزلةِ، وتأويلهُم لهَا بزيادةِ الثَّوابِ؛ لقولِهم بوجوبِ تعذيبِ العَاصي، وإثابةِ الطائع، هُوَ خروجٌ عنِ الجادةِ المستقيمةِ، على أنَّ غيرَه من الأنبياءِ والمُرسلينَ والملائكةِ والصالحينَ ثَبتَتْ لهم شفاعاتٌ في الدَّار الآخرةِ بالأحاديث مِنها حديثُ الصَّحيحينِ «أنَّ ناساً قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يومَ القيامةِ» الحديث بطولِه وفيه: «فيقولُ اللهُ تَعالى شفعتْ الملائكةُ وشفعَ النبيونَ وشفعَ المؤمنونَ ولم يبقَ إلا أرحمُ الراحمينَ»[3]

---

(١) رواه البخاري (٧٠٧١-٧٠٧٢) ومسلم (١٩٣) والترمذي (٣١٤٧).

(٢) رواه الترمذي في كتاب: صفة القيامة، رقم: (٢٤٣٧) وأبو داود (٤٧٣٩) وابن ماجه (٤٣١٠) وهو حديث صحيح.

(٣) رواه مسلم (١٨٣) وأحمد (٣/ ٩٤) ونحوه رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب: قول الله تعالى ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾.

## [عدم تكفير مرتكب الكبيرة]

والشفاعةُ ثابتةٌ مُطلقاً ولو لأهل الكبائر، لأنَّ اقتراف المُؤمن للمعاصي صغيرِها وكبيرِها لا يزحزحه عن مَقرِ الإيمان، وهو مَحلٌ لرحمة المَلِكِ الديَّان. قالَ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨]. وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [الشورى: ٢٥]. وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣].

ولقد خصَّ الله تعالى الخسران بالذين كَفروا بآياتِ ربِّهم ولقائه قالَ تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤].

الآية، ولا التفاتَ بعد هذا إلى قولِ الخَوارج بِكُفرِ العَاصي لِعَدِّهم الأعمالَ رُكناً من الإيمانِ، إلَّا أنَّ أهلَ السُّنَّةِ يعنونَ بذلك الإيمانَ الكاملَ، ولا إلى المُعتزلةِ الذين يقولونَ: إنَّ العاصي ليس مؤمناً ولا كافراً، بل هو في مَنزلةٍ بين المنزلتَين، لأنَّهم وإن عَدُّوا الأعمالَ جزءاً من الماهيةِ[1]، لكنهم يقولونَ: إنَّ الماهيةَ لا تتحققُ بانعدام جزءٍ منها كما أنَّها لا تنعدمُ البتة، وهو مُخلَّدٌ في النَّارِ، ولا التفاتَ أيضاً إلى المُرجئةِ الذين يقولون لا يضرُ مع الإيمانِ ذنبٌ كما لا ينفعُ معَ الكُفرِ طاعةٌ، ومن مَزاعِمِهم أنَّ أهلَ النَّارِ لا يذوقونَ ألَمَ العَذابِ كالحُوتِ في الماءِ وإنَّ المؤمنَ يتمتعُ بنعيمِ الجنَّةِ والكافرَ محرومٌ منهُ.

* * *

١١٦- ومَنْ يَمُتْ ولمْ يَتُبْ من ذَنْبِهِ — فَأَمْرُهُ مُفَوَّضٌ لِرَبِّهِ
١١٧- وواجبٌ تَعذيبُ بَعْضِ ارْتَكَبْ — كَبِيرَةً ثُمَّ الخُلودُ مُجْتَنَبْ

## [حُكمُ من ماتَ ولم يتب من المعَاصي]

إنَّ مَذهبَ أهلِ السُّنةِ والجَماعةِ فيمنْ ماتَ ولم يتبْ من المعاصي التي لم



(١) الماهية: هي ما به يُجاب عن السؤال بما هو، أو هي: ما به الشيء هو.

تكنْ مُكفِرَة، الرجوعُ إلى اللهِ تعالى، وهو تحتَ المشيئةِ لا يُقْطعُ له بالعفو لِئلا يَتجرأ العاصونَ على الذنبِ، ولا يُقطعُ له بالعقابِ لِما سَبقَ من قولِهِ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨]

إلاَّ أنّه يجبُ الاعتقادُ أنَّ الوعيدَ لا بدَّ أنْ يُنفَّذَ في بعضٍ من كل طائفةٍ من طوائفِ أهلِ الكبائرِ غيرِ المُكَفَّرةِ الذينَ ماتوا من غيرِ توبةٍ، والبعضُ يَصدُقُ ولوْ بواحدٍ من كلِّ طائفةٍ، وما بقيَ يحصلُ العفوُ عنهُ. وإنما وجبَ هذا الاعتقادُ لوجودِ الأخبارِ القرآنيةِ والسُّنيةِ بعذابِ أهلِ الكبائرِ في النَّارِ فيستحيلُ تَخلُّفُها بتاتاً. ومَنْ أرادَ اللهُ تعذيبه من عُصاةِ المؤمنينَ فلا يُحكم بخلودِهِ في النَّارِ. فالمُكلَّفُونَ على أقسامٍ: كافرٌ وهو مُخلَّدٌ في النارِ، ومؤمنٌ لم يذنبْ قط كالأنبياءِ فهو في الجنَّةِ قطعاً، ومؤمنٌ مذنب لم يتبْ من الكبائرِ فهو مُخَلَّدٌ في الجنَّةِ إمّا ابتداءً إنْ حصَلَ العفوُ والشفاعةُ أو بعدَ التعذيبِ بالنَّارِ بِقَدْرِ الذَّنْبِ.

* * *

١١٨- وَصِفْ شَهيدَ الحَرْبِ بالحَياةِ وَرِزْقِهِ مِنْ مُشْتَهى الجَنّاتِ

[الشهيد]

رَغَّبَ الله سبحانَه وتعالى عبادَه المؤمنينَ بالاستشهادِ في سبيلِه إعلاءً لكلمتِه فأعَلى درجة الشهداءِ في الجنَّةِ، ورفعَ مقامَهم، وساقَ إليهم الرِّزقَ الرَّغدَ، ووصفهم بالحياةِ فقالَ تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧٠]

إلا أنَّ هذه الحياةَ الموصوفين بها لا يدركُها العقلُ البَشريُّ. وكيفَ يقاسُ عالَمُ الملكوت على عالَمِ المُلْكِ، فيجبُ الإيمانُ بها ولا يُسألُ عن كيفيتِها.

وقال عليه الصلاةُ والسلامُ: «إنَّ أرواحَ الشهداءِ في حواصِلِ طيرٍ خُضرٍ، تَردُ أنهارَ الجنَّةِ، وتأكلُ من ثمارِها، وتأوي إلى قناديلَ من ذهبٍ في ظلِّ العَرْشِ، فيطلعُ الله إليهم إطلاعةً فيقولُ: يا عبادي ما تشتهونَ فأزيدكم؟ فيقولون: ربَّنا لا فوقَ ما أعطيتنا الجنَّة، نأكلُ منها حيثُ شئنا؟ ثلاثَ مراتٍ، ثُمَّ يقولونَ إلاَّ أنّا

نختارُ ان تُرَدَّ ارواحنا في أجسادِنا ثم تَرُدَّنَا إلى الدنيا فنقاتلُ فيكَ حتى نقتل فيكَ»[1].

ويُلحَقُ بالشهداءِ كلُّ مَنْ قُتلَ في سبيلِ الحقِ كقتالِ البُغاةِ، وقُطّاعِ الطَريق، وإقامةِ الأمرِ بالمعروفِ والنَّهي عن المُنكَرِ. ومَنْ قاتَلَ لنَيْلِ الغَنيمةِ فلا يُعَدُّ شهيداً عِندَ الله، وإنْ عُومِلَ معاملةَ الشُهداءِ، فالمُراد أنَّهم ينالونَ ثوابَ الشهداءِ، وهلْ لهم حياةٌ كحياةِ شُهداءِ الحَرب، قال الشُرَّاحُ هم دونَهم في الحياةِ والرِّزقِ والله أعلمُ.

* * *

١١٩- والرِّزقُ عِنْدَ القَومِ ما بِهِ انْتُفِعْ ... وَقِيلَ: لاَ بَلْ ما مُلِكْ، وما اتُّبِعْ

١٢٠- فَيَـرزُقُ الله الحَـلاَلَ فَـاعْلَمَـا ... وَيـرزقُ المكـروهَ والمُحَـرَّمَـا

[الرزق]

لمَّا جرى ذكرُ الرِّزقِ في هذه المسألةِ أتبَعها بالكلام عليهِ، وَبَيَّنَ أنَّ مذهب أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ فيما سَاقَه الله إلى مخلوقه فانتفعَ بهِ فهو رِزقهُ، وَمَنْ مَلَك شيئاً ولم ينتفعْ به فهو ليسَ رِزقاً له، وأنَّه لا يأكلُ أحدٌ رِزقَ غيرِه، ويشهدُ لِهذا قولُه عليه الصلاةُ والسلامُ: «إنَّ روحَ القُدُسِ نَفَثَ في رُوعي أَنَّ نفساً لن تموتَ حتى تستكمِلَ أَجَلَها وتستوعبَ رِزقَها، فاتقوا الله وأجمِلُوا في الطلبِ، ولا يحمِلَنَّ أحَدَكُمْ استبطاءُ الرِّزقِ أن يطلبهُ بمعصية الله فإنَّ الله تَعالى لا ينالُ ما عِنْدَه إلا بالطّاعة»[2].

وقَالَ المعتزلةُ: الرزقُ ما يملكه الإنسانُ انتفع بهِ أم لاَ، وهَذَا القولُ لم يُعَوَّلْ عليهِ. ثُمَّ فَرَّعَ على هذا مسألةً خلافيةً أيضاً بين أهلِ السُنةِ والمُعتزلةِ، وقد أشارَ إليه بقوله (فيرزق الله الحَلالَ الخ) فالرزقُ يكونُ في الحلاَلِ والمَكروهِ والمُحَرَّمِ. والمعتزلةُ لمَّاخصُّوا الرزقَ بالمملوكِ شَرعاً. قالوا لا يرزقُ المكروهَ

(١) رواه الترمذي في كتاب: فضل الجهاد، باب: ما جاء في ثواب الشهداء الحديث (١٦٤١) وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح.

(٢) رواه الحاكم (٢/ ٤) والبيهقي (٥/ ٢٦٤-٢٦٥) وإسناده صحيح.

والمحرَّمَ، وهذه المسألةُ من فروعِ قاعدَتِهم الفاسدةِ قاعدةِ الحُسْنِ والقُبحِ العقليين، وهيَ مردودةٌ بما تَقَدَّمَ عندَ قولِهِ (ويجائزٌ عليه خلقُ الخَيْرِ الخ). وأيضاً يلزمُ عليهِ أنَّ مَنْ أكلَ الحرامَ طولَ عُمرهِ لم يرزقْه الله، وهو خلافُ النصوصِ فهو مردودٌ.

* * *

١٢١- في الاكْتِسَابِ والتَّوَكُلِ اخْتُلِفْ والراجِحُ التَّفْصِيلُ حَسْبمَا عُرِفْ

[الاكتساب والتوكل]

أشارَ المصنفُ إلى مَسألةٍ من مَسائِلِ التَّصوفِ، وذكرَها هُنا لعلاقَتِها بِمَبْحَثِ الرِّزقِ. وَحاصِلهُ أنَّه وقعَ خِلافٌ في الاكتسابِ وهو: السَّعيُ في أسبابِ الرِّزقِ أفضَلُ، أو التَّوكلُ بمعنى التَّجردِ عنِ الأسبابِ، فإنَّ الأولَ مأمورٌ بالتَّوكلِ أيضاً. والمرادُ بِالمُتَجَرِّدِ مَنْ قطعَ النَّظرَ عَنِ الأسبابِ وتَركَ السَّعيَ فيها. فَرَجَّحَ قومٌ الأولَ، لِما فيه مِنْ كَفِّ النَّفسِ عن التَطلُّعِ إلى ما في أيدي النَّاسِ، والتَّذللِ والخُضوعِ لهم معَ حيازةِ مَنصبِ التَّوسعةِ على عِبادِ اللهِ. وصلةِ الأرحامِ، ومُواساةِ الإخوانِ.

وَرَجَّحَ قومٌ الثَّاني، لِما فيهِ مِنْ تَرْكِ كلِّ ما يشغَلُ عَن الله، وسلامتِهِ من فتنةِ المالِ والاتصافِ بالرَّغبةِ إلى اللهِ تعالى والوثوقِ بما عنده. والمُختارُ التفصيلُ فمن كان لا يتطلعُ إلى ما في أيدي النَّاسِ، ولم تتعلقْ بهِ نفقةٌ لازِمةٌ، أو تعلقتْ ورَضيَ المنفقُ عليهِ بحالِهِ، وكانَ لا يسخطُ إذا قَلَّتِ الدُنيا منْ يَدِه، فالتجردُ في حقِّه أفضلُ لِما فيهِ مِنْ تَركِ شهواتِ النَّفْسِ ولَذَّاتها، ومَنْ كانَ على خلافِ ذَلكَ بأنْ كانَ مُتَسَخِّطاً ولا صبرَ عندَه، فالاكتسابُ في حقِّه أفضلُ، وبالجملةِ فالعبرةُ بما أقامَ اللهُ العبدَ فيهِ.

قالَ ابنُ عطاءِ الله السَّكندري: إرادتُك التَّجريدَ مع إقامةِ اللهِ لكَ في الأسبابِ مِنَ الشَّهوةِ الخَفيَّةِ، وإرادتُك الأسبابَ معَ إقامةِ الله لكَ في التَّجريدِ، انحطاطٌ عنِ الرُّتبةِ العَليَّةِ.

* * *

١٢٢- وَعِنْدَنَا الشَّيْءُ هُو المَوْجُودُ ... وَثَابِتٌ في الخَارِجِ المَوْجُود
١٢٣- وُجودُ شَيءٍ عَيْنُهُ والجَوْهَرُ ... الفَرْدُ حَادِثٌ عِنْدنَا لا يُنْكَرُ

## [حقائق الأشياءِ]

مَذهبُ أهلِ الحَقِّ أن حقائقَ الأشياءِ ثابتةٌ، والعِلْمَ بِها متحققٌ، خلافاً للسوفسطائيةِ[1] المعاندينَ. فإنَّ منهم مَنْ ينكرُ حقائقَ الأشياءِ ويزعمُ أنها أوهامٌ وخيالاتٌ باطلةٌ. وهم العنادية.

ومنهم مَنْ ينكرُ ثبوتَها ويزعُمُ أنَّها تابعةٌ للاعتقاداتِ، فإنِ اعتقدَ الشيءَ جوهراً فجَوْهَرٌ، وإنِ اعتقدَه عَرَضاً فَعَرَضٌ، أو قَديماً فَقَديمٌ، أو حادثاً فحادثٌ، وهم العنِديةُ.

ومنهم مَنْ ينكرُ العِلم بثبوتِ شيءٍ ولا ثبوتِه، ويزعمُ أنّه شاكٌ وشاكٌ في أنّه شاكٌ وهلمَّ جرًّا، وهم اللاأدريةُ، فَمذْهبُ أهلِ السُّنةِ يخالفُ هؤلاء ويعتقدون أنَّ الشيءَ هو الموجودُ. فكلُ شيءٍ موجودٌ وكلُّ موجودٍ شيءٌ. والثابتُ الذي يَصلحُ أنْ يُرى هو الموجودُ. وإنَّ وجودَ شيءٍ عينُ ذاتِهِ، وليسَ زائداً على حقيقتِها، فالمعدومُ لا حقيقةَ له في الخارجِ.

## [الجوهر الفرد]

وإنَّ الجوهرَ الفردُ وهو الجزءُ الذي لا يتجزأ، أي لا يقبلُ الانقسام أصلاً، لا طولاً ولا عَرضاً ولا عمقاً ولا قَطْعاً ولا كَسْراً ولا وهماً ولا فَرضاً هو حادثٌ، مسبوقٌ بعدمٍ لملازمته الأعراضَ الحادثةَ، وملازمُ الحادث حادثٌ. وحدوثُ الأعراضِ بمشاهدةِ تَغيرِها وانتقالها من حالةٍ لأخرى، ويلزمُ من حدوثِه حدوثُ العالَم لتركبه. والمُرَكَّبُ من الحادثِ حادثٌ. وهذه المسألة لها تَعَلُّقٌ كبيرٌ بعلمِ التَّوحيدِ. لأنَّه إذا لم يثبتْ حدوثُ الجوهر الفرد فربما يُتَوصلُ إلى القولِ بقِدَمِ العَالَمِ وهذا مُحالٌ وسبحانَ مغيرِ الأحوالِ.

* * *



---

(١) السوفسطائية: مذهب فلسفي يوناني قديم، كان أصحابه يدعون أنهم يستطيعون أن يبرهنوا على النظريات المتناقضة بأدلة منطقية متساوية.

المتن فقاتل به[1]

والمرادُ (بالهدى) القرآنُ والسنةُ. فقد كان ﷺ يُراسل الناسَ أولاً بالقرآن والدعوة للإسلام، فإن أجابوا وإلاَّ أعلمهم بالتهيؤ للجهاد. وهكذا كان خلفاؤه وأصحابهُ مِنْ بعدِه. والمُرادُ (بالحق) الحكمُ المطابقُ للواقعِ، وهو دينُ الإسلام، وتقديمُ السَّيفِ على الهدى في النَّظم إشارةٌ للاهتمام بالجهادِ، وأن ما جاءَ به لا يَظهرُ إلا بالجهادِ على أنّ الواوَ لا تُفيد ترتيباً على الصحيحِ.

* * *

## ٤ـ مُحمدُ العاقِبُ لِرُسْلِ رَبِّهِ     وآلِهِ وصَحْبِهِ وحِزْبِهِ

أي إنّ الذي جاءَ بتوحيدِ الله تعالى على حينِ فَتْرَةٍ من الرُسلِ، والذي لهُ مِنَ الله الصلاةُ والسلامُ، هو نبيُّنا محمد عليه الصلاةُ والسلامُ وآلهِ وأصحابهِ وحِزْبِهِ. وإنّ هذا الاسم الشريفَ الذي تَسمّى به هوَ أشرفُ أسمائِهِ ﷺ، ولهُ أسماءٌ كثيرةٌ فقد وردَ أنَّ له ألفَ اسمٍ؛ والمُسَمّي لهُ بهذا الاسم جدُّه على الصحيحِ. وقِيلَ أمُّهُ، وجُمعَ بأنها أشارتْ عليهِ بتسميته محمداً بسببِ ما رَأتْهُ من أنّ شخصاً يقولُ لها: فإذا وَلَدتيه فَسَمّيه محمداً، فَسمّاهُ بذلك رجاءَ أنْ يُحمدَ في السماءِ والأرضِ، وقد حقق اللهُ رجاءَه كما سبقَ في علم الغيب. والمُسَمّي لهُ بهِ في الحقيقةِ هو اللهُ، لأنهُ أظهرَ اسمَهُ قبل ولادتهِ ﷺ في الكُتُبِ، وأسماءُ الرسولِ عليه الصلاةُ والسلامُ تَوقيفيةٌ. ومعنى العاقِبِ لرسلِ ربِّه الذي يُحشرُ الناسُ على طريقِه وشرعِهِ. ففي الحديثِ: «أنا العاقبُ فلا نبيَّ بَعْدي»[2] وهذا النصُ لا يُنافي نزولَ عيسى في آخرِ الزّمانِ، ووجودَ الخِضْرِ وإلياسَ الآن، على قولٍ لأنهم أنبياءُ قَبلَهُ في الزّمنِ، ونبوّتُه مُتأخرةٌ عنهم، وإنما كانَ ﷺ هو العاقبُ ليكونَ شَرعُهُ ناسخاً لِغيرِهِ من الشرائعِ، ولأنَّهُ الثمرةُ العُظمى إذ هو المقصودُ مِنْ هذا العَالَمِ، والثمرةُ في الأشياءِ تأتي آخرَها. والمرادُ مِنَ الآلِ في البيتِ: الذين شملتْهم مِنَ الله الصلاةُ والسلامُ هو كلُّ مؤمنٍ ولو عاصياً؛ لأنَّ المقامَ مقامُ الدُّعاءِ، لأنَّ العَاصي أشدُّ احتياجاً مِنْ غيرِهِ.

---

(١) أورده ابن هشام في السيرة (١/٦٣٧) عن ابن اسحاق بغير سند.

(٢) أخرجه البخاري الحديث (٣٣٣٩) ومسلم الحديث (٢٣٥٤) ومالك (٢/١٠٠٤) وبتمامه رواه الترمذي (٢٨٤٢).

١٢٤ـ ثُمَّ الذُّنوبُ عِنْدنَا قِسْمَانِ صَغيرةٌ كَبيرَةٌ فَالثَّاني
١٢٥ـ مِنْهُ المتَابُ وَاجِبٌ في الحَالِ ولا انتِقَاضَ إن يَعُدْ للحالِ.
١٢٦ـ لَكنْ يُجَدِّدْ تَوْبةً لِمَا اقْتَرَفْ وفي القَبُولِ رَأيُهُمْ قَدْ اخْتَلَفْ

[الكبائر والصغائر]

شرعَ المصنفُ يتكلمُ على أمرٍ اتفقَ عليهِ أهلُ السُّنةِ والجَماعةِ، مخالفينَ فيهِ المُرجِئَةَ الذينَ يقولونَ إنَّ الذنوبَ كُلَّها صغائرٌ. ولا يضرُّ مع الإيمان ذنبٌ، والخوارجَ الذينَ يقولون إنَّ مرتكبَ الذَّنْبِ مطلقاً كافرٌ، فَبَيَّنَ رحمهُ الله أنَّ الذنوبَ عِندَ أهلِ السُّنة قِسْمانِ: صغائرُ وكبائرُ، فالكبائرُ لا تُحصرُ بِعدَدٍ. وإنما تُعلَمُ بقرائنَ. ومنها إيجابُ الحدِ على فاعِلها. ومِنها الإيعادُ عليها بالعذاب بالنَّار، ومنها وصفُ فاعلها بالفسقِ، ومنها اللعنُ، وأكبرُها الكفرُ بالله، ثم القتلُ العَمْدُ. وما خرجَ عن ضابطِ الكبيرةِ وَحدها فهي صغيرةٌ، ولا تُحصَرُ أفرادُها، وتنقلبُ الصغيرةُ كبيرةً بأمورٍ: منها الإصرارُ عليها، فقد وردَ عنه ﷺ أنَّهُ قال: «لا صغيرةَ مع الإصرار، ولا كبيرةَ مع الاستغفار»(١).

ومنها التهاوُنُ والفرحُ والافتخارُ بها،

[التوبة]

والمعصيةُ الكبيرةُ يجبُ منها المتابُ فوراً حالَ التَّلبُّسِ بها، ولا تصح التوبة إلا بأمورٍ ثلاثةٍ، منها الإقلاعُ عن المعصيةِ، والنَّدمُ على فعلها، والعزمُ على أن لا يعودَ إلى مِثلها، وهذه الأركانُ للمعاصي التي تكونُ بينَ العَبدِ وربِّه، أمَّاالمتَعلقةُ بحقوقِ الآدميينَ فيزادُ ردُّ المظالمِ إلى أهلها، أو مسامحتُهم لهُ ولو إجمالاً عند الإمامِ مالك، فبراءةُ المجهول صحيحةٌ عندهُ، فإن لمْ يقدرْ على ردِّ المظالم بأنْ كانَ مُتفرقَ الذِّممِ، المطلوبُ منه الإخلاصُ وكثرةُ التَّضرعِ، لعلَ الله يُرضِي عنهُ خصماءَهُ يومَ القيامةِ، ولقد اتفقت أئمةُ الدِّين على وجوبِ التوبةِ لقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

---

(١) رواه القضاعي في مسند الشهاب الحديث (٨٥٣) وفي سنده أبو شيبة الخراساني قال عنه الذهبي أتى بخبر منكر وذكر هذا الخبر.

وعلى قَبولها إنْ كانتْ مُستجمعةَ الشرائطِ لقوله ﷺ: «إذا تاب العبد أنسَى الله الحفظةَ ذنوبه وأنسَى ذلكَ جوارحه ومعالمهُ منَ الأرضِ حتّى يلقى الله وليسَ عليه شاهدٌ بذنْبٍ»(١).

وَليُعلمْ أنَّ الإنسانَ إذاَ نقضَ توبتَه الشّرعيةَ، وعادَ إلى ما كانَ عليه من الذُنوبِ، لاتعودُ ذنوبُه التي تابَ منها، بل عَوْدُه ونَقْضُه معصيةٌ أخرى، وقد اختلفَ العلماءُ في طريقِ القبولِ للتوبةِ، فقال أهلُ الحقِّ من أهلِ السُّنة: لا يجب على الله عَقلاً قبولُ توبةِ التائبِ. وهل يجبُ قَبولُها سمعاً ووَعداً؟ فقال أبو الحَسن الأشعَري: نعَم لِورودِ الأدلةِ القاطعةِ. وكلُّ هذا في غيرِ الكَافر. فأما إن تابَ فتوبتُه مقبولةٌ قطعاً لقولهِ تَعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

والفرق بين الكَافر والعَاصي، أنَّ الكَافرَ مطرودٌ من رحمة الله بالكُلّيةِ، والعَاصي ليسَ كذلكَ، وإنما تُغْسَلُ عنهُ معاصيه بالعذابِ إن لمْ يُتَجاوزْ عنهُ، ثُمّ يُدخلُ الجنةَ، وأمّا الكافرُ فَيُحتاجُ في تأليفهِ بقبول توبتِه، وإلاّ لم يَشمْ ريحَ الجنَّةِ. وقد بيَّنَ الإمامُ النووي رأيَ الأشاعرةِ أنَّ في حالِ الغرغرةِ وهي حالة النَّزع لا تقبلُ توبةٌ ولا غيرُها، كما أنَّ الشمسَ إذا طلعتْ مِن مَغربها أُغلقَ بابُ التوبةِ، وَهُوَ معنَى قولُه تَعالى: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرًاۗ﴾ [الأنعام: ١٥٨]

وأمّا الماتريديةُ فَخصصوا عَدمَ القبولِ منَ الكافر دونَ المؤْمنِ العَاصي، ومن جملةِ مُكفراتِ الكبائر الحجُ المبرورُ، فَقدْ ورد عنه ﷺ: «مَنْ حجَّ ولَمْ يرفثْ ولمْ يفسُقْ رجَعَ مِنْ ذنوبِهِ كيومَ وَلَدَتهُ أُمّهُ»(٢)

وكذلكَ الجهادُ في سبيل الله فَقدْ ورد أنَّ الغزوَ في سبيل اللهِ في البرِّ يُكَفرها إلا التَّبعات، وفي البَحرِ يُكفِّرُها حتَى التّبعات.

* * *

(١) عزاه في الجامع الصغير (٥١٣) إلى ابن عساكر بسند ضعيف.

(٢) رواه البخاري في كتاب: الإحصار، وجزاء الصيد باب: قول الله تعالى ﴿فلا رفث﴾ الحديث (١٧٢٣) ومسلم (١٣٥٠).

١٢٧ـ وَحِفظُ دِينٍ ثُمَّ نَفسٍ مَالُ[1] نَسَبْ  وَمِثْلُها عَقلٌ وعِرْضٌ قد وَجَبْ

[الكليات الخمس]

شرَعَ المصنفُ يتكلمُ عى المسألةِ المعروفةِ بالكُلِّيَّاتِ الخَمس أو الستِ، فَبَيَّنَ أنَّ جميعَ الشَرائعِ الإلهيةِ متفقةٌ على حِفْظِ هذه الكُلِّيَّاتِ، صيانةً لها عن الإهدارِ وعن التَّعرضِ لهَا بما يخلُ بها، فيجبُ على المُكلَّفِ أنْ يحفظها في نَفْسِهِ، وفيمنْ هَو تحتَ رعايته، ويحفظُها للناس عُموماً، والحفظُ إنَّما يكون بالحدودِ الشَّرعيةِ، إلَّا أنَّ الشارعَ جعلَ إقامةَ الحدودِ للوُلاةِ لكيلا يتسلطَ النَّاسُ بعضُهم على بعضٍ، وليكونَ أدعَى إلى الرَّدْعِ، ولا يباحُ الكُفْرُ ولا انتهاكُ الحُرماتِ، ولذا شُرِعَ القصاصُ في النَّفس، والأطرافِ؛ والدِّيَةُ، ولا يباحُ سَلبُ مالِ الغيرِ بلا مُسوغٍ مشروعٍ، ولِذا شُرِعَ حَدُّ السرقةِ وقطعُ الطَّريقِ، ولا يباحُ الزِّنا بحالٍ، لأنَّه مفسدٌ للنَّسبِ والعِرْضِ لذا شُرِعَ الحَدُّ فيه، ولا تباحُ الجنايةُ على العَقلِ ولذا شُرِعَ حَدُّ القَذْفِ والتَّعزيرِ، وآكدُ هذهِ الأمورِ الدِّينُ لأنَّ حِفْظَ غيرهِ وسيلةٌ إليه. ثُمَّ النَّفسُ ثُمَّ العَقلُ ثم النَّسبُ ثُمَّ المالُ. والعِرْضُ في مرتبةِ النَّسبِ.

* * *

١٢٨ـ وَمَنْ لمَعْلُومٍ ضَرورةً جَحَدْ  مِنْ دِينِنا يُقتَلُ كُفراً لَيسَ حَدْ

١٢٩ـ ومِثْلُ هَذا مَنْ نَفَى لِمُجْمَعِ  أَو استَباحَ كَالزِّنا فَلْتَسْمَعِ

[المكفِّرات]

يجبُ على كلِّ مُكلَّفٍ أنْ يعتقدَ ما أوجبَ الله تَعالى اعتقادَه عَلى المسلمينَ ممَّا ثبتَ من الدِّين بالضَّرورة، كَفَرْضِ الصَّلاةِ. والصوم. وبقيَّةِ أركانِ دينِ الاسلامِ. وَحُرمةِ الزِّنا. والخمر. وغير ذلك. فَمنْ أنكرَ فَرضِيَّةَ رُكْنٍ منْ هذهِ الأركانِ، واعتقدَ حلَّ ما حرَّمهُ الله فَقدْ كَفَرَ. وَلَزِمهُ القَتْلُ لأنَّهُ مُفارِقٌ للجَماعةِ وَمُكَذِّبٌ للرسول ﷺ وقد قالَ الرسولُ: «لا يَحِلُّ دمُ امرىءٍ مُسلم إلا بإحدى ثلاثٍ. الثَّيِّبُ الزَّاني والنَّفْسُ بالنَّفسِ، والتاركُ لدينهِ المفارقُ للجماعَةِ»[2].

---

(١) تقرأ بحذف الألف وسكون اللام.

(٢) رواه البخاري في كتاب: الديات، باب: قول الله تعالى ﴿أن النفس بالنفس =

وليس قتلهُ حدًا كفارة لجُرْمِه كسائرِ الحُدودِ، وقد رأى منه المصنفُ أن مَن نَفى مُجمَعاً عليه إجماعاً قطعياً فإنَّهُ يُكَفَّرُ، لكنَّ هذا رأيٌ منه خاصٌ لمْ يوافقه عليه جمهورُ العُلماءِ. والذي صحَّ عنهم أنَّهُ لا يُحكم بكفره وقتله إلا إذا كان ما جَحَدَهُ معلوماً من الدِّينِ بالضرورةِ. كاستباحةِ الزِّنا واللواطةِ وما أشبه ذلك، وهكذا كلُّ ما ثبت النهيُ عنهُ صغيراً أو كبيراً، وقالَ بعضُهم مَن اعتقَد حِلَّ مُحرَّمٍ فإنْ كانَ تحريمُه لعَيْنِهِ كالزِّنا وشُرْبِ الخَمرِ وقد ثبَتَ بدليلٍ قَطعيٍّ كَفَرَ، وإلاَّ فلا، كَما إذا استَحَلَّ صومَ يومِ العيدِ.

* * *

١٣٠ـ وَواجِبٌ نَصْبُ إمامٍ عَدْلِ ... بالشَّرعِ فاعْلَمْ لا بِحُكمِ العَقْلِ

١٣١ـ فَلَيْسَ رُكناً يُعْتَقَدْ في الدِّينِ ... ولا تَزِغْ عَنْ أمْرِهِ المُبينِ

## [الإمامة العظمى]

هذا البحثُ مِنْ عِلمِ الفُروعِ، وإنَّما ذُكِرَ في علمِ الكَلامِ لكَثرةِ اختلافِ الفِرَقِ في أحكامِهِ، فبيَّنَ المصنفُ رحمهُ الله أنَّهُ يَجبُ على الأُمَّةِ وجوباً كفائياً أنْ يُنَصِّبُوا عليهم إماماً عَدْلاً عندَ عَدَمِ الاستِخْلافِ مِنَ الإمامِ السَّابِقِ، كما وَقَعَ مِنْ أبي بَكرٍ فإنَّه أَوْصَى بالخلافةِ بعدَهُ لِعمرَ رضيَ الله عنهما، فإذا قامَ بذلكَ أهلُ الحَلِّ والعَقْدِ انعقدتْ البَيْعةُ، ولا يُشترطُ عَددٌ محدودٌ، وإذا تَمَّ استخلافُه لا يجوزُ خَلْعُهُ على غيرِ حَدَثٍ وتَغْييرِ أمرٍ، ويشترط في هذا الإمامِ المنصوبِ أنْ يكونَ عَدلاً، وشروطُ العَدالةِ: الإسلامُ. والبلوغُ، والعقلُ، والحريةُ، والبصرُ، وعدمُ الفِسْقِ ويُزادُ فيه شرطُ الذُّكورةِ، وكونُه قُرشياً إلاَّ أنَّ البعضَ مِنَ العُلماءِ قالَ: إنَّ ذلكَ أَوْلى، ولو لمْ يوجدْ في قُريشٍ مَنْ هو أهلٌ لِلخلافةِ يجوزُ بيعةُ غيرِ القُرشي ولو كان بالغَلَبَةِ.

ومِنَ الوجوهِ الدَّالةِ على وُجوبِه: أنَّ الشَّرعَ أمرَ بإقامةِ الحُدودِ وصيانةِ الدِّينِ وحفظِ بلادِ المُسلمينَ وإقامةِ الأحكامِ، وذلكَ لا يَتمُّ إلا بإمامٍ يُرْجَعُ إليه في



= والعين بالعين...» الحديث (٦٤٨٤).

ورواه مسلم في كتاب: القسامة، باب: ما يباح به دم المسلم الحديث (١٦٧٦) وأبو داود (٤٣٥٢) والترمذي (١٤٠٢) والنسائي (٧/ ٩٠-٩١).

ذلكَ، وقد أجمعَ الصحابةُ رِضوانُ الله عليهم عندَ وفاتهِ ﷺ على نَصْبِ إمامٍ عَليهم، حتَّى قَدَّمُوا ذلكَ علىَ دفْنِهِ ﷺ، فإنَّه تُوفي يومَ الاثنين عند الزَوال ودُفِن في آخرِ لَيلةِ الأربعاءِ لاشتغالِ المُسلمينَ بأمرِ نَصْبِ الخَليفةِ.

* * *

١٣١ـ فَلَيْسَ رُكْناً يُعْتَقَدْ في الدِّين     فَـلاَ تـزِغْ عَـنْ أمْـرِهِ المُبيـنِ
١٣٢ـ إلاَّ بِكُفـرٍ فَـانْبِـذَنَّ عَهْـدَهُ     فَـاللهُ يَكْفِينَـا أذَاهُ وَحْـدَهُ
١٣٣ـ بِغَيْـرِ هَـذَا لا يُبَاحُ صَرْفُـه     وَلَيْسَ يُعْزَلْ إنْ أُزِيلَ وَصْفُـهُ

## [حدود طاعة الإمام]

إنَّ نَصْبَ الإمام ليسَ مِنَ الأركانِ التي تُوجبُ الكُفرَ على مُنكرِهَا، لأنَّها ليستْ معلومةً مِن الدِّين بالضرورةِ كالشهادتينِ والزكاةِ والصَّلاةِ والصَّومِ، ومع هذا لا يجوزُ النكولُ عَنْ طاعةِ الإمام بالحقِ، فيجبُ طاعتهُ على جميعِ الرَعايا ظاهراً وباطناً لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ [النساء: ٥٩].

وهُم العُلماءُ والأُمراءُ لقولهِ ﷺ: «مَنْ أطاعَ أَميري فقدْ أطَاعَني ومَنْ عَصى أَميري فَقَدْ عَصَانِي»[١].

فلا يُطَاع في الحَرامِ والمَكروه، وأمَّا المباحُ فإنْ كَانَ فيه مصلحةٌ عامةٌ للمسلمينَ وَجبتْ طاعتُه فيه وإلا فلاَ، فلو نَادى بِعَدَم شُربِ الدُّخانِ المعروفِ الآنَ وجبتْ عليهم طاعتُه، لِأنَّ في إبطالهِ مصلحةً عامةً، ولو أَمَر بالكُفرِ والعياذُ بالله فيجبُ طَرْحُ بَيْعَتهُ جَهْراً إنْ قَدِرَ على ذَلكَ، وإلاَّ فَسِراً، وبغيرِ الكُفرِ لا يجوزُ خَلعُهُ سِرًا ولا جَهْراً.

* * *



(١) رواه البخاري في كتاب: الأحكام، باب: قول الله تعالى: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ الحديث (٦٧١٨) ومسلم الحديث (٨٣٥) والنسائي (٧/ ١٥٤).

١٠٤- وَأْمُرْ بِعُرْفٍ وَاجْتَنِبْ نَمِيمَهْ وَغِيبَـةً وَخَصْلَـةً ذَمِيمَـهْ
١٠٥- كَالعُجْبِ وَالكِبْرِ وَدَاءِ الحَسَدِ وَكَـالمِـراءِ وَالجَدَلْ فَاعْتَمِدِ

## [الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:]

العُرْفُ والمَعروفُ كلُّ ما عُرِفَ مِنْ طاعَةِ الله تعالى، والتقربُ إليه، والإحسانُ إلى النَّاسِ، وكلُّ ما نَدَبَ إليه الشَّرعِ؛ والمُنْكرُ ضِدُّه، وَقَد أوجبَ الله على المسلمينَ وُجوباً كِفائياً الأمرَ بالمعروفِ والنَّهيَ عن المُنكرِ، ليَرْدعَ المجرمُ عَنْ إجرامِه، والمُفسِدُ عَنْ خطئِه.

قالَ الله تَعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وقالَ تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. وقالَ تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. وقالَ تعالى: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٩] وقالَ ﷺ: «مَنْ رأى مِنكُم منكراً فَليغيرهُ بيدِهِ فإنْ لم يستطعْ فَبِلِسانِهِ فإنْ لمْ يستطعْ فَبِقلبِه. وذلكَ أضعفُ الإيمانِ»(١) ولا يعارضُ هذا قولُه تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥].

لأنَّ المعنَى إذَا فَعلتُم ما كُلِّفتُم بِهِ ومنهُ الأمرُ بالمعروفِ والنَّهيُ عن المُنكرِ.

ولوجوبِ الأمرِ بالمعروفِ والنَّهي عَنِ المُنكر شروطٌ: أنْ يكون عالماً بما يأمرُ به أو يَنْهى عَنْهُ. وأنْ لا يُؤدي إلى مَفْسَدةٍ أعظَم. وأنْ يَغلِبَ على الظَّنِّ الإفادةُ فإنْ فقدَ الأولانِ حَرُمَ، وإنْ فقدَ الأخيرَ سَقطَ الوجوبُ.

## [اجتناب الآثام الباطنة:]

ولقدْ نَهى المصنفُ في كلامِهِ عن الخِصالِ الذَّميمةِ التي نهى الله تَعالى عنها، كالنميمَةِ والغِيبةِ والكِبرِ والحَسَدِ والمِراءِ، فَالنَّميمةُ كَشْفُ ما يُكرَهُ كَشْفُه، وإفشاء

---

(١) رواه مسلم (٤٩) والترمذي (٢١٧٣) وأبو داود (١١٤٠) والنسائي (٨/١١١) وابن ماجه (٤٠١٣).

السرّ. وأكثرُ الأقوال فيها أنها تُطلقُ على نَقلِ القَوْلِ المَكرُوه إلى المَقُولِ فيه، وهي حرامٌ إلاّ أنْ يكونَ فيها رفع ضَرر لا يمكنُه إلا بالإعلام، فتكونُ حينئذٍ من بابِ النُصح، قالَ جلَّ وعَلا: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١٠ ـ ١١] وقال ﷺ: «لا يدخل الجنَّةَ قتَّاتٌ»[١] أي نمّامٌ.

والغِيبَةُ: وهي ذِكرُ مساوىءِ الإنسانِ المُعيَّنِ المَعلوم عِندَ المُخاطَبِ، أو محاكاتِها وتَفْهيمها باليدِ أو غيرِها من الجَوارحِ على وَجه السَّبِّ والنَّقصِ، وهما حرامٌ قَطعاً قالَ تَعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢] وقالَ ﷺ: «إنَّ الرجلَ ليُؤتَى كتابَه مَنشُوراً فيقولُ: يا ربُ فأينَ حسنَات كَذا وكَذا عملتُها وليستْ في صَحِيفتَي؟ فيقولُ له مُحِيَتْ باغتيابِكَ للنّاسِ»[٢] وقد تباحُ الغِيبةُ في مواضعَ نَظَمها الجَوْهري في قَوله:

لستٍ غِيبةَ جوزْ وخُذْها مُنَظَّمَةً كأمثالِ الجَواهرْ
تظلمْ واستعنْ واستفتِ حَذِّرْ وَعَرِّفْ واذكرَنْ فِسقَ المُجاهرْ

وهي إخبارُ الحَاكم في ظُلامَتِهِ، وذِكْرُ مَنْ أرادهُ بِسوءٍ لمنْ يستغيثُ به ينصرُهُ، وبيانُ عوراتِ الرجلِ للمفتي حيثُ يُرادُ بذلكَ حُكمٌ. والتَحذيرُ من ضَررِ فُلان ليُتجنّبَ شرُّه. وقَصرَ التَعريفَ عمّا هو موصوفٌ بهِ كالأعرجِ، والقَصيرِ، وذِكرُ المَجاهرِ بالفِسقِ في فِسقِه.

والعُجبُ: وهو استعظامُ النِّعمةِ عِبادَةً أو غيرِها، والركونُ إليها مع نسيانِ إضافتها إلى المُنعِمِ، قالَ ﷺ: «ثَلاثٌ مُهلِكاتٌ. شُحٌ مُطَاعٌ وَهوىً مُتَّبعٌ وإعجابُ المرءِ بنفسِهِ»[٣].

وأقبحُ العُجبِ العُجبُ بالرأي الخطأ، فَيفرحُ به ويُصرُّ عليهِ، ولا يسمعُ نُصحَ ناصحٍ، بل ينظرُ إلى غيرهِ بعينِ الاستهجانِ، قالَ الله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ

---

(١) رواه البخاري في كتاب: الأدب، باب: ما يكره من النميمة الحديث (٥٧٠٩) ومسلم (١٠٥) وأبو داود (٤٧٧١) والترمذي (٢٠٢٧).

(٢) عزاه في الترغيب والترهيب (٣/ ٥١٥) إلى الأصفهاني.

(٣) عزاه في مجمع الزوائد (١/ ٩٠) إلى الطبراني في الأوسط وفيه ابن لهيعة وقد تكلم فيه ورواه القضاعي (٣٢٥) والبزار (٨١) وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٤٣) وهو حديث حسن.

عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨].

والكِبْرُ: وهو احتقارُ النَّاس وهو أقبحُ الأمراضِ القَلبيّةِ، وقد وردَ في ذمِّه نصوصٌ كثيرةٌ من الكِتَابِ والسُّنةِ قالَ جلَّ وعَلا: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥] وقال ﷺ: «لا يَدخلُ الجنَّةَ مَنْ كانَ في قلبه مثقالُ ذَرةٍ مِنْ كِبْرٍ»(١). والحَسدُ: وهو تَمني زَوالِ نعمةِ الغَيرِ، سَواء تمنّاها لِغيرِهِ أمْ لاَ، قالَ تَعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٥] وفي الحديث: «إياكم والحَسَدَ، فإن الحسدَ يأكلُ الحسناتِ كما تأكلُ النارُ الحطبَ»(٢) وقالَ ﷺ: «ليسَ مِني ذو حَسَدٍ ولا نَميمةٍ، ولا كَهانة، ولا أنا منهُ»(٣) ثم تلاَ رسول الله ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

والمِرَاءُ: وهو الطَّعنُ في كلامِ الغَيْرِ بإظهارِ خَلَلٍ فيهِ مِنْ غيرِ قَصْدٍ سوى تحقيرِ الغَيْرِ، وهو حرامٌ قالَ ﷺ: «لا تُمارِ أخاكَ، ولا تُمازِحْهُ، ولا تُوعده مَوْعِداً فتُخلفَهُ»(٤).

والجدلُ: وهو مقابلةُ الحُجةِ بالحُجةِ، والمذمومُ منهُ ما قُصِد بهِ إبطالُ حقٍ أو تأييدُ باطلٍ أو تخجيلُ الخَصم وإظهارُ الفَضيلةِ. قالَ رسول الله ﷺ: «ما ضلَّ قومٌ بعدَ هَدْيٍ كَانوا عليهِ إلا أُوتوا الجَدلَ ثُمَّ تلا قولَه تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨]»(٥)

* * *



(١) رواه مسلم (٩١) وأبو داود (٤٠٩١) والترمذي (١٩٩٩).

(٢) رواه أبو داود (٤٩٠٣) وابن ماجه نحوه (٤٢١٠).

(٣) قال في «مجمع الزوائد» (٨/ ٩١) رواه الطبراني وفيه سليمان بن مسلمة الخبائري وهو متروك.

(٤) رواه الترمذي (١٩٩٦) في البر وفي سنده ضعف.

(٥) رواه الترمذي (٣٢٥٠) وابن ماجه (٤٨) وأحمد (٥/ ٢٥٢-٢٥٦) وإسناده صحيح.

١٣٦ـ وَكُنْ كَمَا كَانَ خِيَارُ الخَلْقِ حَلِيفَ حِلْمٍ تَابِعاً لِلحَقِّ
١٣٧ـ فَكُلُّ خَيْرٍ فِي اتِّبَاعِ مَنْ سَلَفْ وَكُلُّ شَرٍّ فِي ابْتِدَاعِ مَنْ خَلَفْ

[الاقتداء برسول الله ﷺ:]

سَعادةُ المرءِ في دُنياه وأخْراه أنْ يكونَ مُتحلياً بالفضائلِ، مُتجنباً عَنِ الرَّذائلِ. مُتصِفاً بمكارمِ الأخلاقِ، مُقتدياً بالسَّلفِ الصَّالح، مُتَّبعاً لِرَسولِ الله، مُتخلقاً بأخلاقِ مَنْ أثنَى الله عليهِ في كِتابهِ الكريمِ بِقولِهِ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

ومِنْ مَكارِمِ الأخلاقِ الوَاجبِ اتباعُها، الحِلْمُ. وهو أصلٌ عظيمٌ من أصولِ الأخلاقِ وعليهِ مَدارُ صلاحِ الإنسانِ في ذاتِ نَفْسه، وفي معامَلَةِ أبناء جِنسه. قال رسولُ الله ﷺ: «يا أبا هُريرةَ عليكَ بحُسْنِ الخُلُقِ قالَ: وما حُسْنُ الخُلُقِ يا رسولَ الله قال: تصلُ مَنْ قطعكَ وتَعفُو عَمَّنْ ظَلمكَ وتُعطِي مَنْ حَرَمكَ»(١).

وقالَ أيضاً: «وَجَبَتْ محبةُ الله عَلى مَنْ أُغضِبَ فَحَلِمَ»(٢).

والحقُ الذي أُمِرْنَا بمتابعتهِ هُو الدِّينُ القويمُ. قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]

وهذهِ الآيةُ جامعةٌ لجميعِ مَكارمِ الأخلاقِ، فالخيرُ كلُّ الخيرِ في اتِّبَاعِ السَّلفِ الصالح. وهُم الذينَ عَنَاهم رسولُ الله ﷺ بقوله: «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»(٣)

والشَّرُّ كلُّ الشَّرِ في سلوكِ طريقِ البِدَعِ التي لا تنطبقُ على أصلٍ من أُصولِ الدِّينِ. ولا تلائمُ مَقَاصِدَه.

❊ ❊ ❊



(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (٣/ ٤٣٨).
(٢) رواه أبو نعيم في «تاريخ أصفهان» (٢/ ١٣٥) وابن عدي في «الكامل» (٦/ ٢٣٧٥).
(٣) رواه البخاري (٢٥٠٨) ومسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم الحديث (٢٥٣٥) والترمذي (٢٢٢٢) وأبو داود (٤٦٥٧) والنسائي (٧/ ١٧ـ١٨).

١٣٨- وَكل هدي للنبيِّ قد رَجح		فما أبيحَ أفعَلْ وَدَعْ ما لم يبح
١٣٩- فتابِعِ الصَّالِحَ مِمَّنْ سَلَفَا		وجَانِبِ البِدْعَةَ مِمَّنْ خلَفَا

[السُّنة والبدعة]

كَثرتِ البِدَعُ في هَذَا الزَّمانِ، والصَّدُّ عن شريعةِ القُرآن، فَعلينا اتباعُ طريق الله، والسُّلوكِ في حِزبِ الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣] وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢] وقال ﷺ: «عليكم بسُنتي وسُنةِ الخُلفَاءِ الراشدينَ المهديينَ عُضُوا عليها بالنواجذِ وإيَّاكم ومُحدَثَاتِ الأمورِ فإنَّ كلَّ بِدْعةٍ ضَلالةٌ»(١).

* * *

١٤٠- هَذَا وأَرْجُو الله في الإخلاصِ		مِنَ الرِّياءِ ثُمَّ في الخَلاَصِ
١٤١- مِنَ الرَّجيمِ ثمَّ نَفْسِي والهَوى		فَمَنْ يَمِل لِهؤلاءِ قَد غَوَى

[الإخلاص لله تعالى:]

كلُّ قَوْلٍ أو فِعْلٍ ليسَ عليهِ طابعُ الإخلاصِ فهو مردودٌ على صَاحِبِهِ، والإخلاصُ: هو تَمحيصُ الطَّاعة لله عزَّ وجلَّ قالَ تَعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥] وقال ﷺ: «إنَّ الله لا يقبلُ مِنَ العبدِ إلاَّ ما كانَ خالصاً وما ابْتُغِيَ به وجهُهُ»(٢).

والرِّياءُ المستعاذُ مِنهُ: هو الشِّركُ الخفيُّ، الرياءُ على قِسمينِ: جَليٌّ وخَفيٌّ. فالجَليُّ: أنْ يفعلَ الطاعةَ بحضورِ النَّاس ولو خَلا بنفسهِ لمْ يفعلْ شيئاً، والخفيُّ أنْ يفعلَ الطاعةَ بِنفسه وفي حُضورِ النَّاس ولكنْ يَفرحُ إذَا رَأوْهُ أو أُثِرتْ عنهُ، ومثلُه التَّسميعُ وهو أنْ يعملَ العملَ ثُمَّ يُخبِرَ بهِ النَّاسَ، وكلُّ ذلكَ مُحبِطٌ للثَّوابِ، وإنْ صحَّ العملُ، وردَ في الحديثِ القُدسي: «أنا أغنى الشُّركاءِ عن

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٠٧) والترمذي (٢٦٧٨) وأحمد (٤/١٢٦-١٢٧) وابن ماجه (٤٢) والبيهقي (١٠/ ١١٤) وإسناده صحيح.

(٢) رواه النسائي (٦/ ٢٥) وسنده حسن.

[آل بيت رسول الله ﷺ]

وأمَّا في مقام المدْح فهو كلُ مؤمنٍ تَقي. وأمَّا في مَقام الزَّكاةِ فهم بنو هاشم وبنو المُطَّلبِ عند الشَّافعيةِ. وعندَ الحنَفية هم آلُ علي، وآلُ جَعفر، وآلُ عَقيل وآلُ العبَّاس، وآلُ الحَارثِ.

[مَنْ هم صحابة رسول الله ﷺ]

والمرادُ بِصَحْبِهِ في البيتِ: هو كلُ مَنْ صَحِبَ النبيَّ ﷺ مؤمناً به بعد البعثة على وجه الأرضِ، وإنْ لمْ يرهُ كالأعمَى، أو لمْ يروِ عنهُ شيئاً، أو لمْ يميزْ ومات على الإسلامِ.

والمرادُ بِحزبِهِ في البيتِ هُم الذينَ غلبت ملازمتُهم للنبيِّ ﷺ فهو من التَّخصيص بعد التَّعميم.

* * *

٥ـ وبعدُ فالعِلمُ بأصلِ الدِّينِ ... مُحتَّمٌ يحتاجُ للتَّبيينِ
٦ـ لكنْ مِنَ التَّطويلِ كَلَّتِ الهِمَمْ ... فَصارَ فيهِ الاختِصَارُ مُلتَزَمْ
٧ـ وَهذهِ أرْجُوزَةٌ لَقَّبْتُهَا ... جوهرةَ التَّوحيدِ قد هذَّبْتُها
٨ـ واللهَ أرْجُو في القَبُولِ نَافِعاً ... بها مُرِيداً في الثَّوابِ طَامِعاً.

[العلمُ بأصول الدين]

كلمةُ ـ بعدُ ـ يؤتَى بها للانتقالِ من أسلوبٍ إلى أسلوبٍ آخر. وهنا الكلامُ المُنتقَلُ منه هو البسملةُ وما بعدَها؛ والمُنتقَلُ إليه هو بيانُ السبب الحاملِ على التأليفِ. وقد كان ﷺ يأتي بها في خُطَبِهِ ومراسلاتِهِ واختُلِفَ في أولِ مَنْ نطقَ بها على أقوالٍ: أقربُها أنَّه داودُ عليه السلامُ، وكانتْ له فَصلَ الخِطابِ. ولْيُعلَمْ أنَّ العلمَ بأصولِ الدينِ وقواعدِهِ هو فرضٌ عينيٌّ على كل مُكَلَّفٍ ذكراً كان أو أنثى: لقولِه تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] ولو إجمالياً. وأما معرفةُ ذلك بالدليلِ التفصيلي ففرضُ كفايةٍ، فيجبُ على أهل كلِ قُطرٍ يشقُ الوصولُ منها إلى غيرها، أنْ يكونَ فيهم مَنْ يعرفُ ذلك بالدليلِ التفصيلي، لأنَّه ربما طرأت شُبهَةٌ فيدفعُها. والفرقُ بين الدليل الإجمالي والتفصيلي، أنَّ

الشرك فمنْ عَملَ عملاً أشركَ فيهِ غيري تركتهُ لِشريكي»(١) قالَ تَعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ [الماعون: ٤-٦].

وكما يَطلبُ التَّخلُصَ من الرِّياءِ، يطلبُ التَّخلصَ من الشَّيطَانِ الرَّجيم. فهوَ الذي يُفسِدُ على الإنسانِ دينَه، وعلى العَابدِ عبادَتَهُ، وهو جِدُّ حريصٍ أنْ يحولَ بينَ المرءِ وبينَ رحمةِ ربِهِ، وهُوَ أحدُ الأعداءِ الأربعةِ للإنسانِ المُشَارِ إليها بقول الشَّاعِرِ الحَكيم:

إنـي بُلِيـتُ بـأربـعٍ يَـرمينـي ... بـالعَمْـدِ عـن قـوسٍ لـه تـوتيـرُ
إبليسُ والدُنيا ونَفسي والهَوى ... يا ربُ أنت على الخَلاص قديرُ

قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦] وقال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ [الأعراف: ٢٧].

أمَّا النَفْسُ فهي أشدُ كَيداً منَ الشَّيطانِ. وهي النفس الأمارةُ بالسُوءِ، لذلكَ كانَ جهادُها الجهادَ الأكبرَ؛ كما في قولِهِ عليه الصلاةُ والسلامُ: «رَجعنَا مِنَ الجهادِ الأصغرِ إلى الجِهادِ الأكبرِ»(٢)

وهو جهادُ النَّفس والهَوى، وهو ميلُ النَفْس إلى مَحبُوبِها خيراً كَانَ أو شراً، وأكثرُ ما يستعملُ فيَ الثَّاني. قالَ تَعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦].

* * *

١٤٢- هـذَا وَأَرجـو الله أنْ يَمْنَحَنَـا ... عِنْـدَ السُّؤالِ مُطْلَقـاً حُجَّتَنَـا
١٤٣- ثُـمَّ الصلاةُ والسلامُ الدَّائِـمُ ... عَلـى نَبـيٍّ دَأْبُـهُ المَـراحِـمُ
١٤٤- مُحمَّـدٍ وَصَحْبِـهِ وعِتْـرَتِـهْ ... ونَـابِـعٍ لنَهْجِـهِ مِـنْ أُمَّتِـهْ

---

(١) رواه مسلم (٢٩٨٥) في الزهد باب: من أشرك في عمله غير الله.

(٢) قال في كشف الخفاء (١/ ٤٢٤) قال العراقي في تخريج الإحياء رواه البيهقي بسند ضعيف عن جابر ورواه الخطيب في تاريخه عن جابر بلفظ «قدمتم خير مقدم وقدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر...».

يَطلبُ مِنْ كُلِ مؤمنٍ أنْ يسألَ اللهَ تَعالى أنْ يمنحَهُ حُجَّتَهُ، سواءٌ كانَ ذلكَ في القَبرِ أو يوم القيامةِ، لِيكونَ آمِناً من الفَزَعِ الأكبرِ وأهوالِ يومِ القيامةِ. وأنا أسألهُ ذلكَ إنَّه على ما يشاءُ قديرٌ، وبعبادِه لطيفٌ خبيرٌ.

خَتْمُ الأعمالِ بالصلاةِ على النبيِّ ﷺ وعلى الآلِ سببٌ للبركةِ والنَوالِ من ذي الجَلالِ، وها أنا أقولُ اللهمَّ صَلِّ على سيدِنا محمدٍ صلاةً تُنجينا بها من جميعِ الأهوالِ والآفاتِ، وتَقضي لنا بِها جميعَ الحاجاتِ، وتُطهرُنَا بها من جميعِ السيئاتِ، وترفعُنا بها أعلى الدرجاتِ، وتُبلغُنا بها أقصى الغاياتِ من جميعِ الخيراتِ في الحَياةِ وبعدَ المماتِ، وعلى آله وصحبِهِ، وسَلِّمْ تَسليماً كثيراً إلى يومِ الدين، والحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

وكانَ الفراغُ من شرحِ هذهِ الجوهرةِ السَّنيةِ عَشِيَّةَ يومِ الجمعةِ، في اليومِ الثاني مِنْ شَهرِ ذِي القعدةِ، سنةَ ألفٍ وثلاثمائةٍ وسبعين هجرية، على صاحبها ألفُ ألفِ تحيةٍ، وأنا العبدُ الفقيرُ إلى اللهِ المُقرّ بالعجزِ والتَّقصيرِ، بكري بن الحاج عبده بنِ عُمرَ بن رَجَب البَابي مَولداً. والحَلَبي مَوْطِناً. السوريُّ قُطراً. أَطلبُ مِنَ المولى العَفو والعافيةَ في الدِّين والدُّنيا وحسنَ الخِتام. وشفاعةَ النبيِّ مُحمدٍ عليهِ الصلاةُ والسلامُ ،ولِمَنْ كانَ سَبَباً في نشرِ هَذَا الكَتابِ، إن شاء الكريمُ الوهابُ آمين.

وتمَّ طبعُها في النصفِ من ذي القعدةِ سنةَ/ ١٣٨٤ هـ/

* * *

# تعريف بأهم علماء الكلام
# الذين ورد ذكرهم في الكتاب

## ١- إبراهيم الباجوري:

هو إبراهيم بن محمد بن أحمد الشافعي الباجوري نسبة إلى «الباجور» مركز بمديرية المنوفية في مصر. ولد سنة ١١٩٨هـ/ ١٧٨٤م. تتلمذ على يد كبار علماء مصر في عهده من أمثال: محمد الأمير الكبير عبد الله الشرقاوي، محمد الفضالي.

تقلَّد مشيخة الجامع الأزهر سنة ١٢٦٣هـ، وحافظ على التدريس فيه مع قيامه بشؤون المشيخة.

قرأ وهو شيخ الأزهر تفسير الفخر الرازي لكنه بسبب مرضه لم يتمكن من إتمامه.

توفي سنة ١٢٧٧هـ/ ١٨٦٠م.

من أهم كتبه: تحفة المريد على جوهرة التوحيد، حاشية على شرح السنوسي في علم المنطق، حاشية على أم البراهين والعقائد للسنوسي.

## ٢- إبراهيم اللقاني:

هو أبو الأمداد برهان الدين إبراهيم بن حسن المالكي اللقاني نسبةً إلى «لقانة» قرية من قرى مصر.

كان أحد أعلام الإسلام في عصره في الفقه والحديث وعلم الكلام والتصوف. أخذ العلم على يد أعلام عصره من أمثال: صدر الدين المناوي، وأبي العباس الشرنوبي الذي كان شيخ الصوفية في عصره، وقد تتلمذ على يديه علماء أفاضل منهم: عبد الباقي الزرقاني، وتاج الدين المكي، وعبد السلام اللقاني.

توفي اللقاني سنة ١٠٤١هـ/ ١٦٣١م.

من أهم كتبه: جوهرة التوحيد، نشر المآثر فيمن أدركتهم من علماء القرن العاشر، منار أصول الفتوى وقواعد الإفتاء بالأقوى.

٣- أبو إسحق الاسفراييني:

هو ابراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران، أقام فترة بالعراق، ثم عاد إلى بلدته «اسفرايين» ثم درَّس بنيسابور وعنه تخرج شيوخها، كان يُعد من أهم مفكري الأشاعرة، وكان معروفاً بشدته في مناظراته، وقد ناظر قاضي القضاة عبد الجبار المعتزلي.

توفي الاسفراييني سنة ٤١٨هـ.

من أهم كتبه: الجامع في أصول الدين.

٤- أبو بكر الباقلاني:

هو أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد الباقلاني القاضي، أصله من البصرة، والمرجح أنه وُلد في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، عاش في بغداد، واستدعاه عضد الدولة إلى بلاطه ليناقش المعتزلة هناك، ويحدثنا التاريخ أن عضد الدولة أرسله إلى قيصر بيزنطة سفيراً عنه.

يُعد الباقلاني أهم رجال المدرسة الأشعرية بعد مؤسسها أبي الحسن الأشعري.

توفي سنة ٤٠٣هـ/ ١٠١٣ ببغداد.

من أهم كتبه: إعجاز القرآن، كشف الأسرار.

٥- أبو جعفر الطحاوي:

هو أبو جعفر أحمد بن سلامة الطحاوي نسبة إلى قرية في صعيد مصر. وُلد سنة ٢٣٩هـ.

بدأ شافعي المذهب، ثم تحول عنه إلى المذهب الحنفي، مع أنه احتفظ لنفسه بقدر لابأس به من الاستقلال عن هذا المذهب. وقد عرف له العلماء قدره فنوَّهوا به وبفضله في كتبهم، قال فيه الذهبي: الفقيه المحدث الحافظ

أحد الأعلام، وكان ثقة ثبتاً فقيهاً عاقلاً.

توفي الطحاوي سنة ٣٢١هـ.

من أهم كتبه: العقيدة الطحاوية، معاني الآثار، أحكام القرآن.

٦ـ أبو حامد الغزالي:

هو محمد بن محمد بن أحمد الطوسي. وُلد بطوس عام ٤٥٠ هـ/ ١٠٥٨م من أعمال خراسان. تلقى العلم في مدينة نيسابور على يد إمام الحرمين الجويني حيث درس الفقه والأصول وعلم الكلام والجدل والمنطق والفلسفة. طارت شهرة الغزالي في الآفاق، فطلب منه الوزير السلجوقي نظام الملك أن يتولى منصب التدريس في المدرسة النظامية في بغداد. وقد كلفه الخليفة العباسي المستظهر بالله بالرد على الباطنية، فألف كتابه: فضائح الباطنية. وقد اهتم الغزالي بدراسة آراء الفلاسفة وتفنيدها، وقد ترك لنا في هذا المجال كتابيه الهامين: مقاصد الفلاسفة، وتهافت الفلاسفة.

وقد انقطع الغزالي عن التدريس إثر أزمة روحية مرَّ بها، فاعتزل الناس وشغل نفسه بالرياضة الروحية والمجاهدة، وانتهى من هذه العزلة إلى الإيمان أن الصوفية هم السالكون وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقتهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أذكى الأخلاق.

توفي الغزالي عام ٥٠٥هـ/ ١١١١م.

من أهم كتبه: إحياء علوم الدين، المنقذ من الضلال، معيار العلم.

ـ وفيصل التفرقة بين الكفر والزندقة، والقسطاس المستقيم وغيرهم كثير.

٧ـ أبو الحسن الأشعري:

هو أبو الحسن علي بن إسحق الأشعري، وُلد في البصرة سنة ٢٦٠هـ/ ٨٧٤م.

كان تلميذاً للجبّائي المعتزلي. يُقال إنه عندما بلغ الأربعين عاماً تحول إلى مذهب أهل السنة، وذلك بسبب نزاع بين شيخه وبين المعتزلة. استطاع الأشعري التغلب على اعتراض علماء المسلمين القدامى على الجدل حول

العقيدة، وردّ على المعتزلة وبقية الفرق الأخرى، وهذا هو جهده الذي نال به مكانته العلمية والدينية. كان الأشعري في الحقيقة حلقة اتصال بين المعتزلة وأحمد بن حنبل.

يُعد الأشعري بحق مؤسس علم الكلام عند أهل السنة، وأكثر أتباعه من الشافعية.

أهم تلامذته: الباقلاني وابن فورك، وإمام الحرمين الجويني. توفي الأشعري سنة ٣٢٤هـ/ ٩٣٥م.

من أهم كتبه: مقالات الإسلاميين، اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع، الإبانة عن أصول الديانة.

### ٨ـ أبو الحسين البصري:

هو أبو الحسين محمد بن علي بن الطيب البصري، ولد بالبصرة، ودرس ببغداد على قاضي القضاة عبد الجبار الهمداني، وبجانب علم الكلام والفقه درس أيضاً الفلسفة والعلوم الطبيعية، وكان يُعد في عصره من أئمة المعتزلة الكبار.

توفي سنة ٤٣٦هـ/ ١٠٤٤م ببغداد.

من أهم كتبه: المعتمد في أصول الدين.

### ٩ـ أبو علي الجُبّائي:

هو أبو علي محمد بن عبد الوهاب الجُبّائي، وُلد سنة ٢٣٥هـ/ ٨٤٩م في «جُبّا» بخوزستان.

درس على يد أبي يعقوب يوسف الشحام أحد أهم رجال المعتزلة في البصرة، وأصبح الجبّائي رئيساً لهذه المدرسة (مدرسة المعتزلة في البصرة) بعد وفاة شيخه، وظلّ هكذا حتى وفاته، من تلاميذه أبو الحسن الأشعري، وابنه أبو هاشم الجبّائي.

توفي سنة ٣٠٣هـ/ ٩١٥م.

ضاعت كتبه كلها، ولكننا يمكن أن نعرف آراءه من كتاب «مقالات

الإسلاميين» لتمليذه أبي الحسن الأشعري.

### ١٠ـ أبو المعالي الجويني:

هو عبد الملك بن عبد الله يوسف الجويني النيسابوري. وُلد عام ٤١٩ هـ/ ١٠٢٨م. كان الجويني فقيهاً أصولياً لغوياً أديباً. خرج من نيسابور إلى بغداد حيث اتصل بعلمائها، ثم إلى مكة والمدينة حيث اكتسب هناك لقبه «إمام الحرمين»، وعندما عاد إلى نيسابور قرّبه الوزير نظام الملك، وقلّده رئاسة الشافعية في المدرسة النظامية. تابع إمام الحرمين منهج أسلافه من الأشاعرة، وقد توثقت في شخصه الصلة بين الأشعرية كمذهب كلامي، وبين الشافعية كمذهب فقهي. توفي الجويني سنة ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م.

من أهم كتبه: لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة والجماعة، الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد.

### ١١ـ أبو منصور الماتُرِيدي:

هو أبو منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي، أصله من «ما تُرِيد» من أعمال سمرقند، كان رأس المدرسة الماتريدية التي سُميَت باسمه، وهي والمدرسة الأشعرية تمثلان مذهب أهل السنة، وهاتان المدرستان اختلفتا فيما بينهما اختلافاً عَرضياً في ثلاث عشرة مسألة، ولقد اعترفت المدرسة الماتريدية بحرية الإرادة عند الإنسان في حين دافع الأشاعرة عن القول بعدم تقيُّدِ إرادة الله عز وجل، توفي الماتريدي سنة ٣٣٣هـ/ ٩٤٤م.

من أهم كتبه: تأويلات القرآن، كتاب التوحيد، العقيدة.

### ١٢ـ أبو هاشم الجُبَّائي:

هو أبو هاشم عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب الجُبَّائي، وُلد سنة ٢٧٧هـ/ ٨٩٠م، عاش ببغداد. كان أبو هاشم أشهر من أبيه «أبي علي الجبائي» حيث نَعِمَ بحظوة الوزير الصاحب بن عباد الذي كان أحد تلاميذه.

أُطلق على أتباعه اسم «البهشمية».

توفي سنة ٣٢١هـ/ ٩٣٣م ببغداد.

لم يصل إلينا أي كتاب من كتبه العديدة، ومع ذلك يمكننا أن نعثر على آرائه متفرقة في كتب علم الكلام والعقائد.

١٣ـ بشر المريسي:

هو أبو عبد الرحمن بشر بن غياث بن أبي كريمة المريسي، كان أبوه يهودياً، أصله من بغداد، تعلم الفقه أولاً ثم وهب حياته لعلم الكلام. كان أحد المرجئة، وكان ممن يقولون بخلق القرآن.

توفي المريسي سنة ٢١٨هـ/ ٨٣٣م.

لقد ضاعت كل كتب المريسي، لكننا مع ذلك يمكننا أن نتعرف على بعض آرائه في كتاب «الحيوان» للجاحظ.

١٤ـ جار الله الزمخشري:

هو جار الله أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري ولد سنة ٤٦٧هـ/ ١٠٧٥م.

أقام الزمخشري مدة طويلة في مكة، لذلك اكتسب لقب «جار الله». كان الزمخشري إماماً في التفسير واللغة والنحو والأدب. وكان يعتمد في تفسيره للقرآن الكريم على أصول مذهب الاعتزال وعلى أصول البلاغة العربية.

توفي الزمخشري سنة ٥٣٨هـ/ ١١٤٤م.

من أهم كتبه: الكشاف، أساس البلاغة، المنهاج في الأصول.

١٥ـ جعفر الصادق:

هو أبو عبيد الله جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين ولد سنة ٨٠هـ/ ٦٩٩م في المدينة. كانت أمه «أم الفروه» حفيدة الخليفة أبي بكر.

بعد موت والده أصبح جعفر الصادق الإمام السادس من أئمة الشيعة، يُوصف بأنه كان فقيهاً ومُفسراً ومُحدثاً.

توفي جعفر الصادق سنة ١٤٨هـ/ ٧٦٥م في المدينة من أهم كتبه، مصباح الشريعة ومفتاح الحقيقة، تفسير القرآن.

### ١٦ـ عبد الجبار الهمداني:

هو أبو الحسن القاضي عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمداني الأسد أبادي. ولد سنة ٣٢٥هـ/ ٩٣٦م. عاش ببغداد إلى أن عيَّنَهُ الصاحب بن عباد قاضياً بالرّي سنة ٣٦٧هـ، ثم لُقِّب «بقاضي القضاة». كان شافعي المذهب، ويُعد آخر علماء المعتزلة النابهين.

توفي سنة ٤١٥هـ/ ١٠٢٥م بالرّي.

من أهم كتبه: تنزيه القرآن عن المطاعن، طبقات المعتزلة، المغني في أبواب العدل والتوحيد.

### ١٧ـ فخر الدين الرازي:

هو فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين الرازي. وُلد سنة ٥٤٤هـ/ ١١٥٠م. كان الفخر الرازي فقيهاً أصولياً وعالماً رياضياً وفيلسوفاً، وكانت له مدرسة في خوارزم يدرّس فيها، والفخر الرازي يُعد من أهم مفكري الأشاعرة.

توفي سنة ٦٠٦هـ/ ١٢١٠م.

من أهم كتبه: مفاتيح الغيب (في التفسير)، فحصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين.

* * *

# فهرس الموضوعات

مقدمة المؤلف .......... ٥
تعريف الحمد .......... ٦
تعريف النبي والوحي .......... ٨
تعريف علم التوحيد .......... ٩
العلم بأصول الدين .......... ١٣
سبب انتشار علم التوحيد .......... ١٤
الإلهيات وتعريف المكلف .......... ١٦
إيمان المقلد .......... ١٧
معرفة الله تعالى .......... ١٨
الدلائل على وجود الله .......... ٢٠
الإيمان والإسلام .......... ٢٣
زيادة الإيمان ونقصه .......... ٢٥
الصفات الواجبة لله تعالى (الوجود) .......... ٢٧
القدم .......... ٢٩
البقاء ومخالفة الحوادث والقيام بالنفس .......... ٣٠
الوحدانية .......... ٣١
براهين وحدانية الله .......... ٣٢
صفات المعاني (القدرة) .......... ٣٤
الإرادة .......... ٣٥
العلم .......... ٣٦
الحياة ـ الكلام .......... ٣٨
السمع .......... ٤٠
البصر .......... ٤٠
الاختلاف في صفة الإدراك .......... ٤١
الصفات المعنوية .......... ٤٢

الإجمالي: هو المعجوزُ عن تقريرِهِ وحَلِّ شُبَهِهِ. فإذا قيل لكَ: ما الدليلُ على وجودِ الله تعالى؟ فقلت: العالمَ، ولم تعرف جهةَ الدلالةِ فهو دليلٌ إجمالي، وإذا عرفتَ جهةَ الدلالةِ وقَدِرتَ على حلِّ الشُبهَةِ فهو تفصيلي.

## [سبب انتشار هذا العلم]

وإنما احتاجَ هذا الفنُّ للتبيين لأنه لما ظهرت المبتدعةُ بعد الخمسمايةِ(١) وكَثُرَ جِدالُهُم مع علماءِ الإسلام، أوردوا شُبهاً على ما قررهُ الأوائلُ، وخلطوا تلك الشُبَهَ بكثيرٍ منَ القواعدِ الفلسفيةِ. قصدَ المتأخرونَ دَفْعَ تلكَ الشُبَهِ، فاحتاجوا إلى إدراجِها في كلامِهِم ليتمكنوا مِنْ رَدِّها فما أَدْرَجُوها إلا لِغَرضٍ مُهم فَجزاهمُ اللهُ خَيراً.

ولمَّا كانت الإطالةُ في البحثِ تورثُ السآمةَ والمللَ، وتُبْعدُ عن طلبِ المقصودِ، صارَ الاختصارُ واجبَ المراعاةِ، لذلكَ عَمدَ صاحبُ الجوهرةِ(٢) رحمهُ الله تعالى إلى الاختصارِ في موضوعِهِ، فأتىٰ بهذهِ الأرجوزةِ، فإنَّها على قِلَّتِها جَمعتْ العقائدَ الإسلامية الواجب على كلِّ مسلم اعتقادُها، وإنَّ الأستاذ أبا إسحاق الاسفراييني كان يقولُ: جميعُ ما قاله المتكلمونَ في التوحيدِ قد جمَعهُ أهلُ الحقيقةِ في كلمتين.

الأولى: اعتقادُ أنَّ كلَّ ما تُصوِّرَ في الأوهامِ، فاللهُ بِخلافِهِ.

والثانيةُ: اعتقادُ أنَّ ذاتَه تعالى ليستْ مُشَابِهة للذواتِ ولا مُعطَّلَةً عن الصفاتِ.

* * *

## [سبب التسمية بجوهرة التوحيد]

وقد اختارَ المؤلف رحمهُ الله تعالى لمنظومتهِ الرجزيَةِ أحسنَ الألقابِ فلقَّبها جوهرةَ التوحيدِ، والجوهرةُ هي اللؤلؤةُ النفيسةُ. وفي تسميتها بهذا الاسم ترغيبٌ للطلابِ أنْ يُقبلوا على حفظِها وتعلُّمِها؛ فهي جوهرةٌ صافيةٌ قد نُقِّحتْ من كدوراتِ الشُبَهِ والعقائدِ الفاسدةِ والحشوِ والتعطيلِ، فعلى الطالبِ تعلُّمُها والاستفادةُ من جواهرِ أحكامِها.

---

(١) الخمسماية: أي بعد المائة الخامسة للهجرة.

(٢) الإمام إبراهيم الباجوري.

بيان تعليقات الصفات ........ ٤٤
أسماء الله وصفاته ........ ٤٧
تأويل المتشابه من الآيات والأحاديث ........ ٤٨
القرآن كلام الله وقطعية القول إما: بقضية خلقه أو: بعدم خلقه ........ ٤٩
ما يستحيل على الله تعالى من أضداد الصفات ........ ٥٣
خلق أفعال العباد ........ ٥٤
السعيد والشقي ........ ٥٦
كسب الأفعال ........ ٥٨
الثواب والعقاب ........ ٦٢
خلق الشر ........ ٦٤
القضاء والقدر ........ ٦٥
رؤية الله تعالى ........ ٦٨
النبوات وإرسال الرسل ........ ٧٣
ما يجب للرسل وما يستحيل عليهم ........ ٧٣
ما يجوز في حق الرسل ........ ٧٦
الشهادتان تجمع العقائد الإيمانية ........ ٧٧
سيدنا محمد أفضل الخلق ........ ٧٩
مراتب الأنبياء في الفضل ........ ٨٠
المعجزات ........ ٨٢
مسألة النسخ في الأمور التشريعية ........ ٨٤
معجزات رسول الله ﷺ ........ ٨٥
الإسراء والمعراج ........ ٨٧
براءة السيدة عائشة من الإفك ........ ٨٨
فضل الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم ........ ٨٨
فضل أهل بدر وأهل أحد ........ ٩٠
تأويل ما وقع بين الصحابة من خلاف ........ ٩١
تقليد الأئمة ........ ٩٢
الكرامات ........ ٩٣
الدعاء وفضله ........ ٩٥

الإيمان بالملائكة .......... ٩٦
الإيمان بالموت .......... ٩٨
بقاء الروح بعد فناء الجسد .......... ٩٩
ماهية الروح .......... ١٠٠
ماهية العقل .......... ١٠١
عذاب القبر .......... ١٠٢
إعادة الأجسام عند الحشر .......... ١٠٤
الحساب .......... ١٠٥
أهوال القيامة .......... ١٠٨
الصحف والميزان يوم القيامة .......... ١٠٩
الصراط .......... ١١٠
العرش والكرسي .......... ١١١
الجنة والنار .......... ١١٢
الحوض .......... ١١٣
الشفاعة .......... ١١٤
حكم من مات ولم يتب .......... ١١٥
الشهيد .......... ١١٦
الرزق .......... ١١٧
حقائق الأشياء .......... ١١٩
الكبائر والصغائر .......... ١٢٠
الكليات الخمس التي جاء الدين للمحافظة عليها .......... ١٢٢
الإمامة العظمى .......... ١٢٣
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .......... ١٢٥
اتباع رسول الله ﷺ .......... ١٢٨
السنة والبدعة .......... ١٢٩
الخاتمة .......... ١٢٩

ولقد بسط المؤلفُ رجاءَه منَ الله أنْ يتقبَّل منه هذه الخدمةَ الشريفة، وأن ينفعَ بِها كلَّ مَنْ أقبلَ على تَعَلُّمها والاستفادةِ منها؛ طَمعاً في الثوابِ من ربِّ الأربابِ.

## [القسم الأول]

(الإلهيات)

٩ـ فَكُلُّ مَنْ كُلِّفَ شَرْعاً وَجَبا      عَلَيْه أنْ يعَرفَ ما قَدْ وَجَبا

١٠ـ للهِ والجَائِزَ والمُمتَنِعَا      وَمِثْلَ ذَا لِرُسْلِهِ فاستَمِعا

يجبُ على كلِّ مُكلفٍ أنْ يعرفَ ما يجبُ لله تعالى وما يجوزُ ومَا يستحيلُ، وما يَجِبُ للرسلِ عليهم الصلاةُ والسلامُ وما يجوزُ وما يستحيلُ.

### [تعريف المكلف]

والمُكَلّفُ: هو البالغُ العاقلُ الذي بَلَغَتْهُ الدعوةُ سليمَ الحواس، وخرجَ بالبالغِ الصبيُّ فليس مُكلفاً، وهذا في الإنس؛ ـ أما في الجنِّ فهم مُكلفون من أصلِ الخلقةِ ـ فمن ماتَ قبلَ البلوغ فهو ناجٍ ولو من أولاد الكُفّارِ، وكذلكَ مَنْ كان مجنوناً، أو لم تبلغه الدعوةُ بأنْ نشأ في جبلٍ شاهقٍ، أو كانَ أعمى أصم، فإنَّ هؤلاءِ قد سقط عنهم وجوبُ النظرِ والتكليفِ. وأما الحنفيةُ فإنهم يقولون بتكليف الصبيِّ العاقل بالإيمانِ لوجودِ العقلِ، وهو كافٍ عندهم فإنْ اعتقدَ الإيمانَ أو الكفرَ فأمرُه ظاهرٌ، وإنْ لم يعتقدْ واحداً منهما كانَ منْ أهلِ النارِ لوجوبِ الإيمانِ عليه بمجردِ العقلِ. وعلى هذا التعريفِ السابق فأهلُ الفترةِ وهم مَنْ كانوا بين أزمنةِ الرسلِ، أو في زمنِ الرسولِ الذي لم يُرسل إليهم نَاجونَ، وإن بدّلوا وغيّروا وعَبَدُوا الأصنامَ. لقوله تِعالى:

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥] وما ورد من الآثار عن جماعةٍ من أهلِ الفترةِ أنهم منْ أهلِ النارِ، فهو خبرُ آحادٍ لا يُعارضُ النَّصَ القَطعيَّ، وعليه فإنَّ أبَ الرسول وِ أمَّه ﷺ ناجيانِ، لا سيما وقد وردَ الحديثُ في إحيائهما للإيمان بهِ ﷺ، وقال الحَافظُ الدِّمشقي:

حَبَاَ اللهُ النبيَّ مَزيدَ فضلٍ      على فَضلٍ وَكانَ به رؤوفاً

فأحيَا أمَّهُ وكَذا أباهُ      لإيمانٍ بهِ فضلاً منيفاً

فسلم فالقديم بذا قدير وإن كان الحديث به ضعيفا

ولعلَّ هذا الحديثَ صحَّ عند أهل الحقيقةِ بطريق الكشف كما أشار إليه بعضهم:

أيقنتُ أنَّ أباالنَّبي وأمَّهُ أحياهُما الـرَّبُ الكـريـمُ البـاري
حتـى لـهُ شهـدا بصـدق رسـالـةِ صَـدِّقْ فتلـكَ كـرامـةُ المختـار
هـذا الحديثُ ومَنْ يقـولُ بضعفـهِ فَهُو الضعيفُ عنِ الحقيقـة عـاري

وقد ألَّفَ الجلالُ السيوطي مؤلفاتٍ كثيرةً فيما يتعلقُ بنجاتهما فَجُزِيَ خيراً.

* * *

١١ـ إذْ كُلُ مَنْ قلَّدَ في التَّوحيدِ إيمانـهُ لـم يَخْلُ مِـنْ تَـرديـدِ
١٢ـ ففيهِ بعضُ القَوْمِ يحكي الْخُلْفَا وبعضُهُـم حقَّـقَ فيـهِ الكَشْفَـا
١٣ـ فقـالَ إنْ يجـزمْ بقـولِ الغَيـرِ كَفَى وَ إلاَّ لـمْ يـزَلْ في الضَّيـرِ

## [ما حكم إيمان المقلد]

هذا تعليلٌ لوجوب المعرفةِ السابقةِ، فقد وجبَ معرفةُ ما ذُكرَ لأن إيمانَ المُقلدِ ـ وهو مَنْ يأخذُ بقول الغَيْر مِنْ غير معرفةِ دليلهِ ـ على خلافٍ في قبولهِ بينَ العلماءِ، فإنْ عرفَ الدليلَ فليسَ بمُقلدٍ. ومثال ذلك أنَّ جماعةً نظروا للهلالِ فسبقَ بعضُهم لرؤيتهِ فأخبرَهم بهِ، فإن صَدَّقوه من غيرِ مُعاينةٍ كانوا مُقلدينَ، وإنْ أرشدَهم بالعلامةِ حتى عاينُوه لمْ يكونُوا مقلدينَ. والمرادُ بالتقليدِ في التَّوحيدِ أي في علم العقائدِ ولو تعلقتْ بالرسلِ، وحاصلُ الأقوالِ في إيمانِ المُقلدِ يرجعُ إلى ستة أقوالٍ: أصحها الاكتفاءُ بهِ معَ العصيانِ إنْ كانَ فيه أهليةُ النظرِ، وإلاَّ فلا عصيانَ، فمعرفةُ الله تعالى بصفاتهِ واجبةٌ على كل مسلم ومسلمةٍ، ومعرفةُ رسُلهِ والتميزُ بينَهم وبينَ الصَّحابةِ، ومعرفةُ مَرتبةِ كلٍّ منهم واجب ديني إسلامي، لا يَسَعُ تركُه في حالٍ من الأحوالِ. وإلا فكيفَ يعْذَرُ المرءُ في الجهلِ باللهِ تعالى وصفاته، إنَّ فيه ما لا يجوز اعتقادهُ، وهل هو إلا تاركٌ لفريضةِ التَّعلُم المُرادة في قوله ﷺ: «طلبُ العلمِ فريضةٌ على كلِ مسلمٍ»(1).



(١) رواه عن أنس ابن ماجه (٢٢٤) وفي الزوائد إسناده ضعيف ورواه ابن الجوزي =

وقد تحدثت امرأتان بمحضرِ الشيخ اليوسي في زمن صِغره، فذكرتا الذنوبَ فقالت إحداهُما: اللهُ يغفرُ لنا فقالتْ الأخرى: يغفرُ لنا إنْ وفّقَهُ اللهُ الذي خلَقَهُ أيضاً. ومثلُ ذلك كثيرٌ مِنَ النّاس. فمنهم مَنْ يعتقدُ أنَّ الصحابةَ أنبياءٌ، وهذا كفرٌ. ومنهمْ مَنْ ينكرُ البعثَ، ويقولُ: مَنْ ماتَ ثم جاءَ وأخبرَنا بذلك؟ إلى غير ذلكَ مِنَ الكُفرِ الصَّريحِ.

على أنَّ التّاجَ السُبكي حقّقَ في إيمان المُقلِد البيَان عن حالِهِ، وهو إنْ كانَ يجزمُ بصحةِ قولِ المُقلَدِ جزماً قوياً بحيث لو رجعَ المقلَّدُ لمْ يرجعْ هو. كَفاهُ ذلكَ في الإيمانِ وإلاَّ لاَ. وتَجري عليه الأحكامُ الدنيوية، فَيُناكحُ ويُؤَمُ وتُؤكلُ ذبيحتُهُ، ويَرِثُه المسلمونَ ويَرِثُهم، ويُسهمُ له، ويُدفنُ في مقابرِ المسلمينَ. وفي الأحكامِ الأُخرويَّةِ أيضاً فلا يخلدُ في النارِ إنْ دخلَها، ومآلُهُ إلى النجاةِ والجنةِ؛ فهو مؤمنٌ لكنَّهُ عاصٍ بتركِ النظرِ إنْ كانَ فيه أهليَّةٌ للنَّظرِ. وهذا كلُه في المُقلِدِ الجازمِ، وأمَّا الشَّاكُ والظَّانُ فمتَفقٌ على عدمِ صحةِ إيمانهما.

وهذا التقليدُ إنما هُوَ بالنَّظر لأحكام الآخرةِ فيما عندَ اللهِ، وأمَّا بالنظر إلى أحكامِ الدنيا فيكفي فيها الإقرارُ فقطْ؛ فَمنْ أقرَّ جرتْ عليهِ الأحكامُ الإسلاميةُ، ولم يُحكَمْ عليهِ بالكُفرِ إلاَّ إنِ اقترنَ بشيءٍ يقتضي الكُفرَ كالسُجودِ لصنَمٍ.

* * *

| | |
|---|---|
| ١٤ـ واجْـزِمْ بـأَنَّ أوّلاً مِمّـا يَجِبْ | مَعرِفـةٌ وفيـه خُلـفٌ مُنتصِبْ |
| ١٥ـ فـانظرْ إلـى نفسِكَ ثـم انْتَقِلِ | لِلعـالَـمِ العُلْـوِيِّ ثُـمَّ السُّفلـيْ |
| ١٦ـ تجدْ بـهِ صُنْعاً بديعَ الحِكَـمِ | لكـن بـه قـامَ دَليـلُ العَـدَمِ. |

[معرفة الله تعالى:]

اختلفَ العلماءُ في أولِ واجبٍ على كلِّ مُكلفٍ. وأَصحُ الأقوالِ إنما هو

---

= في العلل المتناهية (١/٥٧ـ٦٢) من أربعة عشر طريقاً من حديث أنس ثم تكلم عليها ورواه أيضاً القضاعي في مسند الشهاب الحديث (١٧٤ـ١٧٥). وأورده في مجمع الزوائد (١/١١٩ـ١٢٠). عن عبد الله بن مسعود و أبي سعيد الخدري وابن عباس والحسين بن علي من طرق كلها لا تخلو من ضعف ولكن الحديث يتقوى بمجموع طرقه ليبلغ مرتبة الحسن.

معرفةُ الله تباركَ وتعالى والمرادُ معرفةُ صفاتِه، وسائرِ الأحكام الألوهيةِ، لا معرفةَ ذاتِه وكُنهَ حقيقتِه، إذ لا يعرفُ ذاتَه وكُنهَ حقيقتِه إلاّ هوَ. وفي الحديث: «تفكروا في الخلقِ ولا تفكروا في الخالقِ فإنه لا تحيط به الفكرة»[1] وفي الحديث «إن اللهَ احتجبَ عن البَصائرِ كَما احتجبَ عن الأبصارِ»[2]. وبالجملة لا يعرفُ الله إلا الله، فتركُ الإدراكِ إدراكٌ، والبحثُ عن ذاتِ الله إشراكٌ، وكلُّ من رامَ ذلك الحِمى المنيعَ بمعرفةٍ أو إدراكٍ فقد باءَ بالفشلِ، وضلَّ مع مَنْ ضلَّ. ويعجبُني قولُ بعضِ العلماءِ:

تـاهَ الأنـامُ بِسُكْـرِهـمْ ... فلِذَاكَ صَاحي القومِ عَربدْ
تـالله لا مُـوسـى الكليـمُ ... ولا المسيـحُ ولا مُحمـدْ
علمـوا ولا جبريـلُ وهـو ... إلـى مَحلِ القُدْسِ يَصعدْ
مـنْ كُنْـهِ ذاتِـكَ غيـرَ أنَّـكَ ... أوحـديُ الـذاتِ سَرمـدْ
فلتَخسأ الحكماءُ عن حَرَمٍ ... لـه الأمـلاكُ سُجَّـدْ
مـنْ أنـتَ يـا رسْطـو ومَـنْ ... أفـلاطُ قبلـكَ يـا مُبلـدْ
مـا أنتـمْ إلا الفـراشُ ... رأى السـراجَ وقـد تـوقـدْ
فـدنـا فـأحـرق نفسَـهُ ... ولـو اهتـدى رشـداً لأبعـدْ

وإذا أردتَ معرفةَ الله تعالى أيُّها الطالبُ، فتفكَّرْ في نفسِكَ وما اشتملت عليه من: سَمْعٍ وبَصَرٍ وكلامٍ، وطُولٍ وعرضٍ وعُمقٍ، ورِضا وغضبٍ، وبياضٍ وحُمرةٍ وسوادٍ، وعلمٍ وجهلٍ، وإيمانٍ وكفرٍ، ولذةٍ وألمٍ، وغيرِ ذلك مما لا يُحصَى، وكلها متغيرةٌ من عدم إلى وجود وبالعكس، فتكون حادثةً وهي قائمةٌ بالذاتِ لازمة لها، وملازِمُ الحادثِ حادثٌ، وذلك دليلُ الافتقارِ إلى صانعٍ حكيمٍ واجبِ الوجودِ تامِّ العلمِ تامِّ القدرةِ والإرادةِ، فتستدلُ بها على وجوبِ وجودِ الإله قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا

---

(١) نحوه أورد السيوطي في الجامع الصغير الحديث (٣٣٤٦) عن ابن عباس وعزاه إلى أبي الشيخ وأشار إلى ضعفه.

وأورد نحوه في مجمع الزوائد (١/ ٨١) عن ابن عمر وعزاه إلى الطبراني في الأوسط وفيه الوازع بن نافع وهو متروك.

(٢) انظر اتحاف السادة المتقين (٩/ ٥٩٧).

ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٤].

وقد وردَ: (مَنْ عرفَ نفسَه فقدْ عَرف ربَّه) أي مَنْ عرفَ نفسَه بالحُدوثِ والفقرِ عرَفَ ربَّه بالقِدَم والغِنى، ثم انتقلْ أيها الطالبُ بعد معرفة نفسِك للنظرِ في أحوال العالَم المنسوبِ إلى جهةِ العُلو، والمرادُ به ما ارتفع من الفَلكيَات من سماواتٍ وكواكب وعرشٍ وملائكةٍ، ثم انتقلْ للنظر في العالم المنسوبِ لجهةِ السُّفل، والمرادُ به كلُ ما نزلَ عن الفَلكيَاتِ إلى مُنقَطعِ العالَم، كالهواءِ والسحابِ، والأرضِ وما فيها كالمعادن، والبحار والنباتِ وغير ذلك، فتستدلُ بها على وجودِ الصانعِ وصفاتهِ، فإنكَ تجدُ كلاً منها مشمولاً بجهاتٍ مخصوصةٍ وأمكنةٍ معينةٍ، وتجدُ بعضَه متحركاً، وبعضَه ساكناً، وبعضَه نورانياً. وبعضَه ظلمانياً، وذلك دليلٌ على الحُدوثِ. وهو دليلُ الافتقارِ إلى صانعٍ حكيمٍ متصفٍ بالصفاتِ. ولقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى ذلك بقوله:

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وقالَ بعضُهم:

تأملْ في رياضِ الأرضِ وانظرْ ... إلى آثارِ ما صنَعَ المليكُ
عيونٌ مِن لُجينٍ شاخصاتٌ ... بأحداقٍ كما الذهبُ السبيكُ
على قُضُبِ الزَّبَرْجَد شاهداتٌ ... بأنَّ الله ليسَ له شريكُ
وأنَّ محمداً خيرُ البرايا ... إلى الثقلينِ أرسلَهُ المليكُ

وقالَ بعضُهم:

فوا عجباً كيفَ يُعصى الإلهُ ... أو كيفَ يجحَدُه الجاحدُ
وفي كل شيءٍ له آيةٌ ... تدلُ على أنَّه الواحدُ

## [الدلائل على وجود الله تعالى]

وقد ذكروا أنَّ للسلفِ الصالحِ طرقاً لطيفةً في هذا الباب، يُروى أنَّ بعضَ

من وقوع الحر الصانع عند جعفر الصادق رضي الله عنه، فقال له جعفرٌ: هل ركبتَ البحرَ؟ قال: نعم، قالَ: هل رأيتَ أهوالَهُ ؟ قالَ: بلى، هاجتْ يوماً رياحٌ هائلةٌ فكسرتْ السفنَ وأغرقتْ الملاّحينَ، فتعلقتُ أنا ببعضِ ألواحِها، ثمّ ذهبَ عني ذلكَ اللوحُ، فإذا أنا مدفوعٌ في تلاطمِ الأمواجِ، حتى دُفِعتُ إلى الساحلِ. فقالَ جعفرٌ: قد كانَ اعتمادُكَ من قبلُ علَى السفينةِ والملاّحِ، ثم على اللّوحِ حتى تُنجيكَ، فلمّا ذهبتْ هذهِ الأشياءُ عنكَ هلْ أسلمت نفسكَ للهلاكِ أم كنتَ ترجو السلامةَ ؟ قال كنت أرجو السلامة قالَ: ممنْ كنتَ ترجُوها ؟ فسكتَ الرجلُ، فقالَ جعفرٌ: إنَّ الذي ترجوهُ هو الصانعُ، وهو الذي أنجاكَ من الغرقِ فأسلمَ الرجلُ على يدهِ. وجاءَ في كتابِ «دياناتُ العربِ» أنَّ النبيَّ ﷺ قال لعِمْرانَ بنِ الحُصين: * (كم لكَ من إله، قال عَشرةٌ، قال: فَمنْ لِغمّكَ وكَربكَ ودفعِ الأمرِ العظيمِ إذَا نَزلَ بكَ؟ قالَ: الله، قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ: مالك مِن إلهِ غَيرُ اللهِ).

ورُوِيَ أنَّ أبَا حنيفةَ رحمهُ الله تَعالى كانَ سَيفَاً على الدهريةِ، وكانوا ينتهزونَ الفرصةَ ليقتلوهُ، فبينما هُوَ في مسجدهِ قاعداً إذْ هجمَ عليه جماعةٌ بسيوفٍ مسلولةٍ وهمّوا بقتلهِ، فقالَ لهم: أجيبوني عن مسألةٍ ثم افعلوا ما شئتم، فقالوا له: هاتِ فقالَ: ما تقولونَ في رجلٍ يقولُ لكم: إني رأيتُ سفينةً مشحونةً بالأثقالِ، مملوءةً منَ الأحمالِ، قد احتوَشتْها في لُجةِ البحرِ أمواجٌ متلاطمةٌ، ورياحٌ مختلفةٌ، وهي بينها تجري مستويةً، ليسَ لَها ملاّحٌ يُجريها، ولا مُتعهدٌ يدفعُها، هل يجوزُ ذلكَ في العقلِ ؟ قالوا: لا، هَذا شيءٌ لا يقبلهُ العقلُ، فقالَ أبو حنيفةَ: يا سبحانَ الله إذ لمْ يجزْ في العقلِ سفينةٌ تجري مستويةً من غير تعهُدٍ ولا مُجرٍ فكيفَ يجوزُ قيامُ هذهِ الدنيا على اختلافِ أحوالِها وتغيُّرِ أعمالِها وسعةِ أطرافِها وتبايُنِ أكنافِها من غير صانعٍ وحافظٍ؟! فبكوا جميعاً وقالوا: صدقتَ وأغمدُوا سيوفَهم وتابوا.

ورُوِي أنه سُئل الشافعي رضي الله عنه ما الدليل على وجودِ الصانعِ فقالَ: ورقةُ الفرصادِ (أي التوتُ الأحمر) طعمُها ولونُها وريحُها وطبعُها واحدٌ عندكم؟ قالوا: نعم، قال: فتأكلها دودةُ القزّ فيخرجُ منها الإبريسمُ، والنحلةُ فيخرجُ منها العسلُ، أو الشاةُ فيخرجُ منها البعرُ، وتأكلُها الظِباءُ فينعقدُ في

نوافِجها المسكُ، فَمنْ الذي جعلَ هذه الأشياءَ كذلك مع أن الطبع واحد؟ فاستحسنوا منه ذلكَ وأسلموا على يدِهِ، وهم سبعةَ عَشرَ من الدهريةِ.

وسُئلَ أعرابيّ عن الدليلِ على وجودِ اللهِ تَعالى فقالَ: البعرةُ تدلُ على البعيرِ والرَوثُ على الحميرِ، وآثارُ الأقدام على المسيرِ. فسماءٌ ذاتُ أبراجٍ، وأرضٌ ذاتُ فِجاجٍ، وبحارٌ ذاتُ أمواجٍ، أَمَا تدلُ على الصانعِ الحكيمِ القديرِ؟. وقيلَ لطبيبٍ: بِم عرفتَ ربَّك؟ قالَ: بنحلةٍ بأحدِ طَرفيهاَ تعسلُ، وبالآخر تلسعُ والعسلُ مقلوبُ اللّسع. وحُكمُ البديهةِ أحكمُ شاهدٍ. قالَ تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزخرف: ٨٧].

﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴾ [غافر: ٨٤].

فتبيَّنَ من هذه الأدلةِ النقليةِ والعقليةِ وجوبُ وجود الصانعِ المختارِ، وإنما أطلنا في هذا الموضوعِ ليكونَ حجةً قاطعةً على مُنكري الصانعِ.

﴿ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ﴾ [المدثر: ٣١].

* * *

١٧ـ وكُلُّ مـا جـازَ عليـهِ العَـدَمُ عليـهِ قَطْعـاً يَسـتَحِيـلُ القِـدَمُ

ـ أشار المصنفُ إلى قياس،(١) تركيبه هكذا: العالَمُ من عرشِه لِفرشِه جائزٌ عليهِ العدمُ، وكل ما جازَ عليه العدمُ، استحالَ عليه القِدمُ، فينتجُ هذا القياسُ: أنَّ العالَمَ من عرشِه لفرشِه استحالَ عليه القِدمُ، فثبتَ حدوثُه وإذا ثبتَ حدوثُه فلا بدَّ له من المُحدثِ وهو المطلوب.

* * *



١٨ـ وَفُسِّـرَ الايمـانُ بـالتَّصـدِيـقِ والنُّطقُ فيـهِ الخُلْفُ بـالتَّحقيـقِ

(١) القياس: هو كل جمع بين حُكمين أو مقدمتين ينشأ عنهما بالضرورة حكم ثالث أو نتيجة. مثال ذلك قولنا: كل معدن ناقل للحرارة، الذهب معدن إذن فالذهب ناقل للحرارة.

١٩ـ فقيل شَرْطٌ كالعَمَلْ وقِيلَ بلْ شَطرٌ وَالاسْلامَ اَشْرَحَنَّ بالعَمَلْ
٢٠ـ مِثالُ هــذا الحجُّ والصــلاةْ كـذا الصيامُ فـاذرِ والـزَّكـاةْ

## [الإيمان والإسلام]

لمّا كانَ الإيمانُ والإسلامُ مِن مباحثِ هذا الفنِ بل هما المقصودانِ منه، صار البحثُ عنهما من الواجباتِ الضروريةِ. فالإيمان لغةً هو: مطلقُ التصديق، واصطلاحاً هو: تصديقُ النبي ﷺ بما جاءَ مما عُلمَ مِنَ الدينِ ضرورةً كالصلاةِ والصيام والزكاةِ والحجِ. والإسلامُ لغةً: مطلقُ الانقيادِ، فالإسلامُ انقيادٌ ظاهريٌ ناشىءٌ عن تصديقٍ باطني، والإيمانُ تصديقٌ باطني، ينشأُ عنه انقيادٌ ظاهري. فتغايرَا مفهوماً ولكن بينهما تلازمٌ، وإن لم يكنْ مع المؤمن انقيادٌ ظاهري أو مع المسلمِ تصديقٌ باطني فيفترقانِ معنى، وهو معنى قوله تعالى:

﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٤].

## [الإيمان بالأنبياء والرسل]

وعلى هذا يجبُ على المكلفِ الإيمان بالله تعالى وبالأنبياء والرسل، ولا يعلمُ عددَهم إلا اللهُ تعالى على الصحيحِ، ويجبُ الإيمانُ تفصيلاً بمن اشتهرَ منهم وهم خمسةٌ وعشرون مُجمَعٌ عليهم، وثلاثةٌ مختلَفٌ فيهم، وهم ذو القرنينِ والعُزَيْرُ ولُقمانُ، وأما الخَضِرُ فلم يُصَرَّحْ فيه بالقرآن وإنْ كانَ هو المرادُ في قوله تعالى ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ﴾ [الكهف: ٦٥] وكذلك يُوشعُ بن نون فتى موسى. ومعنى وجوبِ الإيمانِ في الأنبياءِ تفصيلاً أنّه لو عُرِضَ عليه واحدٌ منهم لم يُنكرْ نبوتَه ولا رسالَته، فَمَنْ أنكر نبوةَ واحدٍ منهم أو رسالَته كفرَ، لكنَّ العاصي لا يُحكم عليه بالكفرِ إلا إنْ أنكر بعدَ تعليمِهِ، وليس المرادُ أنّه يجبُ حفظُ أسمائهم. قال بعضُ العلماءِ:

حَتْمٌ على كلِّ ذِي التكليفِ معرفةٌ بـأنبيـاء علـى التَّفصيـلِ قَـدْ عُلمـوا
فـي تلـكَ حُجتُنا مِنهـم ثمـانيـةٌ مـن بعـدِ عشـرٍ ويبقـى سبعـةٌ وهُـمُ
إدريسٌ هـود شعيبٌ صـالـحٌ وكَـذَا ذو الكفـل آدمُ بـالمختـارِ قَـدْ خُتِمـوا

والمُراد في قوله: في ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ﴾ الآية ٨٣ من سورة الأنعام وهي:

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٣ ـ ٨٦].

## [الإيمان بالملائكة]

ويجبُ الإيمانُ إجمالاً بجميعِ الملائكةِ، وتفصيلاً بمَنْ اشتهرَ منهم وهُم جبريلُ وميكائيلُ، وإسرافيلُ، وعزرائيلُ. ورقيبُ، وعتيدُ. ورضوانُ ومالكُ، فيكفرُ مُنكرُ شيءٍ من ذلكَ، ويجبُ الإيمانُ بحَمَلَةِ العَرشِ والحافِّين بِه.

## [حكم التلفظ بالشهادتين]

أما التلفظُ بالشَّهادتينِ فهو على الخِلافِ، فقائِلٌ يقولُ: بأنه شرطٌ، وقائِلٌ يقولُ: بأنَّه شَطرٌ، والمرادُ بقولِه: شرطٌ أي لإجراءِ الأحكامِ الدنيويةِ ويؤيدُه قولُه تعالى:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقوله ﷺ:

«اللَّهمَّ ثبتْ قَلبي على دينِكَ»(١).

والمرادُ بقوله شطرُ الإيمان، أي جزءٌ من حقيقةِ الايمانِ، وهذا القولُ لأبي حنيفةَ وجماعةٍ من الأشاعرةِ يقولون: إن النطقَ ركنٌ داخلٌ في حقيقةِ الإيمانِ دونَ سائرِ الأعمالِ الصالحةِ، فالإيمانُ عندهم اسمٌ لِعَمَليْ القلبِ واللسانِ جميعاً، وهذا في غيرِ المعذورِ كالأخرس، فلا بدَّ من التَّصديقِ والإقرارِ، فمن صدّق بقلبه ولم يتفقْ له الإقرارُ في عمره لا مرة ولا أكثر مع القدرة على ذلك

---

(١) رواه الترمذي الحديث (٢١٤١) وقال هذا حديث حسن صحيح وابن ماجه الحديث (٣٨٣٤).

لا يكون مؤمناً لا عندنا ولا عند الله، وهذا الخلاف جارٍ في رجلٍ كافرٍ يريد الدخول في الإسلام. وأما أولادُ المسلمينَ فمسلمونَ ولو لم ينطقوا طول عمرهم، غير أنَّهم خالفوا الواجبَ الشرعيَّ، وكلٌّ من القولين المذكورين فهو ضعيفٌ، والمعتمدُ أنَّ النطقَ شرطٌ للأحكام الدنيويةِ فقط كما مر، وإلا فهو مؤمنٌ عندَ الله، وأما التشبيهُ بالعملِ فهو في مُطلَقِ الشرطيةِ لا في الوجوب. لأنَّ المتفقَ عليه عندَ أهل السُّنةِ أنَّ الأعمالَ الصالحةَ شرطُ كمالِ الإيمانِ، ولا دخل لها فيه إلا التنميةُ وقد دلَّتْ النصوصُ على ذلك منها قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وذلكَ يفيدُ ثبوتَ الإيمانِ قبلَ الأمرِ بالصومِ وكقولِه تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [العنكبوت: ٧].

وكقولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢].

ولمَّا عُلمَ أنَّ الاسلامَ إنما هو انقيادٌ ظاهري ناشىءٌ عن تصديقٍ باطنيٍّ كان مُتعلَّقَهُ العملُ الصالحُ كالصلاةِ والصومِ والحجِ والزكاةِ ولذا قالَ عليه الصلاة والسلامُ:

«بُنيَ الإسلامُ على خمس، شهادةِ أنْ لاَ إلهَ إلا الله، وأنَّ محمداً رسولُ الله، وإقامِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزكاةِ، والحجِّ وصومِ رمضانَ»[1].

والمرادُ بذلكَ الإذعانُ لتلكَ الأحكامِ وعدمُ رَدِها.

* * *

٢١ـ ورُجِّحَتْ زِيادةُ الإيمانِ ... بِمَا تَزيدُ طاعةُ الإنسانِ

٢٢ـ ونَقْصُهُ بِنَقْصِها وَقِيلَ: لا ... وَقِيلَ: لا خُلْفَ كَذا قَدْ نُقِلا

## [الخلاف في زيادة الإيمان ونقصه]

الإيمانُ باعتبار مُتعلَّقِه ينقسمُ إلى ثلاثة أقسامٍ من حيثُ الزيادةُ والنقصانُ،

(١) رواه البخاري (٨) ومسلم الحديث (١٦) والترمذي (٢٧٣٦) والنسائي (٨/ ١٠٧) وأحمد (٢/ ١٤٣).

يزيدُ وينقصُ: وهو إيمانُ الأمة إنساً وجناً، ولا يزيدُ ولا ينقص: وهو إيمان الملائكةِ على المَشهور، ويزيدُ ولا ينقصُ: وهو إيمانُ الأنبياءِ، وهذا قول جمهورِ الأشاعرةِ واحتجُوا لذلكَ بحُجةٍ عقليةٍ ونقليةٍ، أما العقليةُ فهي: أنه لو لم تتفاوتْ حقيقةُ الإيمانِ بالزيادةِ والنقصِ، لكانَ إيمانُ آحادِ الأمة بل المنهمكينَ على الفسقِ والمعاصي مُساوياً لإيمانِ الملائكةِ والأنبياءِ، واللازم وهو المساواةُ باطلٌ، فكذا الملزومُ الذي هُو عدمُ التفاوتِ بالزيادةِ والنقصِ، وأما النَّقليةُ فهي النصوصُ الكثيرةُ الواردةُ في هذا المعنى كقولهِ تعالى:

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢] وكقوله: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤] وكقولهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ لابنِ عُمرَ: لمَّا سَألَهُ: الإيمانُ يزيدُ وينقصُ؟ قالَ: «نعم يزيدُ حتى يُدخلَ صاحبَه الجنَّةَ. وينقصُ حتى يُدخلَ صاحبَه النَّارَ[1]».

وقولُهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ:

«لو وُزنَ إيمانُ أبي بكرٍ بإيمانِ هذهِ الأُمَّةِ لَرجحَ بهِ»[2].

وهذا الحديثُ كالآياتِ السَّابقةِ لا يدلُ على أنهُ ينقصُ، لكن كل ما يقبلُ الزيادةَ يقبلُ النقصَ. أما إيمانُ الأنبياءِ فلا يعتريهِ نقصٌ، لوجوب العِصمةِ الدائمةِ. وقال جماعةٌ أعظمهم الإمام أبو حنيفةَ رحمهُ الله: (لا يزيدُ ولا ينقصُ) لأنَّه اسمٌ للتَّصديقِ البالغ نهايةَ الجزم والإذعانِ. وهذا لا يُتصوَّر فيه ما ذُكر، لأن تلكَ النهايةَ لا مراتبَ لها، وتأوَّلوا الآياتِ السابقة بأنَّ الزيادةَ إنما هي في المُؤمَنِ بهِ لأنَّ الصحابةَ كانوا آمنوا بما أُنزِلَ على النبي ﷺ وكانت الشريعةُ لم تتم، وكانتْ الأحكامُ تنزلُ شيئاً شيئاً، فكانوا يؤمنونَ بكل ما يتجددُ، وتأوَّلوا الأحاديثَ السابقةَ بأنَّ الزيادةَ والنقصَ يرجعُ كلٌّ منهما إلى الأعمال لا التصديقِ. لكنَّ الحقَ أنَّ التصديقَ مراتبُ، فإن تصديقَ المقلدِ ليس كتصديق

---

(١) روى نحوه ابن ماجه (٧٤-٧٥) موقوفاً على أبي هريرة وابن عباس وأبي الدرداء.

(٢) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٤/ ١٢) إلى الحكيم الترمذي موقوفاً على عمر بن الخطاب وعزاه في كشف الخفاء (٢١٣٠) إلى إسحاق بن راهويه والبيهقي في الشعب بسند صحيح موقوفاً على عمر وقال أخرجه ابن عدي والديلمي كلاهما عن ابن عمر مرفوعاً وفي سنده عيسى بن عبد الله وهو ضعيف.

العارفِ بالدليلِ، وهو ليس كتصديقِ المُراقِب، وهو ليس كتصديقِ المشاهِد، وهو ليس كتصديقِ المستغرقِ الذي لا يُشاهِدُ إلا الله.

وقال الفخرُ الرازي: إنَّ الخلافَ بين الفريقين لفظيٌّ، ووفّق بين القولين، وحملَ الزيادةَ والنقصان على ما بِهِ كمالُه وهو الأعمالُ، ونفيهُ على أصله وهو التصديقُ الباطني، إلا أنَّ هذا التوفيقَ لم يَحُزِ القبولَ، والتحقيقُ أنَّ الخلافَ حقيقيٌّ، وإنَّ التصديقَ القلبي يزيدُ وينقص بكثرة النظر ووضوح الأدلة وعدمهما، وقد يزيد بمحض التجلي، فتحصل من هذا: أنَّ المعتمدَ أنَّ الإيمانَ هو التصديقُ فقط، وأنَّ النطقَ شرطٌ في إجراءِ الأحكامِ الدنيويةِ. وأنَّ الإيمانَ يزيدُ وينقصُ، و الله ولي التوفيق.

* * *

| | |
|---|---|
| ٢٣- فَواجِبٌ لَهُ الوُجودُ والقِدَمْ | كذا بقاءٌ لايُشَابُ بالعَدَمْ |
| ٢٤- وأنَّهُ لِمَا يَنَالُ العَدَمْ | مُخالِفٌ برهانُ هذا القِدَمْ |

## [أقسام علم التوحيد]

مما ينبغي أنْ يُعْلم أنَّ مباحثَ هذا الفن ثلاثةٌ: إلهياتٌ: وهي الأحكامُ التي تتعلقُ بذاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ. ونبوياتٌ: وهي المسائلُ التي تتعلقُ بالأنبياء. وسمعياتٌ: وهي المسائلُ التي لا تُعرفُ أحكامُها إلا من السَّمعِ.

## [الإلهيات]

وقد بدأ المؤلفُ في الإلهيات لأهميتها وقدَّم ما يجبُ للهِ على غيرِهِ من الجائزِ والمستحيلِ لشرفهِ.

## [صفة الوجود]

فيجب لله تعالى الوجودُ، الصفةُ النفسيةُ الوحيدةُ، ومعنى هذا الوجوبِ أنه لا يقبلُ العَدَمَ لا أزلاً ولا أبداً، والدليلُ من وجوبِ الوجودِ له تعالى: افتقارُ العالَمِ إليه، وكلُ مَنْ وجبَ افتقارُ العَالَم إليه، فهو واجبُ الوجودِ، ويتصفُ هذا الوجودُ بالذاتي أي لا لِعلةٍ أثَّرتْ في وجودِه، بخلافِ وجودِنا فإنَّه غيرُ ذاتي

فهو بفعله تعالى.

[وحدة الوجود]

وبعضهم لا يشاهِدُ لغيرِه وجوداً وهذا يُسمّى عندهم وَحدةَ الوجودِ[1].

وقد غرِقَ فيه مَن غرِقَ، حتى وقعَ من بعض الأولياء ما يُوهِمُ الاتحادَ والحلول، كقول الحلّاج: أنا الله، وكقولِ بعضهم: ما في الجبّة إلا الله، وهذا اللفظ لا يجوزُ شرعاً لإيهامه، لكن القومَ تارةً تغلبهم الأحوالُ فيُؤَوّلُ ما يقعُ منهم بما يناسِبه، ومن اللفظِ المُوهِم ما شاعَ على ألسنةِ العَوام من قولهم: (الله موجود في كلِّ الوجودِ) ففيه إشارةٌ إلى وَحدةِ الوجودِ، لكنه ممتنعٌ لإيهامِه الحُلول، وإن كانَ لها تأويلٌ أي مع كلِّ مَوجودٍ لا يغيبُ عنه شيءٌ، ومعيّتُهُ معهُ معناها تصرفهُ فيه وتدبيرُه معيةً معنويةً لا يعلمها إلا اللهُ تعالى، لا يَخفَى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماءِ. ومن كلامِ ابنِ وَفا: إنَّ مِنْ أعظمِ إشاراتِ وَحدةِ الوُجودِ قولهُ تعالى:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ [فصلت: ٥٣_٥٤]

ومن ألطَفِ إشاراتِها قولُ أبي مدين التلمساني:

اللهَ قلْ وذرِ الوجودَ وما حوى ... إنْ كنتَ مرتاداً بلوغَ كمالِ
فالكلُّ دونَ الله إنْ حققتَهُ ... عَدَمٌ على التفصيلِ والإجمالِ
واعلمْ بأنكَ والعوالمَ كلَّها ... لولاهُ في محوٍ وفي اضمحلالِ
مَنْ لا وجودَ لذاتِه مِنْ ذاتِه ... فوجودُه لولاه عينُ مُحالِ

---

(١) مذهب وحدة الوجود مذهب الذين يوحدون الله والعالم، ويزعمون أن كل شيء هو الله. وهو مذهب بعض المتصوفة الذين يقولون: إن الله هو الحق، وليس هناك إلا موجود واحد، وهو الموجود المطلق، أما العالم فهو مظهر من مظاهر الذات الإلهية، وليس له وجود في ذاته، لأنه صادر عن الله بالتجلي. لسنا بحاجة إلى وحدة الوجود ولا إلى الحلول ولا إلى الاتحاد يكفينا ما جاء في القرآن والسنة فهو واضح جلي مُيَسَّر ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ ونخشى على من يمشي في هذا الطريق من الكفر.

والعارفونَ بربهم لم يشهدُوا شيئاً سوى المُتكبرِ المتعالي
ورأوْا سواهُ على الحقيقةِ هالكاً في الحال والماضي والاستقبالِ

وأحسنُ تفسيرٍ لها قولُ القائلِ:

إنَّما وحدةُ الوجودِ لدينا وَحدةُ الحقِ فافهموا ما نقولْ
هوَ حقٌ بعد الفنا عن سواهُ يَتجلى فتضمحلُ العقولْ
وسواءٌ قلنا الوجودَ أو الحقَ فلا فرقَ عندنا يا جهولْ

## [هل الوجود عين الموجود]

والبحثُ عن المسألةِ الخِلافيّة: هل الوجودُ عينُ الموجودِ كما قال الأشعري، أو غيرُه كما قال الرازي، هو من غوامضِ علم الكلامِ، ويكفي المكلفُ أنْ يعرفَ أنّ الله تعالى موجودٌ، ولا يجبُ عليه معرفةُ أنّ وجودَه تعالى عينُ ذاتِه أو غيرُ ذاتِه، ويقربُ من هذا خِلافُهم بأنّ الاسم عينُ المسمّى أو غيرُه ولا شك أنّ القولَ المؤيد هو قولُ مَنْ قالَ الاسم عينُ المسمّى، والدليلُ على ذلك قولُ الله تعالى:

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ [الشورى: ١٠].

فجعل اسمه تعالى عين ذاته، كما قال تعالى:

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الإسراء: ١١٠].

ومما يؤيد ذلك حديث مسلم مرفوعاً:

«أنا مع عبدي إذا ذكرني وتحركت بي شفتاه»(١).

فإنه تعالى جعلَ اسمَه عينَ ذاتِه، إذ الذاتُ لا تتحرك بالاسمِ الذي هو اللفظُ.

## ١ـ [صفة القدم]

ومما يجبُ لله تعالى من الصفاتِ القِدَم. وهي إحدى الصفاتِ الخمس

(١) رواه البخاري تعليقاً في كتاب التوحيد الباب (٤٣) عن أبي هريرة ووصله أحمد (٢/ ٥٤٠) وعزاه في الترغيب والترهيب (٢/ ٣٩٤) إلى ابن ماجه وابن حبان في صحيحه.

السلبية، وسُمِّيت بذلك لأنها تدلُ على سلبِ ما لا يليق بذاتِه تعالى، فهي مُهماتُ الأمهات، لأنه يلزم من نفي ضدِ هذه الخمسة تنزيهُهُ تعالى عن جميع النقائصِ، ومعنى القِدَم في حقهِ تعالى عدم الأوليّة، فالقديمُ هو الذي لا أولَ له ودليلُ اتصافِه بهذه الصِّفة، أنَّه لو لم يكن قديماً لكان حادثاً، ولو كان حادثاً لافتقرَ إلى مُحْدِثٍ ولو افتقرَ إلى مُحدِثٍ لافتقرَ محدِثُه إلى مُحدِثٍ، وهكذا إلى ما لا نهايةٍ وذلك باطلٌ.

## ٢ـ [صفة البقاء]

ومما يجب له تعالى من الصفات السلبية: البقاءُ، ومعناهُ في حقه تعالى عدمُ الآخرِيَّة، فالباقي هو الذي لا آخرَ لوجودِه ودليلُ اتصافِه بهذه الصفةِ، لو جاز عليه العَدَمُ لاستحال عليه القِدَمُ.

## ٣ـ [صفة المخالفة للحوادث]

ومما يجبُ له تعالى: مخالفتُه للحوادثِ، وهي صفةٌ سلبيةٌ أيضاً عَناها المصنفُ بقوله: وأنَّه لِما ينالُ العَدَمُ مخالفٌ الخ.

والمعنى أنَّ ذاتَه وصفاتِه تَعالى مخالفةٌ لِكل حادثٍ، والمُخالفةُ لِما ذُكِرَ عبارةٌ عن سَلْبِ الجرميةِ والعَرضيةِ والكُلّيَّة والجزئيةِ ولوازمِها عنهُ، ودليلُ هذهِ الصفةِ دليلُ ما تقدَّم من القِدَمِ، وإذا ألقَى الشيطانُ في ذهنكَ أنّه إذا لم يكن جِرماً ولا عرضاً ولا كُلّاً ولا جزءاً فما حقيقتُه، فقُلْ في رد ذلكَ لا يعلمُ الله إلا اللهُ، ليسَ كَمثلهِ شيءٌ وهو السميعُ البصيرُ.

* * *

٢٥ـ قِيامُهُ بالنَّفسِ وحدانِيَّهْ مُنَزَّهاً أوصافُهُ سَنِيهْ

٢٦ـ عَنْ ضِدٍّ أو شِبْهٍ شَرِيكٍ مُطْلَقَا ووالدٍ كذا الوَلَدْ والأَصدِقَا

## ٤ـ [صفة القيام بالنفس]



ومما يجبُ له تعالى من الصفاتِ السلبيةِ القيامُ بالنفس، ومعنى ذلك أنه لا يفتقرُ إلى محلٍ أي إلى ذاتٍ يقومُ بها ولا إلى مُخصصٍ أي مُوجِدٍ، ويؤخذ

من هذه الصفةِ جواز إطلاقِ النفسِ على الله تعالى، وقد وردَ في القرآنِ:

﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢] ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ [طه: ٤١]

وفي الحديث: «لا أُحصي ثناءً عليكَ أنتَ كما أثنيتَ على نفسكَ»[1]

ودليلُ اتصافِه بهذه الصفةِ أنّه لو احتاجَ إلى محلٍّ لكان صفةً، ولو كان صفةً لم يكن مُتصفاً بصفاتِ المعاني والمعنويةِ، والفَرْضُ أنّه متصفٌ بهما وإلا لما وُجدَ العالَمُ، ودليلُ استغنائه عن المُخصص أنّه لو احتاجَ إلى مُخصِصٍ لكانَ حادثاً ولو كان حادثاً لافتقرَ إلى مُحدِثٍ.

## ٥ـ [صفة الوحدانية].

ومما يجبُ له تعالى من الصفاتِ السلبيةِ: الوحدانيةُ، وهي الخامسةُ منها، المتممةُ لها، وهي أهمُ الصفاتِ، ولذا يُسمى علمُ التوحيد بها ولِعِظَم العنايةِ به كَثُرَ التنبيهُ والثناءُ عليهِ في القرآن كما في قوله تعالى:

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]

ولم يكفرْ بالوحدانيةِ إلا بعضُ الإنس، وأما الجنُ فلا يعتقدونَ الشركَ بالله سبحانه، وإنّما الكافرُ منهم بغيرِ الشركِ، وقد نَفتْ هذه الصفةُ كُموماً خمسةً: الكمُ[2] المتصلُ في الذاتِ وهو عدمُ التركيبِ فيها، والكَمُ المنفصلُ فيها وهو عدمُ النظيرِ فيها، والكَمُ المنفصلُ في الأفعالِ، وهو عدمُ المشاركِ لهُ فيها. والكَمُ المتصلُ في الصفاتِ، وهو التعددُ في صفاتهِ من جنسٍ واحدٍ. والكَمُ

---

(١) رواه مسلم في كتاب الصلاة، باب ما يُقال في الركوع والسجود الحديث (٣٥٢) وأبو داود (١٤٣٣) والترمذي (٣٥٦٦) وابن ماجه (١١٧٩) وأحمد (١/ ٩٦).

(٢) الكم هو عَرَضٌ (أي ما يقوم بغيره) من خصائصه أنه يقبل التقدير والتجزئة والكم ينقسم إلى قسمين: الكم المتصل والمنفصل والكم المتصل: هو ما كان بين أجزائه حد مشترك، وذلك كالخيط فإنَّ بين أجزائه حداً مشتركاً، فهو نهاية لجزء وبداية لجزء. أما الكم المنفصل: وهو ما لم يكن بين أجزائه حد مشترك، كالورد وذلك كالعشرة فإننا إن أشرنا منها إلى السادس مثلاً انتهى إليه الستة، وابتداء الأربعة الباقية من السابع لا من السادس، فلم يكن ثمة بينهما حد مشترك.

المُنفصلُ في الصفات هو أن يكونَ لغيرِ الله صفةٌ تشبه صفتَه تعالى. ودليل الوَحدانيةِ من النَّقلِ ما تقدَّمَ من الآيةِ، وقولهُ تَعالى:

﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ٦]

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ وهي سورة الاخلاص، وسبب نزولها أنّ المشركين سألوا رسولَ الله ﷺ فقالوا: صِفْ لنا ربَّك أمِنْ ذهبٍ أم مِنْ فضةٍ[1]. وقد نفت هذه السورةُ أنواعَ الكُفرِ الثمانية، لأن قل هو الله أحد نفى الكَثْرةَ والعدد، وقوله: الله الصمد وهو الذي يقصد في الحوائج نَفى القلةَ والنقصَ، وقوله: لم يلدْ ولم يُولدْ نفى العِلّةَ والمعْلُوليّةَ، أي أنْ يكون علةً لغيره، وقوله: ولم يكن له كفواً أحد نَفى الشبيه والنظير والمثيل.

وأما دليلُ الواحدانيةِ من العقلِ، فقد علَّمنا الله بقوله تعالى:

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: ٢٢]

وقوله تعالى:

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ ﴾ [المؤمنون: ٩١]

## [براهين وحدانية الله تعالى]

وللعلماء في ذلك برهانان يُقالُ لأحدهما برهانُ التمانعِ في حالة الاختلاف، وبرهانُ التواردِ في حالةِ الاتفاق، وتقريرُ الأول أنْ نقولَ: لو اختلفَ الإلهان بأنْ أرادَ أحدُهما إيجادَ شيء والآخر إعدامَه، فإما أن يتمَّ مرادُهما معاً، وهو باطل للزوم اجتماع الضّدين، أو لا يتمَّ مرادُهما معاً، وهو باطلٌ أيضاً للزوم عجزِ مَنْ لم يتمَّ مرادُه أيضاً لوجودِ المماثلةِ بينهما؛ فَبَطَلَ التعددُ وثبتتْ الوحدانيةُ. وأما التقرير الثاني أنْ تقولَ: لو وُجد فردان متصفان بصفات الألوهية تقديراً وأرادا معاً إيجادَ شيءٍ، فإما أنْ يحصلَ بإرادتهما معاً،

(١) رواه الترمذي (٣٣٦١-٣٣٦٢) وأحمد (٥/١٣٤) وعزاه في الدر المنثور (٨/٦٦٩) أيضاً إلى البخاري في تاريخه وابن جرير والبغوي والحاكم وصححه وغيرهم.

وذلك باطل، لأنه يلزمُ عليه اجتماع مؤثرين على أثرٍ واحدٍ، أو بإرادةِ أحدهما، وذلك باطلٌ أيضاً، لأنه يلزمُ عليه عجزُ الآخرِ ويلزمُ عجزُ الأول لوجودِ المماثلة بينهما، والحقُ أنَّ، آيةَ: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ [الأنبياء: ٢٢] حجةٌ قطعيةٌ لا دليلٌ إقناعي، وشنَّعَ القولُ على مَن قالَ بالثاني.

## تنبيه

اعلمْ أنَّ (إلا) في الآية الكريمة صفةٌ لآلهةٍ بمعنى غير، فهي اسمٌ لكن لَم يظهرْ إعرابُها إلا فيما بعدها لكونها على صورةِ الحرفِ، ولا يجوز أنْ تكون (إلاّ) هنا أداةَ استثناء لا من جهةِ المعنى ولا من جهةِ اللفظِ، أما الأولُ فلأنَّه يلزمُ منهُ نَفيُ التوحيدِ، إذِ التقديرُ لو كانَ فيهما آلهةٌ ليسَ فيهم الله لَفَسدتا فَيقتضي بمفهومِهِ أنّه لو كانَ فيهما الله لمْ تَفْسُدا وهو باطلٌ، وأما الثاني فلأنَّ المستثنى منهُ يُشترَط أنْ يكونَ عاماً، وآلهةٌ جمعٌ مُنكرٌ في الإثبات فلا عمومَ له فلا يصحُ الاستثناءُ منه، وقولهُ: مُنَزهاً أوصافُه سنيَّة، أي إنَّ أوصافَه تَعالى رفيعةٌ جميلةٌ جليلةٌ، فمنْ تعلقَ بها ونظرَ لها وشاهدها لم يحكمْ بقُبحِ شيء، قالَ بعضُ العارفينَ:

إذا ما رأيت الله في الكلِ فاعلاً     رأيتَ جميعَ الكائناتِ مِلاحَا
وإن لـم تـرَ مظـاهـر صُنعِـه     حُجبتَ فَصيرّتَ الحِسان قِباحا

وقوله: عن ضدٍ أو شِبهٍ شريكٍ مُطلقاً الخ

أي تنزَّه الباري تباركَ وتعالى عن الضدِ أو الشبْهِ أو الشريكِ والوالدِ والولدِ والأصدقاءِ، لأنه تقدّم أنّه مخالفٌ للحوادثِ، فلا يكونُ له ضدٌ كما للحوادثِ؛ والضدانِ هما: الأمرانِ الوُجوديانِ اللذانِ بَينهما غايةُ الخِلاف لا يجتمعان، فلو كانَ لله تعالى ضِدٌ في ذاتهِ أو صفاتهِ لم يكنْ واجبَ الوجودِ والقِدَم إلخ.

فكلُّ صفةٍ من هذهِ الصفات تنفي الضد. والشبْهُ هو المشابهُ في غَالبِ الأحوالِ، والمثيلُ هو المُساوي في جميعِ الأحوالِ، والشريكُ هو المشاركُ؛ وتنزَّه تبارك وتعالى عن الوالد، وهو يشملُ الأبَ والأمَّ فليس منفصلاً عن الولد، وأما عيسى عليه السلام خلقهُ الله بلا أب كما خلقَ آدمَ عليه السلام، بل آدمُ عليه السلام أغربُ، قال تعالى: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ

﴿وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٠-٩٢].

- وتنزَّه تباركَ وتعالى عن الصَّديقِ، وهو الصادقُ في وُدِّهِ بحيثُ يكونُ معك في الحقِ ويضرُّ نفسَه لينفعك، كما قيلَ في تعريفِهِ.

إن صديقَ الحقِ مَنْ كان معكْ ... ومَنْ يضرُّ نفسَه لينفعكْ
ومَنْ إذا ريبُ الزمان صَدَّعكْ ... شتّت فيك شملَه ليجمَعكْ

والأصلُ القاطعُ في ذلك المؤيِّدُ للدليلِ العَقلي قولهُ تعالى:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]
﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [سورة الإخلاص].

* * *

٢٧- وقُدرةٌ إرادةٌ وغايَرتْ ... أمْراً وعِلماً والرِضا كما ثَبَتْ

[صفات المعاني]

شُروعٌ من المصنفِ في صفاتِ المعاني، وهي سبعةٌ: القدرةُ، والإرادةُ، والعلمُ، والحياةُ، والكلامُ، والسمعُ، والبصرُ، وقدَّمها على المعنويةِ لكونها وجوديةٌ وأصلاً للمعنويةِ، لأنَّ من وجبَ لهُ العلمُ لزمَ منهُ كونهُ عالماً. وتسمّى أيضاً الصفاتُ الذاتيةُ، لأنَّها لا تنفكُ عن الذَّاتِ وتُسمَّى الصفاتُ الوجوديّةُ لأنها متحقِقَةٌ باعتبارِ نفسها. وأما تعريفُها في الاصطلاح: كلُ صفةٍ قائمةٍ بموصوفٍ زائدةٌ على الذاتِ مُوجبةٌ له حُكماً.

[القدرة]

وبدأ بالقدرةِ وهي صفةٌ أزليةٌ قائمةٌ بذاته تعالى زائدةٌ عليها يَتأتّى بها إيجادُ كلِّ مُمكنٍ وإعدامُه على وفقِ الإرادةِ، وهذا التعريفُ للقُدرة وغيرِها من الصفاتِ ليسَ حَداً[1] حقيقياً وإنما هُوَ رسمٌ لأنه لا يعلمُ كُنْهَ ذاتِه وصفاتِه إلا

(١) الحد: هو اللفظ الذي يصلح أن نخبر به وحده، أو أن نخبر عنه وحده. مثال

هو، ودليلَ وجوبِ القدرةِ من النَّقلِ آياتٌ كثيرةٌ منها قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦].

ومِن العقلِ: أنْ تقولَ: الله تعالى صانعٌ قديمٌ له مصنوعٌ حادِثٌ وكل من كان كذلكَ تجبُ له القُدرةُ.

[الإرادة]

وثَنَّى بالإرادةِ وهي الصفةُ الثانيةُ من صفاتِ المعاني، فمعناها في اللغةِ: مطلقُ القَصدِ، وعُرفاً: صفةٌ قديمةٌ زائدةٌ على الذاتِ قائمةٌ بها تُخصِصُ المُمكِنَ ببعض ما يجوزُ عليه، فلا تتعلقُ الإرادةُ بالواجبِ والمستحيلِ كالقُدرةِ، وشملَ المُمكِنَ الخيرَ والشرَّ خلافاً للمعتزلةِ القائلينَ بأنَّ إرادةَ الله لا تتعلقُ بالشر والقبائح، حُكِيَ أنَّ عبدَ الجبارِ الهَمَداني دخلَ على الصاحبِ بن عباد وعندهُ الأستاذُ أبو اسحقَ الاسفرايني، فلمَّا رأى الأستاذَ قال: سبحانَ مَنْ تنزَّهَ عن الفحشاءِ، فقالَ الأستاذ: سبحانَ مَنْ لا يجري في مُلكِهِ إلا ما يشاء، فقال عبد الجبار: أفيريدُ ربُنا أنْ يُعصى، فقال الأستاذُ: أفيُعصى ربُنا كرهاً، فقال عبد الجبار: أرأيتَ إنْ منعنيَ الهُدى وقَضى عليَّ بالردى أحسنَ إليَّ أم أساءَ؟ فقالَ الأستاذ: إنْ منعكَ ما هو لكَ فقد أساءَ، وإنْ منعكَ ما هو لهُ فهو يختصُ برحمتِهِ ما يشاءُ. ويَقرُبُ مِن هذا ما ذكرَهُ العلماءُ أنَّ إبليسَ سألَ الإمامَ الشافعيَ رضيَ الله عنهُ فقالَ له: ما قولُكَ فيمنْ خَلَقني كما اختارَ، واستعمَلني فيما اختارَ، وبعدَ ذلكَ إنْ شاءَ أدخلني الجنةَ وإنْ شاءَ أدخلني النَّارَ، أعَدَلَ في ذلك أم جَارَ؟ فنظَرَ في كلامِهِ ثمَّ قالَ: يا هذا إنْ كانَ خلقكَ لِمَا تريدُ أنتَ فقد ظلمكَ، وإنْ كان خلقكَ لما يريدُ هو ﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾[1] فاضمَحلَّ إلى أنْ صارَ لا شيء، ثم قال: و الله يا شافعيّ لقد أخرجتُ بمسألتي هذهِ سبعينَ ألفَ عابدٍ من ديوانِ العُبوديةِ إلى ديوانِ الزندقةِ.

= ذلك قولنا: الإنسان أو الشجرة أو الزهرة إنها جميعاً ألفاظ، يصح أن نخبر بها وحدها. أو أن نخبر عنها وحدها، ويمكننا دوماً أن نقول: خالد إنسان، وعمر إنسان ونحن بذلك نخبر عن خالد وعمر بأنهما من الناس، ونستعمل هنا كلمة إنسان لنخبر بها عن خالد وعمر.

(١) الأنبياء: ٢٣.

## [هل يجوز نسبة القبيح إلى الله تعالى]

واختلفَ العلماءُ في جوازِ نسبةِ الشُرورِ والقبائح إليهِ تَعالى، والرَّاجحُ جوازُ ذلك في مقامِ التعليم لا في غيرِهِ، وهذا الخلافُ جارٍ في نِسبةِ الأمورِ الخسيسةِ إليه تعالى، والأصحُ الجوازُ في مقامِ التَّعليمِ، مثالُ ذلكَ: الله خالقُ القِرَدةِ والخنازيرِ

والدليلُ على وجوبِ الإرادةِ لهُ تعالى أنْ تقولَ: اللهُ صانعٌ للعالمِ بالاختيارِ، وكلُّ مَنْ كانَ كذلكَ تجبُ له الإرادةُ، فالله تجبُ له الإرادةُ. وقد وصفَ الله تعالى نفسَه بأنّه مُريدٌ قالَ تَعالى:

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل: ٤٠]

وقال أيضاً: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً ﴾ [الإسراء: ١٦] إلى غيرِ ذلكَ منَ الآياتِ.

## [الفرق بين الإرادة والأمر والعلم والرضا]

والإرادةُ تخالفُ الأمرَ والعلمَ والرِّضا، فقد يريدُ ويأمرُ كإيمانِ مَنْ عَلمَ الله منهم الإيمانَ، وقد لا يريدُ ولا يأمرُ: كالكُفرِ مِنْ هؤلاء، وقد يريدُ ولا يأمرُ: كالكفرِ الواقعِ ممنْ عَلمَ الله عَدمَ إيمانِهم وكالمعاصي، وقد يأمرُ ولا يريدُ: كإيمانِ هؤلاءِ. ومخالفةُ الإرادةِ للعلم ظاهرةٌ لتعلُقِ العلم بالواجبِ والمستحيلِ والجائزِ، ولا تتعلقُ الإرادةُ إلا بالجائزِ، كما أنَّ مخالفتَها للرضا لأنَّ الإرادةَ قد تتعلقُ بما لا يَرضَىَ به الله تعالى كالكُفرِ الواقعِ منَ الكُفارِ كما مرَّ.

* * *

٢٨ـ وعِلْمُــهُ ولا يُقَــالُ مُكتَسَـبْ  فاتبَعْ سبيلَ الحَقِ واطْرَحِ الرِّيَبْ
٢٩ـ حيـاتُــهُ كَــذا الكَـلامُ السَّمْـعُ  ثُـمَّ البَصَـرْ بِذِي أتـانَـا السَّمْـعُ

## [العلم]

الصفةُ الثالثةُ من صفات المعاني: العلمُ. وهي صفةٌ أزليةٌ قائمةٌ بذاتِه تتعلقُ بالواجباتِ والمستحيلاتِ والجائزاتِ تَعلُقَ إحاطةٍ وانكشافٍ، وهيَ مِنْ أخصِّ

صفات الباري تعالى، إذْ لا يمكنُ لِمُوْجِد العالَم ومُرَتِّبه أنْ يُدبرَه إلا إذا كانَ عالماً بما تقتضيهِ مصلحتهُ، كما لا يمكنُ أنْ يكافىءَ المحسنينَ بإحسانِهم ويجزيَ المُسيئين بإساءَتهم إلا إذا كانَ خبيراً بتفاصيلِ ما يقعُ منهم مِنْ خيرٍ أو شرٍ. قالَ تعالى:

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤] وقال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩]

إلى غيرِ ذلكَ من الآياتِ الدَّالةِ على أنَّ الله بكلِّ شيءٍ عليم.

- والدليلُ على ثُبوتِ العلم من العقلِ، أنَّ الله تعالى صانعٌ للعالَم صُنعاً مُتقَناً بالإرادةِ والاختيارِ، وكلُّ مَنْ كانَ كذلكَ يجبُ له العلمُ، فيعلمُ المولى تعالى الأشياءَ أزلاً إجمالاً وتفصيلاً، ويعلمُ الكلياتِ والجزئياتِ، ويعلمُ سبحانه تعالى ما لا نهايةَ له كَكَمالاتِهِ وأنفاس أهلِ الجنةِ فيعلمُها تفصيلاً، ويَعلمُ أنه لا نهايةَ لها، ولم يخرجْ عن علمه تعالى مثقالُ حبةٍ من خَردلٍ من الموجودات ولا أصغرَ من ذلك، وما أحسنَ قولَ الزَّمخشري:

يا مَنْ يرى مدَّ البعُوضِ جناحها      في ظُلمة الليلِ البهيمِ الأليلِ
ويَرى نِياطَ عروقِها في سَاقِها      والمخَّ في تِلكَ العظامِ النُخَّلِ
أُمْنُنْ عليَّ بِتوبَةٍ أَمحو بِها      مَا كانَ مِني في الزمانِ الأوَلِ

## [أقسام العلم]

وعلمُه تعالى لا كَعلمِ الحوادثِ وليسَ داخلاً في أقسامِ العلمِ الثلاثةِ الكَسبي والضَّروري والبَدَهي.

فالكسبيُّ: ما كانَ ناشئاً عن نظرٍ واستدلالٍ، ويقالُ له نظري، فإذا أقمتَ دليلاً على حدوث العالم بِتَغَيُّرِهِ فهو كسبيٌّ ونظريٌّ بمعنى. والضروريُّ ما لا يتوقفُ على نَظَرٍ واستدلالٍ لكنَّ مُقارنتهُ للضرورةِ فيه إيهامٌ فلا يوصفُ بهِ البَاري تَعالى، وأما البَدَهي: فهو ما يحصلُ للنَّفسِ بَغتةً، فلا يُوصفُ بهِ كذلك لهذا الإِيهام.

وأما قولُ المصنفِ فاتَّبعْ سبيلَ الحقِ واطرَحْ الريَبْ فهو ردٌّ على المعتزلةِ

النافينَ لصفاتِ المعاني لِئلا يلزمَ تعددُ القدماءِ، وهذه شبهةٌ فاسدةٌ لأنَّه لا يلز
إلا تعدد ذواتِ القُدماءِ لا تعددَ الصفاتِ مع اتحادِ الذاتِ، فهم يقولونَ: قادر
بذاتِه، مريدٌ بذاتِه، وهكذا، وهو هذيانٌ لأنَّه لا يُعقلُ قادرٌ بلا قُدرةٍ، ومُريدٌ بلا
إرادةٍ، وهكذا وما وردَ من الآياتِ الكريمةِ مما يوهِمُ اكتسابَ علمِه فهو مؤول
قال تعالى:

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى ﴾ [الكهف: ١٢].

فظاهرُ الآيةِ أنَّ بإيقاظِهم يتجددُ علمُ الله، وحاصلُ التأويلِ أنْ تقولَ: إنَّ
قولَهُ تعالى: لنعلمَ أيْ، لِيظهرَ لَهم مُتعلَّقُ عِلمِنا، فاللامُ للعاقبةِ.

## [الحياة]

الصفةُ الرابعةُ من صفات المعاني: الحياةُ وهي صفة أزليةٌ قائمةٌ بذاتِه
تَقتضي صحةَ العلم، والقدرةِ، والإرادةِ، والكلامِ، والسمعِ، وحياتُهُ تعالى
لذاتِه، بخلافِ حياتِنا فإنها ليستْ لِذاتِنا بل بسببِ روحٍ، والدليلُ على اتصافِهِ
تعالى بهذهِ الصفةِ أنْ تقولَ: الله تعالى مُتصفٌ بالقدرةِ والإرادةِ والعلمِ وكلُّ مَنْ
كانَ كذلكَ تجبُ له الحياةُ، إذْ لا يُتصوَّرُ قيامُها بِغيرِ حيٍّ قال تعالى:

﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ [آل عمران: ٢].

## [الكلام]

الصفةُ الخامسةُ من صفات المعاني: الكلامُ ودليلُ هذه الصفةِ وما بعدَها
نقليٌّ كما سيأتي في قولِه بذي أتانا السَّمعُ، لأنَّ صُنعَ العالَمِ لا يتوقفُ على
الاتصافِ بها، وهي صفةٌ أزليةٌ قائمةٌ بذاتِهِ تعالى، ليستْ بحرفٍ ولا صوتٍ
منزَّهةٌ عن التَّقدُّمِ والتأخرِ والإعرابِ والبناء، ومُنزَّهةٌ عَنْ السكوتِ النفسي بأنْ
لا يدير في نفسِه الكلامَ مع القدرة عليه، ومنزهةٌ عن الآفةِ الباطنية بأنْ لا يقدر
على ذلك كما يكون للآدمي في حال الخَرسِ والطفولةِ، وبهذا التعريفِ ردٌّ على
المعتزلةِ الذين يحصرونَ الكلامَ في ذِي الحُروفِ والأصواتِ، ويؤيدُ هذا أنَّ
ما في النفسِ يُسمَّى كلاماً حقيقةً وليسَ بصوتٍ ولا حرفٍ وعلى هذا قولُ
الأخطلِ التغلبي:

لا يعجبنَّك من خطيبٍ خطبةٌ حتى يكونَ مع الكلام أصيلا
إنّ الكلام لفي الفؤادِ وإنما جُعلَ اللسانُ على الفؤادِ دليلا

وخلاصةُ القولِ: إن كلامَ الله تعالى يُطلقُ على الكلامِ القديم، ويُطلقُ على الكلامِ اللفظي، لا بمعنىَ أنَّه قائمٌ بهِ بل بمعنى أنَّه خَلقَه على نظمِهِ. وليس لأحدٍ في تركيبه كسبٌ، وإطلاقُه على هذين المعنيين من قبيل المشترك اللّفظي[(١)]، أو من قبيلِ الحقيقةِ[(٢)] والمجازِ[(٣)]، فهو حقيقةٌ في النفس مَجازٌ في اللفظ من بابِ إطلاقِ اللفظِ الدالِ، والقرآن الكريمُ الذي نتلوه بألسنتنا ونكتبُه بأيدينا ويسمعُه بعضُنا منْ بعض هو كلامُه تعالى اللفظي الدال على المعنى القديم، وكلُّ مَنْ أنكرَ أنَّ ما بين دفتي المصحف كلامَ الله تعالى فهو كافرٌ، إلا إذا أرادَ أنه ليسَ هو الصفةُ القديمةُ القائمةُ بذاتِه، ومع ذلك فقد نهى العلماءُ عن القول بأنَّ القرآنَ حادثٌ لِما في ذلك من الإيهام، ولقد عُذّبَ شيخ السّنةِ الإمامُ أحمدُ بن حنبل في سبيلِ امتناعِهِ عن ذلك لهذا المعنى. أما الدليلُ النّقلي على اتصافِ الله تعالى بالكلامِ قولُه تعالى:

﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤]، وقوله تعالى:

﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

وأما الأحاديثُ فمنها حديثُ المعراج وفيه أنَّ رسول الله ﷺ خاطبَ ربَّه وأنَّه فرضَ عليه خمسينَ صلاةً، وأنه ما زالَ يُراجعُ ربَّه حتى قال له: هُنّ خمسةٌ

(١) المشترك اللفظي: هو اللفظ الذي وضع وضعاً مستقلاً لكل واحد من معنيين فأكثر. كقولهم: قرء، موضوع لكل من الطهر والحيض.

(٢) الحقيقة: هي اللفظ المستعمل في المعنى الذي وُضع له. مثال الحقيقة استعمال كلمة «دابة» في التعبير عن كل ما يدب على الأرض.

(٣) المجاز: هو اللفظ المستعمل في غير ما وُضع له لعلاقة بينهما. مثال المجاز: استعمال كلمة «قرية» للدلالة على أهلها، مع أنها في الأصل موضوعة للدلالة على البيوت المجتمعة في مكان ما.

وهُنّ خمسونَ[1] . وما زالت الرسلُ عليهم الصلاةُ والسلام يحدثون عن ربهم أنّه أوحيَ إليهم بشرعٍ يُبلغونهُ الناسَ إما بخطابهِ سبحانَهُ وتعالىَ إياهم، وإما بخطابه سبحانَه ملكَ الوحي وهو يَبلغُهم عن ربهم.

## [السمع]

الصفةُ السادسةُ من صفاتِ المعاني السمعُ، وهي صفةٌ أزليةٌ قائمةٌ بذاتِهِ تعالى تتعلقُ بالمسموعاتِ أو بالموجوداتِ، فتدركُ إدراكاً تاماً لا على طريقِ التخُيلِ والتوهم، ولا على طريقِ تأثُرِ حاسةٍ، ووصولِ هواءٍ، ودليلُ اتصافِهِ تعالى بهذهِ الصفةِ من الكتاب قولُه تَعالى:

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١] ومنها قولُه تَعالى:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] وقوله تعالى:

﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] وقوله تعالى:

﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١].

وأمّا مِنَ السنةِ فمنها قولُه ﷺ وقد رفعَ أصحابهُ أصواتَهم بالدعاءِ «يا أيها الناسُ اربعوا على أنفسِكم فإنكمْ لا تدعونَ أصمَّ، ولا غائباً، إنه معكم سميعٌ قريبٌ»[2] والفاظُ الشرعِ يجبُ أنْ تنصرفَ إلى مَعانِيها التي تسبقُ منها إلى الأفهامِ ما لم يجبْ صرفُها عنها لِدليلٍ، وأما الدليلُ العقلي على أن اللهَ تعالى متصفٌ بالسمعِ فتقريرُه أنْ نقولَ: إن السمعَ كمالٌ والسميعُ أكملُ ممن لا يسمعُ، فلو لَم يتصفْ به لزمَ النقصُ والنقصُ عليه تعالى مُحال، وقد أرادَ ابراهيمُ الخليلُ صلواتُ الله عليه تقريرَ هذا الدليلِ فيما حكاه عنه تعالى:

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢]

---

(١) رواه البخاري في كتاب الصلاة، باب كيف فُرضت الصلوات في الإسراء (الحديث ٣٤٢) ومسلم (١٦٤) والترمذي (٣٣٤٣) والنسائي (١/ ٢١٧-٢١٨).

(٢) رواه البخاري في كتاب الجهاد باب ما يكره من رفع الصوت في التكبير الحديث (٢٨٣٠) ومسلم الحديث (٢٧٠٤).

ويُقالُ في الكَلام كما يُقالُ في السمع من الدليلِ العقلي أيضاً.

[البصر]

الصفةُ السابعةُ: البصرُ وهي أزليةٌ تتعلقُ بالمُبْصَراتِ أو بالموجوداتِ فتدركُ إدراكاً تاماً لا على طريق التخيُّلِ والتَّوهم، ولا على طريق تأثرِ حاسةٍ ووصولِ شُعاعٍ، والدليلُ السمعي على اتصاف الباري تعالى بهذه الصفةِ ما تقدَّم من الآياتِ وقولُه تعالى:

﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾ [طه: ٣٣ ـ ٣٥].

وقوله تعالى: ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٩]

وقوله تعالى: ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٥]

وقوله تعالى: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ [طه: ٣٩]

ومِنَ السُّنةِ الحديثُ المَارُّ، وأما دليلُ العقلِ: فنحوَ ما ذكرنا في إثباتِ صفةِ السَّمعِ.

* * *

٣٠ـ فَهَلْ لَـهُ إدراكٌ أوْ لا خُلْـفُ ... وعِنْدَ قومٍ صَحَّ فيهِ الوَقْفُ

[الاختلاف في صفة الإدراك]

الإدراكُ في حقنا هو: تصورُ حقيقةِ الشيء الذي يتعلقُ بهِ الإدراكُ عِندَ مَن يُدركه، وهذا المعنى مُستحيلٌ على الله باتفاق، لأنَّه يقتضي التَّعمُّلَ والتَّكلُّفَ والكَسْبَ، وقد وقعَ خلافٌ بين العلماءِ حاصلهُ هل يجوزُ إثباتُ صفةٍ لله تعالى لم يردْ نصٌّ مِن الشارعِ على ثُبوتِهَا لله تعالى بِمجرد العقلِ فذهَب قومٌ منهم إمامُ الحرمين والباقلاني إلى جوازِ ذلِكَ ما دامت صفةَ كمالٍ، وذهبَ قومٌ إلى عَدمِ الجوازِ وتقيَّدوا بورودِ النصِ فما لم يرد به نصٌّ لم يُجوِّزوا إثباتَه، وعلى هذا اختلافُهم في صفةِ الإدراكِ، والمجوزون اعتبروها صفةً من صفاتِ المعَاني واستدلوا عليها بِمثلِ الدليلِ العقلي الذي ذكرناهُ.

* * *

٣١- حَـيٌ عَلِيـمٌ قَـادِرٌ مُـرِيـدُ سَمِـعٌ بَصِيـرٌ مـا يَشـا يُـرِيـد
٣٢- مُتَكَلِّـمٌ ثُـمَّ صِفَـاتُ الـذَّاتِ لَيْسَـتْ بِغَيْـرٍ أو بِعَيْـنِ الـذَاتِ

[الصفات المعنوية]

شرَعَ المصنفُ فيما هو كالنتيجةِ لِمَا قَبلهُ، وهو الصفاتُ المعنويةُ وهَي رابعُ الأقسامِ، وهِي سبعٌ، وتسميتُها بذلكَ نسبةٌ للسبعِ المعَاني التي هيَ فرعٌ منها، فقالَ: وحيثُ وَجبتْ له الحياةُ فهو حيٌ، وحيثُ وجبَ له العِلمُ فهو عليمٌ وهكذا في جميعِ الصفاتِ المعنويةِ، فالله سبحانَه وتعالى حيٌ، قادرٌ جبّارٌ قاهرٌ لا يعتريهِ قُصورٌ ولا عجزٌ ولا تأخذهُ سِنَةٌ ولا نومٌ، ولا يعارِضُه فناءٌ ولا موتٌ، وإنَّه ذو الملكِ والملكوتِ، والعزةِ والجبروتِ، له السلطانُ والقهرُ والخلقُ والأمرُ والسمواتُ مطوياتٌ بيمينهِ، وأنَّهُ المنفردُ بالخلقِ والاختراعِ، المتوحدُ بالإيجادِ والإبداعِ، وخلقَ الخلْقَ وأعمالَهم، وقدَّرَ أرزاقَهم وآجالَهم، لا تُحصى مقدوراتُه، ولا تتناهى معلوماتُه، وأنَّه عالمٌ بجميعِ المعلوماتِ محيطٌ علمُهُ بما يجري من تُخومِ الأرضِ إلى أعلى السَّمواتِ، لا يعزُبُ عنْ علمِه مِثقالُ ذرةٍ في الأرضِ ولا في السماء، بل يعلمُ دبيبَ النَّملةِ السوداءِ على الصخرةِ الصماءِ في الليلةِ الظلماءِ، ويدركُ حَركةَ الذَّرِ في جوِ الهواءِ ويعلمُ السرَّ وأخفَى، ويَطَّلعُ على هواجسِ الضمائرِ، وحركاتِ الخواطرِ، وخفيَّاتِ السرائرِ، بعلمٍ قديمٍ أزلي لم يزلْ موصوفاً به في أزلِ الآزالِ، لا بعلمٍ مُتجددٍ حاصلٍ في ذاتِه بالحلولِ والانتقالِ، وأنَّه تعالى مريدٌ للكائناتِ مُدبرٌ للحادثاتِ، فلا يجري في المُلكِ والملكوتِ قليلٌ أو كثيرٌ، صغيرٌ أو كبيرٌ، خيرٌ أو شرٌ، نفعٌ أو ضرٌ، إيمانٌ أو كفرٌ، عِرفانٌ أو نُكرٌ، فَوزٌ أو خُسرٌ، زِيادةٌ أو نُقصانٌ، طاعةٌ أو عصيانٌ إلا بإرادتِه وبِقضائِه وقَدَرِه وحِكمتِه ومَشيئتِه، لا يخرجُ عن مشيئتِه لفتةُ ناظرٍ ولا فلتةُ خاطرٍ، فما شاءَ كان وما لمْ يشأْ لمْ يكنْ، فهو المبدىء المعيدُ الفعّالُ لما يريدُ، ولا رادَّ لحكمِه، ولا معقِبَ لقضائِه، ولا مهربَ لعبدٍ عن معصيتِه إلا بتوفيقِه ورحمتِه، ولا قوةَ لهُ على طاعتِه إلا بمحبتِه وإرادتِه لو اجتمعت الإنسُ والجنُ على أنْ يحركوا في العالمِ ذرةً، أو يُسكنُوهَا دونَ إرادتِه ومشيئتِه لَعَجزوا عنه، وإنَّ إرادتَه قائمةٌ بذاتِه في جملةِ صفاتِه، لم يزلْ كذلكَ موصوفاً، مريداً في أزلِه لوجودِ الأشياءِ في أوقاتِها التي قَدّرها، فَوُجِدَتْ في أوقاتِها كما قَدَّرها

وأرادها في أزله من غيرِ تقدُّم ولا تأخرٍ، دبّر الأمورَ كلَّها لا بترتيب أفكارٍ، وتربُصِ زمانٍ، فلذلكَ لم يشغلْهُ شأنٌ عن شأنٍ، وإنّه تعالى سميعٌ بصيرٌ، يَسمعُ ويرى، لا يَعْزُبُ عن سمعِه مسموعٌ وإنْ خفيَ، ولا يغيبُ عنْ رؤيتِه مَرئيٌ وإن دقَّ، ولا يحجبُ سمعَه بُعْدٌ، ولا يدفعُ رؤيتَه ظلامٌ، يرى من غيرِ حَدَقةٍ ولا أجفانٍ، ويسمعُ منْ غيرِ أصمخةٍ وآذانٍ، كما يعلمُ بغيرِ قلبٍ، ويبطُشُ بغيرِ جارحةٍ، ويخلُقُ بغيرِ آلةٍ، إذْ لا تشبهُ صفاته صفاتَ الخلْقِ كما لا تشبهُ ذاتُه ذواتَ الخلْقِ، وإنّه تعالى آمرٌ ناهٍ واعدٌ مُتوعِّدٌ، بكلامٍ أزلي قديمٍ قائمٍ بذاتِه، ولا يشبهُ كلامَ الخلقِ، فليسَ بصوتٍ يحدثُ من انسلالِ هواءٍ، واصطكاكِ أجرامٍ، ولا بحرفٍ ينقطعُ بإطباقِ شَفةٍ أو بتحريكِ لسانٍ، وإنَّ القرآنَ والتوراةَ والإنجيلَ والزبورَ كلامُهُ وكُتبهُ المنزّلةُ على رسلِه، وإنَّ القرآنَ مقروءٌ بالألسنةِ مكتوبٌ في المصَاحفِ محفوظٌ في القلوبِ، وإنّه معَ ذلكَ قديمٌ قائمٌ بذاتِ الله تعالى، لا يقبلُ الانفصالَ والافتراقَ بالانتقالِ إلى القلوبِ والأوراقِ، وإن موسَى عليه السلام سمعَ كلامَ الله بغيرِ صوتٍ ولا حرفٍ، كما يَرىَ الأبرارُ ذاتَ الله تعالى من غيرِ جَوهرٍ ولا عَرَضٍ، وإذا كانتْ له هذهِ الصفاتُ، كان حياً عالماً قادراً مريداً سميعاً بصيراً متكلماً بالحياةِ والعلم والقدرةِ والإرادةِ والسمعِ والبصرِ والكلامِ، لا بمجردِ الذاتِ كما يقوله المعتزلةُ، فإنهم يقولونَ: حيٌ بذاتِه قادرٌ بذاتِه عالمٌ بذاتِه الخ، وَشُبْهَتُهُم التي أوردُوهَا على أهل السنّةِ وهي أنَّ النَصارى كفروا بزيادةِ إلهينِ، فالقائلُ بهذهِ الصفاتِ أي صفاتِ المعاني أو الذاتِ مُعَرَّضونَ للكفرِ لإثباتِ قدماءَ ثمانية. والجوابُ عن هذه الشُبْهةِ أنَّ المبطلَ للتوحيدِ إنما هو تعددُ القدماءِ المتغيرةِ المُنفكّةِ وصفاتُ الذاتِ ليستْ كذلكَ، فهي ليستْ غيرَ الذاتِ ولا مُنفكةٍ، وصفاتُ الذاتِ ليستْ عينَ الذاتِ كالواحدِ من العَشرةِ، لأنّا لو قُلنا: (هي هو) لأدّى إلى أنْ يكُونا إلهينِ، ولو قُلنا غيرَه لكانتْ مُحدَثةٌ، فيكونُ مَحلاً للحوادثِ وهو مُحالٌ، فمذهبُ أهلِ السنة أنَّ صفاتِ الذاتِ زائدةٌ عَليها قائمةٌ بها لازمةٌ لَها لزوماً لا يقبلُ الانفصالَ، فهي دائمةُ الوجودِ مستحيلةُ العَدَمِ، وما نفى المُعتزِلةُ الصفاتِ إلا هُروباً من تَعددِ القُدماءِ، ونحنُ نقولُ القديمُ لذاتِه واحدٌ وهو الذاتُ المُقدَّسةُ، وهذه صفاتٌ وجبتْ للذاتِ لا بالذاتِ، والتّعددُ لا يكونُ في القديمِ لذاتِه.

* * *

٣٣ـ فقدرةٌ بمُمْكِنٍ تعلَّقتْ	بلا تَنَاهِي ما بِهِ تعلَّقتْ

٣٤ـ وَوَحْدةً أوْجِبْ لها وَمِثْلُ ذِي	إرَادَةٌ والعِلْمُ لكِنْ عَمَّ ذِي

٣٥ـ وعَمَّ أيضاً واجِباً والمُمتَنِعْ	ومِثْلُ ذَا كلامُهُ فلنَتَّبِعْ

## [بيان تعلقات الصفات]

لمَّا انتهى من ذِكرِ صفاتِ المعَاني شَرعَ في نشرِ ما لَها مِنَ التَّعلُّقاتِ، والتَّعلقُ لا يكونُ إلا للمعَاني فقط، وهو طلبُ الصفةِ أمراً زائداً على الذاتِ يَصلحُ لَها، وتنقسمُ هذه الصفاتُ مِنْ حيثُ التَّعلُّقِ وعَدَمُهُ ومِن حيثُ خصوصهِ وعُمومُهُ إلى أربعةِ أقسام، القسمُ الأولُ: وهو ما يتعلقُ بالمُمْكِنَاتِ وهوَ القُدرةُ والإرادةُ، لكنْ تعلُّقُ الأولِ تعلقُ إيجادٍ وإعدامٍ، وتَعلُّقُ الثانيةِ تَعلُّقُ تخصيصٍ، والثاني: ما يتعلقُ بالواجباتِ والجائزاتِ والمُستحيلاتِ، وهو العلمُ والكلامُ لكنْ تعلُّقُ دلالةٍ، الثالث: ما يتعلقُ بالموجوداتِ وهو السمعُ والبصرُ والإدراكُ إنْ قيلَ به، والرابع: مَا لا يتعلقُ بشيءٍ وهو الحياةُ، فمعنى كلام المصنفِ أنَّكَ إذا أردتَ معرفةَ تَعلقِ الصِّفاتِ، فالواجبُ عليكَ أنْ تعتقدَ أنَّ القدرةَ الأزليةَ تتعلقُ بكل مُمكنٍ، والمرادُ به ما عدا الواجب والمستحيل، وهو ما لا يجبُ وجودُه ولا عَدَمُهُ، فتعلُّقُها بالمُمكِناتِ من حيثُ الإيجادُ والإعدامُ، ولا تتعلقُ بالواجباتِ والمستحيلاتِ، لأنها إنْ تعلقتْ بإيجادِها لزِمَ تحصيلُ الحاصلِ، أو بإعدامِها لَزِمَ قلبُ الحقائقِ، فَعَدمُ تَعلُّقِ القُدرةِ بالواجبِ والمستحيلِ ليسَ بعجزٍ بخلافِ المُمكنِ، وأمّا قولُ حُجةِ الإسلامِ الغَزالي: ليسَ في الإمكانِ أبدعُ مما كانَ، فَمُستَنكَرٌ عليهِ قَديماً لإيهامِهِ العَجزَ، وهوَ عليهِ مُحَالٌ تَعالى الله عنهُ، وأُجيبَ عنه بأجوبةٍ، منها أنَّ المرادَ بالإمكانِ إمكانُ الخَلائقِ، فليسَ في إمكانِ الخلائقِ تغييرُ ما أرادَ الله تعالى وأَبدعَهُ، ومنها أنَّ المرادَ إمكانُ اللهِ باعتبارِ تعلقِ علمِهِ أزلاً بإيجادِ هَذا العالَمِ على هذا النِّظَامِ، وتَعلقُ القدرةِ التَنجيزي لا يكونُ إلا على طبقِ ما سبقَ به علمُ الله تعالى وإلّا لانقلبَ العلمُ جهلاً، فليسَ مِنَ المُمكنِ إيجادُ عالَمٍ على غيرِ هذا الموجودِ، وأما قولهُ تعالى:

﴿ إِنَّا لَقَـٰدِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾ [المعارج: ٤٠ ـ ٤١].

فباعتبارِ الجوازِ العقلي، ومنها أنَّ المراد ليسَ في الإمكانِ أبدعُ مما كانَ،

جعل الحادث قديماً، لِعدم تعلقِ القُدرةِ بذلك، ومُتعلَّقاتُ القُدرةِ لا تنتهي إلى حدٍ ونهايةٍ، إذ منها نعيمُ الجنان، وهو متجددٌ شيئاً فشيئاً وهكذا، وأما ما وُجِد في الخارجِ منَ المُمكِنِ فهوَ مُتناهٍ، لأنَ كلَّ ما حَصَرهُ الوجودُ مِنَ المُمكِنِ فهو مُتناهٍ لاستحالةِ حوادثَ لا نهايةَ لَها، والدليلُ على ذلك قول الله تعالى:

﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: ٣٩] ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

فلا يخرجُ مِنَ المُمكِنَاتِ عنْ قدرةِ الباري عزَّ وجلَّ، ولو خرجَ مُمكِنٌ عن قدرتِه لَزِمَ منه العجزُ، وإنَّ هذه القدرةَ واحدةٌ، والدليلُ على ذلكَ أنّه يلزمُ على تَعدُدها اجتماعُ مؤثرينِ على أثرٍ واحدٍ، والإرادةُ مِثلُ القُدرةِ في التَّعلقِ وعَدَمِ تناهي متعَلقَاتِها وكونِها واحدةٌ، إلا أنَّ تعلقَها تعلُّقُ تَخصيصٍ كما تقدَّمَ، وتعلقُ القدرةِ الإبرازُ، فتخصصُ الإرادةُ كلَّ مُمكِنٍ ببعضِ ما يجوزُ عليهِ مَنَ المُمكناتِ المُتقابلاتِ الستِ المنظومةِ في قولِ بعضِهم:

المُمكنَـاتُ المُتقـابـلاتُ　　وجـودُنـا والعَـدَمُ الصفـاتُ
أزمنـةٌ أمكنَـةٌ جِهـاتٌ　　كَـذَا المقـاديـرُ روى الثقـاتُ

والأدلةُ السمعيةُ كقولِه تعالى:

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]

والمرادُ بِهِ أنّه متى أرادَ الشيءَ برزَ، فَهو كنايةٌ عنْ سُرعَةِ وجودِه لا بلفظِ كُنْ، والعلمُ مثلُ القُدرَةِ أيضاً في وُجوبِ تَعلقِهِ بالمُمكِنَاتِ ووجوبِ عَدمِ تَناهي مُتَعلقَاتِه ووُجوبِ وَحْدَتِه، ثم استدركَ على وجوبِ تَعلقِ العلمِ بجميعِ المُمكِنَاتِ بقولِه(لكنْ)، العلمُ لا يختصُ تعلقُه بالممكِنَاتِ فقط كما في القدرةِ والإرادةِ، بل(عمَّ ذي) أي الممكناتِ التي أشعرَ بها عمومُ قولِه(بمُمكِنٍ)، فشارَكَ القدرةَ والإرادَةَ، وزادَ عليهما بأنْ عمَّ أيضاً واجباً عقلياً كذاتِه تعالى وصفاتِه، وعمَّ أيضاً الممتنعَ العقلي كشريكِه تعالى واتخاذِه ولداً أو صاحبةً، يعني أنّه يجبُ شرعاً أنْ يعتقدَ أنَّ علمَه تعالى غيرُ مُتناهٍ من حيثُ تعلُقُهُ، إما بمعنى أنّه لا ينقطعُ، وإما أنه لا يصيرُ بحيثُ لا يتعلقُ بالمعلومِ، فإنّه يحيطُ بما هوَ غيرُ مُتناهٍ كالأعدادِ والأشكالِ، ونعيمِ الجنانِ، فهو شامِلٌ لجميعِ المُتصَوَّراتِ،

واجبة كذاته وصفاته، ومستحيلة كشريك له تعالى، وممكنة كالعالَم بأسره، الجزئياتُ من ذلكَ والكلياتُ، ومع هذا واحدٌ لا تَعدُّدَ فيه ولا تكثُّرَ، وإن تعددتْ معلوماتُه وتكثَّرتْ، أما وجوبُ عمومِ تَعلُّقِه سمعاً فَكَمِثلِ قوله تعالى:

﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٨٢] ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ [الرعد: ٩]

ومعنى تَعلقِ علمِه تَعالى بالمستحيلِ. علمُه تعالى باستحالتِه.

وَلِيُعلَمْ أيضاً أنَّ كلامَهُ تعالى مِثلُ العلم في أحكامِهِ الثلاثةِ، في وجوبِ عُمومِ تَعلُّقِهِ بالواجبِ والمُمتَنعِ والجائِزِ، وَوُجوبِ وَحْدَتِه وعَدَمِ تناهي مُتعلقاتِهِ لامتناعِ التَّخصيصِ في صفاتِهِ تَعالى.

* * *

٣٦ـ وكُلُّ مَوْجُودٍ أَنِطْ للِسَّمْعِ بهْ    كَذَا البَصَرْ إدْرَاكُهُ إنْ قِيلَ بِهْ
٣٧ـ وَغَيْرُ عِلْمٍ هـذهِ كَمَـا ثَبَـتْ    ثُـمَّ الحَيَـاةُ مَـا بِشَـيْ تَعَلَّقَتْ

تَقدَّم أنَّ مِنْ جُملَةِ صِفاتِ المعَاني الثابتةِ للربِّ تَعالى السمعُ والبصرُ والإدراكُ على القولِ بِهِ، وأنَّ السمعَ والبصرَ والإدراكَ يتعلقُ بالموجوداتِ وإنَّ اسمَ الإشارةِ في هذِهِ راجعٌ إلى الصِّفاتِ الأربعِ، وهيَ الكلامُ والسمعُ والبصرُ والإدراكُ، فهي مغايرةٌ لِلعلمِ في الحقيقةِ، وكَذَا بعضُها مع بعضٍ، كما ثَبَتَ عند القومِ بالأدلةِ السَّمعيةِ، لأنَّ هذهِ الصفاتِ إنما ثَبتتْ بالسمعِ، والمدلولُ لغةً لِكلِّ وَاحدٍ غيرُ المدلُولِ لِلأخرى، فوجبَ حملُ مَا وردَ على ظاهرِهِ حتى يثبتَ خِلافُهُ، واتحادُ المُتعلَقِ لا يوجبُ اتحادَ الحقيقةِ، وأنَّ صفةَ الحياةِ الأزليةِ لا تتعلقُ بشيءٍ لا موجودٍ ولا معلومٍ، لأنَّها صفةٌ أزليةٌ تصحيحٌ لمنْ قامتْ بِهِ أنْ يتصفَ بصفاتِ المعَاني والمعنويةِ، فهي شرطٌ في الجميعِ، ولا يقتضي أمراً زائداً غيرَ حصولِ معنَاها لِمنْ قامتْ بِهِ، والدليلُ عليها ثبوتُ تِلكَ الصفاتِ، فحيثُ ثَبتتْ هذِهِ الصفاتُ دلَّ ذلكَ على ثُبوتِها.

* * *

٣٨- وَعِنْدَنَا أَسْمَاؤُهُ الْعَظِيمَه كَذَا صِفَاتُ ذَاتِهِ قَدِيمَه
٣٩- وَاخْتِيرَ أَنَّ اسْمَاهُ تَوْقِيفِيَّه كَذَا الصِّفَاتُ فَاحْفَظِ السَّمْعِيَّه

[أسماء الله تعالى وصفاته :]

مَذهبُ أهل السُّنةِ والجماعةِ في أسمائِهِ تعالى وصفاتِهِ قديمةٌ، فليست مسبوقةً بِعَدَمٍ، لأنَّها لو لَمْ تكنْ قديمةً لكانتْ حادثةً فيلزمُ قيامُ الحوادثِ بذاتِه تَعالى، ويلزمُ كونُه تَعالى عَارياً عنها في الأزلِ، وخرجَ بإضافةِ الصفاتِ إلى الذاتِ الصفاتُ السلبيةُ والفعليةُ، فليسَ شيءٌ منهما بقديم عندَ الأشاعرة، ولا قائمٌ بذاتِهِ تَعَالى، ثم إنَّ أسماءَهُ تعالى وصفاتِهِ توقيفيةٌ، أيْ لا يجوزُ لأحدٍ أنْ يثبتَ لله تَعَالى صِفةً أو يُسَمِّيهِ سبحانَهُ باسمٍ إلاّ أن يَرِدَ عنِ اللهِ تعالى أو رَسولِهِ ما يُبيحُ إطلاقَ هذا الاسم أو اتصافَهُ بهذه الصِّفةِ، وَلْيُعلَمْ أَنَّ كلاً من الاسم والصفةِ إما أنْ تشتملَ على كمالٍ مَحْضٍ لا يَشوبُه نَقصٌ ولا تشبيهٌ، وإما أنْ يَدلَّ على كمالٍ مع شائبةِ تشبيهٍ، وعلى كلٍّ إنْ لم يردْ إذنٌ عن الشارعِ في إطلاقِه، فلا يجوز إطلاقُه فإنْ وردَ الإذنُ أطلقناهُ عليه، ونَفَيْنَا عنهُ ما خالَطَهُ من شائبةِ التَّشبيهِ، وأَوَّلناهُ تَأويلاً يَليقُ بِهِ تَعَالى، مِثالُ ذلكَ الصَّبورُ والشَّكورُ والحليمُ. فالصَّبورُ يُوهِمُ وصولَ مَشقةٍ إليهِ تَعالى بحسبِ وضعِ اللُّغةِ، لكنه يُطلَقُ ويُفَسرُ بمعنى يليقُ بِهِ تَعالى، فالصبورُ على ذلكَ هو الذي لاَ يُعَجِّلُ بعقوبةِ مَنْ عَصَاهُ، والشَّكورُ يُوهِمُ وُصولَ إحسانٍ إليه مِنْ خَلْقِهِ، فَيُفَسَرُ في حقِهِ سبحانه بمعنى يليقُ بِهِ، وهو الذي يُجازي على قليلِ الطاعاتِ بِكَثيرِ الدَّرجاتِ، ويُعطي بِسببِ العَمَلِ في الدُّنيا وهيَ أيامٌ معدوداتٌ نِعماً في الآخرةِ غيرَ محدودةٍ، والحليمُ يُوهِمُ وصولَ أذى إليه تعالى، فَيُفَسَرُ الحليمُ في حقِهِ بالذي لا يُعَجِّلُ بعقوبةِ مَنْ عَصَاهُ، وهَلُمَّ جَرا، ولا يَرِدُ على ذلكَ قولهُ ﷺ: «مَنْ آذى مُسلماً فقد آذاني ومَنْ آذاني فَقَدْ آذى الله»(١) لأنَّ معناهُ أنَّه فَعلَ معهُ فِعلَ المُؤذِي، وتَقدَّمَ مَعنا أنَّ أسماءَهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ أيضاً توقيفيةٌ.

* * *



---

(١) عزاه في مجمع الزوائد (٢/١٧٩) إلى الطبراني في الأوسط والصغير وفيه القاسم ابن الطيب قال ابن حبان كان يخطىء كثيراً فاستحق الترك.

٤٠ـ وَكُـلُّ نَـصٍّ أَوْهَـمَ التَّشْبِيهَـا أَوِّلْـهُ أَوْ فَـوِّضْ وَرُمْ تَنْـزِيهَـا

[المتشابه من الآيات والأحاديث:]

في القرآنِ الكريم والسنةِ الصحيحةِ ألفاظٌ ظاهرُهَا التشبيهُ باعتبارِ دَلالَتِها، فمنها في الجهةِ: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل: ٥٠] وفي الجسميَّةِ: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ ﴾ [البقرة: ٢١٠] ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ ﴾ [الفجر: ٢٢].

وحديثُ الصَّحيحين: «ينزلُ ربُّنا في كل ليلةٍ إلى سَماءِ الدُنيا»(١). وفي الصورةِ: «إنَّ الله خلقَ آدمَ على صُورتِهِ»(٢)

وفي الجَوارِحِ: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ [الرحمن: ٢٧] ﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح: ١٠]

وما أشبهَ ذلكَ من المتشابهاتِ، فَللعلماءِ في ذلك مَذهبانِ. مذهبُ الخلَفِ. ومَذْهبُ السَّلَفِ. فمذهبُ الخَلَفِ التَّأويلُ، وهو حملُ اللَّفظِ على خلافِ ظاهِرِهِ معَ بيانِ المعنى المُرادِ، ومَذْهبُ السَّلفِ التفويضُ، وهو صَرفُ اللَّفظِ عن ظاهِرِهِ مع عَدَمِ التَّعرُضِ لبيانِ المعنى المُرادِ مِنهُ بَلْ يُترَكُ ويُفَوَّضُ أمْرهُ إلى الله تَعالى بأنْ يقولَ: الله أعلمُ بِمُرادِهِ. والمُرادُ مِنَ السَّلفِ مَنْ كانوا مِنْ أهلِ العِلم قَبلَ نهايةِ القرنِ الثالثِ الهجري، وهم الصحابةُ والتابعونَ وتَابِعوهم والأئمةُ الأربعةُ وكِبارُ علماءِ مَذاهِبِهِم.

وعلى طريقةِ الخَلَفِ تُفسَّرُ الفَوقيَّةُ بالتَّعالي في العَظَمةِ دونَ المكانِ، والإتيانُ بإتيانِ رَسولِ عذابِهِ أوْ رحمتِهِ وثوابِهِ، وكَذا النزولُ، وحديثُ إنَّ الله خَلقَ آدَمَ على صُورتِه فالضميرُ يرجعُ إلى الأخِ المُصَرَّحِ بِهِ في الطريقِ الأخرى التي رَواهُ مسلمُ بِلفظِ:

«إذا قاتلَ أحدُكم أخاهُ فليجتنبْ الوجهَ فإنَّ الله خَلقَ آدمَ على صورتِهِ»(٣)

---

(١) رواه البخاري (١٠٩٤) ومسلم (٧٥٨) ومالك (١/ ٢١٤) والترمذي (٣٤٩٣) وأبو داود (١٣١٥).

(٢) رواه البخاري في الاستئذان. باب بدء السلام (٥٨٧٣).

(٣) رواه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب النهي عن ضرب الوجه الحديث (٢٦١٢).

وأراد بالصورةِ الصفة، ويُفسِّرُ الوجهُ بالذاتِ، واليدُ بالقُدرةِ، فظهرَ مما تقرر اتفاقُ السَّلفِ والخَلفِ على تنزيهِهِ تَعالى عن المعنَى المُحالِ الذي دلَّ عليهِ ذلكَ الظاهرُ، واتفاقُهم مِنْ تأويلِهِ، وإخراجُه عن ظَاهِرِهِ المُحالِ، وعلى الإيمانِ بأنَّهُ مِنْ عِندِ اللهِ تَعالَى جاءَ بِهِ رسولُ اللهِ ﷺ لكنِ اختلفوا في تعيينِ مَحْمَلٍ لهُ معنًى صحيحٍ وعَدَمِ تَعيينِهِ بناءً على أنَّ الوَقْفَ على قولِهِ تَعالى:

﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧] أو على قولِهِ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]

* * *

٤١- وَنَزِّهِ القُرآنَ أَيْ كَلامَهْ | عَنِ الحُدوثِ واحْذَرِ انتِقَامَهْ
٤٢- فَكُلُّ نَصٍّ للحُدوثِ دَلَّا | احْمِلْ على اللَّفظِ الَّذي قَدْ دَلَّا

## [فتنة خَلْقِ القرآن:]

إنَّ مذهبَ أهلِ السُّنةِ أنَّ القُرآنَ وهو كلامُ اللهِ يُطلَقُ على مَعنَيينِ، على الكلامِ النَّفسي القديمِ القائمِ بذاتِهِ تعالى وليسَ بحرفٍ وصوتٍ، وعلى اللفظِ الذي نَعرِفهُ، فالأولُ ليسَ بمخلوقٍ ولا حادثٍ، والثاني هوَ مخلوقٌ حادثٌ. لكنْ يمتنعُ هذا الإطلاقُ إلَّا في مقامِ التعليمِ للإيهامِ ولهذا امتنعتْ الأئمةُ من القولِ بخلقِ القرآنِ، وقد وقعَ في ذلكَ امتحانٌ كبيرٌ لِخلقٍ كثيرينَ من أهلِ السُّنةِ، فخَرجَ البُخاري فاراً وقال: اللهمَّ اقبضني إليكَ غيرَ مفتونٍ، فماتَ بعدَ أربعةِ أيامٍ. وسُجِنَ عيسى بنُ دينارٍ عشرينَ سنةً. وسُئِلَ الشَّعبي فقالَ: أما التوراةُ والإنجيلُ والزَّبورُ والفُرقانُ فهذهِ الأربعةُ حَادثةٌ وأشارَ إلى أصابعِه، فكانتْ سببَ نجاتِهِ، واشتهرتْ عن الشَّافعي أيضاً، وحُبِسَ الإمامُ أحمدُ وضُرِبَ بالسِّياطِ حتى غُشِيَ عليهِ، ويُذكَرُ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ للإمامِ الشَّافعي في المنَامِ: بَشِّرْ أحمدَ بالجَنةِ على بلوى تُصيبُه في خَلْقِ القُرآنِ، فأرسلَ لهُ كِتاباً ببغدادَ، فلمَّا قرأهُ بَكى ودفعَ للرسولِ قميصَهُ الذي يلي جسدَهُ وكانَ عليه قميصانِ. وقال المعتزلةُ: إن القرآن مخلوقٌ وتَمسكوا بظواهِرِ النصوصِ الدَّالةِ على الحدُوثِ مثلِ قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾

[الحجر: ٩] ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦].

لكنَّ المُرادَ بهذا كله هوَ اللفظُ الدالُّ على المعنى القديم بذاتِهِ الذي خلقَهُ الله في اللوحِ المحفوظِ، ثُمَّ أنزلَهُ في صحائفَ إلى سماءِ الدُّنيا في مَحلٍ يُقالُ لهُ بَيتُ العِزةِ، في ليلةِ القَدرِ، ثُمَّ أنزلَهُ على النبي ﷺ مُفرَّقاً بِحسَبِ الوقائعِ، وَوصفَهُ بالحدُوثِ في قولـه تعالـى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢].

فهوَ بِاعتبارِ نُزولِهِ لا باعتبارِ نَفْسِهِ، ومنَ المعلوم أنَّ نزولَه كانَ يتكررُ بحسبِ الحاجةِ، ولقدْ قُضِيَ على فتنةِ القولِ بخلقِ القرآنِ في آخرِ عهدِ العباسيينَ في خلافةِ الواثقِ باللهِ. وزالَ عن الناس ضَررُها، حَكى المُهتدي بالله أحدُ الخُلفاءِ العباسيينَ فقال: ما زِلتُ أقولُ إنَّ القرآنَ مخلوقٌ صَدْراً من خِلافَةِ الواثِقِ. حتى أَقْدَمَ علينا أحمدُ بن أبي دُؤادٍ شيخاً من أهل الشَّامِ. منْ أهلِ اذنة. فأُدخِلَ الشيخُ على الواثقِ مُقيداً. وهو ممتلىءُ الوجهِ تامُّ القامةِ حَسَنُ الشَّيْبةِ. فرأيتُ الواثِقَ قد استحى منه ورقَّ له. فما زالَ يُدنيهِ ويُقربهُ حتى قَرُبَ مِنهُ فَسلَّمَ الشيخُ فأحسَنَ السلامَ، ودعا فأبلَغَ الدعاءَ وأوجزَ. فقالَ لهُ الواثقُ: اجلسْ ثُمَّ قال له: يا شيخُ ناظر ابنَ أبي دُؤادٍ على ما يُناظِرُكَ عليهِ، فقالَ الشيخُ: يا أميرَ المؤمنينَ، ابنُ أبي دُؤادٍ يَقلُّ ويَضيقُ، أو يَضعُفُ عنِ المُناظرةِ[1] فَغضب الواثقُ، وعادَ مكانُ إكرامِه له غَضباً عليهِ، فقالَ: أبو عبدِ الله بنُ أبي دُؤادٍ يَضيقُ أو يقلُ ويضعفُ عنْ مناظرتكَ أنتَ؟! فقالَ لهُ الشيخُ: هوِّنْ عليكَ يا أميرَ المؤمنينَ مَا بكَ؟ ائذنْ لي في مناظرتِهِ فقالَ الواثقُ: ما دعوتُكَ إلا للمناظَرةِ.

فقال الشيخُ: يا أحمدُ بنُ أبي دؤاد إلى ما دعوتَ الناسَ ودعَوْتَني إليهِ فقالَ: إلى أنْ تقولَ: القرآنُ مخلوقٌ، لأنَّ كلَّ شيء دونَ الله مخلوقٌ فقالَ الشيخ: يا أميرَ المؤمنينَ إنْ رأيتَ أنْ تحفظَ عليَّ ما أقولُ وعليه ما يقولُ؟ قال: أفعلُ فقال الشيخ: يا أحمدُ أخبرني عنْ مقالتِكَ هذه أواجبةٌ داخلةٌ في عَقدِ الدِّينِ

---

(١) المناظرة: هي المحاورة بين فريقين حول موضوع، لكل منهما وجهة نظر فيه، تخالف وجهة نظر الفريق الآخر، فهو يحاول إثبات وجهة نظره وإبطال وجهة نظر خصمه، مع رغبته الصادقة بظهور الحق والاعتراف به لدى ظهوره.

فلا يكون الدين كاملا حتى يقال فيه ما قلت؟ قال: نعم.

قالَ الشيخُ: يا أحمدُ. أخبرني عن رسولِ الله ﷺ حين بعثهُ الله عزَّ وجلَّ إلى عبادِه هل أسرَّ رسولُ الله ﷺ شيئاً مما أمرهُ اللهُ بهِ عزَّ وجلَّ في دينِه؟ قال: لا. قال الشيخ: فدعا رسولُ الله ﷺ الأمةَ إلى مَقالتِكَ هذه؟ فَسكتَ ابنُ أبي دُؤاد. فقالَ الشيخُ: تكلمْ، فَسكتَ؛ فالتفتَ إلى الواثقِ بالله فقال: يا أميرَ المؤمنين: واحدةٌ فقالَ الواثقُ واحدةٌ.

فقالَ الشيخُ: يا أحمدُ، أخبرني عن الله عزَّ وجلَّ، حينَ أنزلَ القرآنَ على الرسولِ ﷺ فقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

[أ] كان الله عز وجل الصادقَ في إكمالِ دينِه أمْ أنتَ الصادقُ في نُقصانِه فلا يكونُ الدينُ كاملاً حتى يُقَالَ فيه بمقالتِكَ هذه؟ فسكتَ ابنُ أبي دؤاد فقال الشيخُ: أَجِبْ يا أحمدُ، فلمْ يجبْهُ. فقالَ الشيخُ: يا أمير المؤمنينَ اثنتانِ. فقال الواثقُ: اثنتان. فقالَ الشيخُ: أخبرني عن مقالتِكَ هذه أَعَلِمَها رسولُ الله ﷺ أمْ جَهِلَها؟ فقال ابنُ أبي دُؤاد عَلِمَها. قالَ الشيخُ: فَدعا إليها الناسَ؟ فسكت ابنُ أبي دؤاد. فقال الشيخ: يا أميرَ المؤمنينَ ثلاثٌ فقال الواثق: ثلاثٌ.

فقالَ الشيخُ: يا أحمدُ فاتَّسعَ لرسول الله ﷺ إذْ عَلِمَها كما زَعمتَ ولمْ يطالبْ أمتَه بها؟ قال: نعم. قالَ الشيخُ: واتَّسعَ لأبي بكرٍ رضيَ الله عنهُ وعمرَ بنِ الخطابِ وعثمانَ بن عفانٍ وعليِّ بن أبي طالبٍ رضيَ الله عنهم؟ فقال ابنُ أبي دُؤادٍ: نعم. فأعرضَ الشيخُ عنهُ وأقبلَ على الواثقِ فقالَ لهُ: يا أميرَ المؤمنينَ قد قَدَّمتُ لكَ القولَ أنَّ أحمدَ يَضيقُ أو يقلُّ أو يضعفُ عن المناظرةِ. يا أميرَ المؤمنين إنْ لم يتسعْ لكَ من الإمساكِ عن هذهِ المقالةِ، ما اتسعَ لرسولِ الله ﷺ ولأصحابِهِ أبي بكرٍ وعمرَ وعثمانَ وعليٍّ رضيَ الله عنهم فلا وَسَّعَ الله على مَنْ لم يتسعْ له ما اتَّسَعَ لهم مِنْ ذلكَ.

فقالَ الواثقُ: إنْ لمْ يتسعْ لنا مِنَ الإمساكِ عن هذهِ المقالةِ ما اتسَعَ لرسولِ الله ﷺ ولأبي بكرٍ وعمرَ وعثمانَ وعليٍّ رضيَ الله عنهم فلا وسَّعَ الله علينا، اقطَعوا قيدَ الشيخِ، فلمّا قَطعوهُ ضربَ الشيخُ بيدِه إلى القيدِ ليأخذَهُ

فجذبَهُ الجلادُ عليه، فقالَ الواثقُ: لِمَ جاذبتَ عليهِ؟ فقالَ الشيخُ: لأني نويتُ أنْ أتقدَّمَ إلى مَنْ أُوصي إليهِ إذا مِتُ أنْ يجعلَهُ بَيني وبينَ كَفَني، أُخاصِمُ هذا الظالِمَ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ يومَ القيامةِ، وأقولُ: ياربِ: سلْ عبدَكَ هَذا لِمَ قيَّدَني وروَّعَ أهلي وَوَلدي وإخواني بِلا حَقٍ أوجبَ ذلكَ عَليّ، وبكى الواثقُ فَبكينَا. ثُمَّ سألَهُ الواثقُ أنْ يجعلَهُ في حِلٍ وسَعَةٍ مما قالَ، فقالَ الشيخُ: يا أميرَ المؤمنينَ لقد جعلتُكَ في حِلٍ وسَعَةٍ مِنْ أولِ يومِ إكراماً لرسولِ اللهِ ﷺ إذْ كنتَ رَجلاً من أهلِهِ.

فقالَ الواثقُ: لي إليكَ حاجةٌ. فقالَ الشيخُ: إنْ كانتْ مُمكِنةً فعلتُ، فقالَ الواثقُ: تقيمُ فينا فينتفعُ بكَ فتيانُنا، فقالَ الشيخُ: يا أميرَ المؤمنينَ إنَّ ردَّكَ إيايَ إلى الموضعِ الذي أخرجَني منهُ هذا الظالمُ أنفعُ لكَ مِنْ مُقامي عندكَ. وأخبركَ بما في ذَلكَ. أصيرُ إلى أهلي وولدي فأكفُّ دُعاهم عَليكَ فقد خلَفتهُم على ذلكَ. فقالَ له الواثقُ فتَقبلُ منا ما تستعينُ بهِ على دَهركَ، فقالَ الشيخُ: يا أميرَ المؤمنينَ لا تحلُّ لي. أنا عنها غنيٌّ وذُو مِرةٍ سويٌّ، قالَ: فتسألُ حاجتَكَ. قال: أوَ تَقضيها يا أميرَ المؤمنين، قالَ: نعم. قال: أنْ تُخلي سَبيلي إلى الثَغرِ السّاعة. وتأذنَ لي. قالَ: أذنتُ لكَ: فَسلمَّ عليهِ الشيخُ وخرجَ.

وَحدَّثَ يحيى بن يوسفَ الزمي فقالَ: بَينَا أَنا قائِلٌ في بعضِ بيوتِ خاناتِ مَرو فإذا أنا بِهولٍ عظيمٍ قد دَخلَ عليّ، فقلتُ: مَنْ أنتَ؟ قال وتهيأتُ لِقتالِهِ فقال: أنا أبو مرةَ. فقلتُ لا حيَّاكَ اللهُ. فقال: لو علمتُ أنكَ في هذا البيتِ لم أدخلْ وكنتُ أنزلُ بيتاً آخرَ، وكانَ هذا مَنزلي حينَ آتي خُراسَان فقلتُ: مِنْ أينَ أتيتَ؟ قال: مِن العِراقِ. قلت: وما عَملتَ في العِراق، قالَ: خَلَفتُ فيها خليفةً، قلت: ومنْ هُو؟ قال بِشرُ المرَيسي. قلتُ: وإلى مَا يَدعو؟ قال: إلى خلْقِ القرآنِ. قال: وآتي خُراسَانَ فأخلفَ بها خليفةً أيضاً. قُلتُ: إيش تقولُ في القرآنِ أنتَ؟ قال: أنا وإنْ كنتُ شَيطاناً رَجيماً أقولُ: القرآنَ كلامُ اللهِ عزَّ وجلَّ غيرَ مخلوقٍ.

وحدَّثَ أبو بكرٍ الوَاسطي وأبو مُوسَى مُحمدُ بنُ المثنى قالا: «كُنَا نقرأ على شيخ ضَريرٍ بالبَصرةِ. فلما ظهرَ ببغدادَ القولُ بخلقِ القرآنِ قال الشيخُ: إنْ لم يكنْ القرآنُ مخلوقاً مَحا اللهُ القرآنَ مِنْ صَدرِي. فلمّا سَمِعنَا هذا من قولِهِ تركناهُ وانصرفنَا عنهُ، فلمّا كانَ بعدَ مدةٍ لَقيناهُ فقلنا: يا فلانُ ما فعلَ القرآنُ؟ قال:

ما بقيَ في صدري منه شيءٌ، فقلنا له: ولا قل هُوَ الله أحد، قال: ولا قل هُوَ الله أحد، إلا أنْ أسمَعَها مِن غيري يقرؤُهَا. انتهى من كتابِ الشريعةِ للإمامِ أبي بكرِ محمدِ بن الحُسين الآجرّي المُتَوَفَّى سنة ستينَ وثلاثمائةِ هجري.

* * *

٤٣- وَيَستَحِيلُ ضِدُّ ذِي الصِّفَاتِ ... في حَقِّهِ كَالكَوْنِ في الجِهَاتِ

٤٤- وَجَائِزٌ في حَقِّهِ ما أَمْكَنَا ... إِيجَاداً أَعْدَاماً كَرَزْقِهِ الغِنى

## [ما يستحيل عليه تعالى من أضداد الصفات الواجبة]

تقدم أنَّ الله تباركَ وتعالى موصوفٌ بالصفاتِ المتقدمةِ وهي النفسيةُ والسلبيةُ والمعانِي والمعنويةُ، ويستحيل عليه تعالى ضدُها، العَدَمُ وهو ضدُ الوجودِ والحدوثُ وهو ضدُ القِدَم،والفناءُ ضدُ البقاءِ، والمماثَلةُ للحوادثِ ضدُ المخالفةِ لَهَا بأنْ يكونَ جِرْماً تأخذُ ذاتُه العليّةُ قَدْراً من المُتَحَقَقِ أو المُتوَهَم، أو يكونَ عَرَضاً يقومُ بالجِرم؛ أو يكونَ في جهةٍ للجِرمِ، أولَهُ هو جهةٌ، أو يتقيدُ بمكانٍ أو زمانٍ، أو تتصفُ ذاتهُ المقدسةُ بالحوادثِ أو بالصغرِ أو بالكبرِ، أويتصفُ بالأغراضِ في الأفعالِ أو الأحكامِ، وأنْ لا يكونَ تعالى قائماً بذاتِه بأنْ يكونَ صفةً تقومُ بمَحلٍ أو تحتاجُ إلى مُخَصِصٍ. وأنْ لا يكونَ واحداً بأنْ يكونَ مُركباً في ذاتِهِ أو يكونَ لهُ مُماثِلٌ في ذاتِهِ أو صفاتِهِ. أو يكونَ معهُ في الوجودِ مؤثِرٌ في فِعلٍ من الأفعالِ. أو يكونَ عاجزاً عن مُمكِنٍ مَا. أو أنْ يوجدَ شيءٌ من العالَمِ معَ كراهتِهِ لوجودِهِ. أو معَ الذُهولِ أو الغَفْلةِ أو التَّعليلِ. أو الطَّبعِ ويستحيلُ عليه الجهلُ وما في معناهُ بمعلومٍ ما، والموتُ، والبكمُ والصَّممُ والعمَى. وأنْ يكونَ في جهةٍ من الجهاتِ الست وهي الفوق. والتحتُ. واليمينُ. والشمالُ. والوراءُ. والأمامُ. وإذا عَلمنا ما يجبُ لله تعالى وما يستحيلُ.



## [ما يجوز في حقه تعالى:]

بقيَ علينا أنْ نعلمَ ما يجوزُ في حقِّهِ تعالى عقلاً، والجائزُ العقليُ: ما يصحُ في نظرِ العقلِ وجودُه وعَدَمُه كما أنَّ المستحيلَ مالا يُتَصوَّرُ في العقلِ ثبوتُه.

فيجوزُ في حقه تعالى فِعلُ كلِّ مُمكنٍ وتركُهُ. فعبَّر المصنفُ عن الفِعلِ بقولِهِ إيجاداً وعن التَّرك بقولِهِ إعداماً. ومَثَّلَ لبعضِ جزئياتِ الجائزِ فعلُه وتركُه في حقِّه سبحانَه وتعالى بقولِهِ: (كرزقِه الغنيَّ) أي كرزقِ الله العبدَ الغَنيَّ. ومثالُ التركِ عدمُ رزقِ الله العبدَ إياهُ.

* * *

٤٥- فَخَالِقٌ لِعَبْدِهِ وما عَمِلْ مُوَفِّقٌ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَصِلْ
٤٦- وَخَاذِلٌ لِمَنْ أَرَادَ بُعْدَهُ وَمُنْجِزٌ لِمَنْ أَرَادَ وَعْدَهُ

[مسألة خلق الأفعال:]

إذا ثبتَ أنَّ كلَّ مُمكِنٍ سواءٌ كانَ خيراً أو شراً داخلٌ تحتَ قُدرةِ الله تعالى، فاعلمْ أنَّ الله خالقٌ لعبيدِهِ وما عَمِلوهُ من خيرٍ أو شرٍ اختياراً أو اضطراراً، وليسَ للعبدِ إلا مجردُ الميلِ حالةَ الاختيار، ولذا طُولبَ بالتوبة والنَّدم واستحقَ التَّعزيرَ والحُدودَ والثوابَ والعِقابَ، وهذا هو الكسبُ الآتي خِلافاً للمعتزلةِ القائلينَ إنَّ العبدَ يخلقُ أفعالَ نفسهِ الاختياريةِ، ويُرَدُّ عليهم بأنَّه لا يَخلو إمّا أنْ يكونَ حصولُ هذا الفعلِ بقدرةِ الله وقدرةِ العبدِ معاً، فإن قالوا بقدرة الله، قلنا لَزِم اجتماعُ مُؤثرينِ علىٰ واحدٍ، وإنْ قالوا بقدرةِ العبدِ فقط، قلنا لَزِمَ وقوعُ شيءٍ في الكونِ قَهراً عنِ الله تعالى، ولَزِمَ أنْ لا يكونَ سبحانَه وتعالى واحداً في الأفعال وهو كفرٌ، ويُرَدُّ عليهم أيضاً بأنه لو كانَ الفعلُ للعبدِ لكانَ عالِماً بحركاتِ نفسه وسَكناتِها مدى الأيام، فَجهلُه بها دليلٌ لِعجزه، وأمّا قولُهم إنَّه يلزمُ على كلام أهلِ السُّنة أنَّ تعذيبَ الله للعصاةِ ظلمٌ، فَباطِلٌ لأنَّ الظلمَ هو التصرفُ في ملكِ الغيرِ، وقد مرتْ محاورةُ القاضي عبد الجبارِ مع أبي اسحٰقَ الإسفرايني ومحاورةُ إبليسَ للشّافعي رحمَهُ الله وهَذَا يُسَمَّى عندَ العَارِفين بِوحْدةِ الأفعالِ بمعنى أنَّ العارفَ لا يشهدُ فِعلاً لِسوَى الله تعالى، وقد قالَ العارفُ في ذلكَ:

وَلِي في خَيالِ الظِّلِ أكبرُ عِبرةٍ لِمنْ كانَ في بحرِ الحقيقةِ رَاقي
شخوصٌ وأشكالٌ تمرُ وتَنقضي وتَفنىٰ جميعاً والمُحرِكُ باقي

وقالَ بعضُ العارفينَ في هذا المعنَى:

وما الخلقُ في التمثالِ إلا كثلجةٍ — لها صورةٌ لكن تبدَّت عن الماءِ
فذو الكشفِ لم يشهدْ سوى الماءِ وَحْده — تبدى بوصفِ الثَّلج مِن غيرِ إخفاءِ
ومَنْ حجبتهُ صُورةُ الثَّلجِ جاهلٌ — تغطَّى عليه الأمرُ مِنْ لَمعِ أضواءِ

ومع أنَّ الفِعلَ خيرَه وشرَه مِنَ الله تَعالى. فالأدبُ أن لا يُنسبَ له تَعالى إلا الحُسْنُ. فيُنسبُ الخيرُ لله، والشَّرُّ للنَّفس كَسْباً وإنْ كانَ منسوباً لله إيجاداً. قالَ تَعالى: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَۚ ﴾ [النساء: ٧٩]

أي كَسْباً كِما يُفسرُ قولُه تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [الشورى: ٣٠]

وأما قولهُ تَعالى: ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۖ ﴾ [النساء: ٧٨]

فَرُجوعٌ لِلحقيقةِ. وانظرْ إلى أدبِ الخَضرِ عليهِ السلامُ حيثُ قال: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا ﴾ [الكهف: ٨٢] في نسبة الخير لله تعالى وقال: ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ [الكهف: ٧٩] في نِسبةِ العَتبِ لنفسه، وتأملْ قولَ ابراهيمَ الخليلِ عليهِ السلامُ: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الشعراء: ٨٠] فلَمْ يقلْ أمرضَني تأدباً، وإلاّ فالكلُ مِنَ الله تعالى، وقولَ أيوبَ: ﴿ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

فَعلينَا أنْ نعتقدَ أنَّ الله تعالَى هو الخالقُ لِقُدرَةِ الطاعةِ فيمنْ أرادَ توفيقَه والوصولَ بهِ إلى رضوانِه ومحَبتِه. كما أنَّه خالقٌ لِقُدرَةِ المَعصيةِ فيمَنْ أرادَ خذلانَهُ وبُعْدَهُ عنْ رضاهُ ومحبتِه. قال الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٦] وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الرعد: ١٦] وقال تعالى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢] وقال تعالى: ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۖ ﴾ [النساء: ٧٨] فالمنفردُ بالخَلْقِ والإيجادِ والإشقاءِ والإسعادِ والهُدَى والإضلالِ إنمَّا هو الله تعالى. قالَ جلَّ وعَلا: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُۚ ﴾ [القصص: ٥٦] وقالَ أيضاً: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وعَلينَا أنْ نعتقدَ أنَّ الله يُعطي مَنْ أرادَ بِه خيراً وَعْدَهُ الذي سبقتْ إرادتُهُ في

الأزلِ. إذِ المرادُ لا يَتخلَّفُ عن الإرادةِ. لأنَّه لو تخلَّفَ إعطاءُ الموعودِ بهِ لزِمَ الكذبُ والسَّفهُ والخُلْفُ والتَّبديلُ في القولِ وهو خِلافُ قولِهِ تعالى: ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ ﴾ [ق: ٢٩] فالثوابُ فضلٌ مِنَ الله وَعدَ بهِ المطيعَ فيَفي لَهُ بِهِ، لأنَّ الخُلْفَ في الوَعْدِ نقصٌ يجبُ تنزيهُهُ تَعالى عنه، بخلافِ الوعيدِ فإنَّه لا يستحيلُ إخلافُهُ، فيجوزُ عليهِ سبحانَه وتعالَى أنْ لا يَفِي بِهِ مَنْ أَوعدَهُ إياه لأنَّ الخُلْفَ في الوَعِيدِ لا يُعدُّ نَقصاً بلْ يُعَدُّ كَرَماً يُمتدَحُ به، الكريمُ إذا أخبرَ بالوَعِيدِ فاللائقُ بِكرمِه أنَّه يَبني إخبارَه بِهِ على المشيئةِ بخلافِ الوعدِ فإنَّه على الجَزْمِ قال الشاعرُ العَربي:

وإنـي إذَا أَوعَـدتُـهُ أو وَعَـدْتُـهُ    لَمخلفُ إيعَادي ومنجزُ مَوْعِدي

هَذا ما ذهبَ إليه الأشاعرةُ، وذهبَ المَاتريديةُ إلى امتناعِ تَخلُّفِ الوَعِيدِ كَالوَعدِ لأنَّه مبنيٌّ على التنجيزِ كالوعدِ بالثوابِ فلو تَخلَّفَ لَزِمَ الكَذبُ في خَبَرِهِ لأنَّهم ذَهبوا إلى أنَّ عُصاةَ المؤمنينَ قِسمانِ: قِسمٌ أرادَ الله العفوَ عنهُ وهذا لم يَرِدْ فيه الوعيدُ. وقِسمٌ لمْ يُرِدِ الله العفْوَ عنه وهوَ الذي وردَ فيهِ الوعِيدُ. وهو مَبنيٌّ على التنجيزِ فَلا يَتخلَّفُ، بلْ لا بُدَّ مِنْ نَفَاذِهِ في بعضٍ مِنْ كُلِّ صنفٍ من أصنافِ العُصاةِ، كما قالَ صاحبُ الجَوهرةِ: وواجب تعذيب بعض ارتكب الخ.

* * *

٤٧ـ فَـوزُ السَّعِيـدِ عِنـدَهُ فـي الأَزَلِ    كَـذَا الشَّقِـيُّ ثُـمَّ لَـمْ يَنْتَقِـلِ

[السعادة والشقاء:]

إنَّ سعادةَ السعيدِ وشَقاوةَ الشَّقي أي موتهما على ذلك مُقدرتانِ في الأزلِ لا يتغيرانِ ولا يتبدلانِ. فَمنْ خُتِمَ له بالإيمانِ دَلَّ على أنَّه في الأزلِ كانَ مِنَ السُعداءِ وإنْ سَبقَ ذلكَ كُفرٌ. ومَنْ خُتِمَ لهُ بالكُفرِ دلَّ على أنَّه في الأزلِ كانَ من الأشقياءِ وإنْ تَقدَّمهُ إيمانٌ. كما يدلُّ لذلكَ حديثُ الصَّحيحينِ وفيه: «إنَّ أحدَكمْ ليَعملُ بِعَملِ أهلِ النَّارِ حَتى ما يكونُ بينَهُ وبينَها إلا ذِراعٌ فيسبقُ عليه الكتابُ، فيعملُ بعملِ أهلِ الجنةِ فيدخُلها. وإنَّ أحدكمْ ليعملُ بِعَملِ أهلِ الجنَّةِ حَتَّى ما يكونُ بينَهُ وبينَها إلا ذِراعٌ فَيَسبقُ عليهِ الكتابُ فَيعملُ بِعَملِ أهلِ النَّارِ

فيدخلها»(١) وعلى ذلكَ ما وردَ في الحديثِ: «السَّعيدُ مَنْ سَعِدَ في بَطْنِ أمه والشَّقِيُّ مَنْ شَقِيَ في بِطنِ أمِهِ»(٢)

وقال الشاعر:

إذا المرءُ لمْ يُخلَقْ سَعيداً مِنَ الأزلِ وَقدْ خَابَ مَنْ ربَّى وخابَ المؤملِ

فَموسَى الذي ربَّاهُ جبريلُ كَافِرٌ وَمُوسَى الذي ربَّاهُ فِرعونُ مُرْسَلُ

هَذا الذي ذكرناهُ هوَ مذهبُ الأشاعرةِ. وذهبَ الماتريديةُ إلى أنَّ السعادةَ هيَ الإيمانُ في الحالِ. والشَقاوةُ هيَ الكفرُ في الحالِ وإذا ماتَ الكافرُ على الإيمانِ فقدْ انقلبَ شقاؤُهُ سعادةً. وإذا ماتَ المؤمنُ على الكُفرِ والعِياذُ باللهِ فقد انقلبتْ سعادتُهُ شَقاوةً. ويترتبُ على هَذَا الخِلافِ أنَّهُ هلْ يجوزُ أَنْ يقولَ الإنسانُ أنَا مؤمنٌ إنْ شاءَ اللهُ أوْ لا يجوزُ ذَلكَ؟ فعلى مَذهبِ الأشاعرةِ يجوزُ أنْ يقولَ ذلكَ، لأنَّ العبارةَ عندَهم: أنا أرجو أنْ يشاءَ اللهُ لي أَنْ أموتَ على الإيمانِ؛ وعندَ الماتريديةِ لا يجوزُ للإنسانِ أنْ يقولَ ذلكَ لأنَّ العبارةَ تَوهمُ الشَّكَ في الإيمانِ في الحالِ. والخِلافُ جارٍ فيما إذا لم يَقصدْ التَّبركَ. أَما إذا قَصدَ التَّبركَ بِذكرِ اسمِ اللهِ فلا شكَّ أنَّه جائزٌ بالإجماعِ.

## [شبهة حول القضاء والقدر:]

ومما يتفرعُ على تَقديرِ السَّعادةِ والشَقاءِ الأزلي، ويُحاكُ حولَ الاعتقادِ بالقَدَرِ، ما نَسبَهُ إلينا الفرنجةُ واتهمونا بهِ من موتِ الإرادةِ وفَقْدِ الإحساس، وقالوا: إننا أصبحنَا معرَّضين بهذا الاعتقادِ لِقبولِ كلِّ بلاءٍ ينزلُ بنا مهما كانَ فيه من ضَعةٍ وذُلٍ وهوانٍ، وإنَّ أمةً هذا اعتقادُها لا تُؤَمِلُ لها حياةً بين الأحياءِ، بحُكمِ السُّنةِ الطَبعيةِ سُنةِ بقاءِ الأنسبِ التي يُفْضِي بها تنازُعِ البقاءِ. ولو أنصفوا وتَمعنُوا قليلاً في تاريخِ الإسلامِ وما فعلهُ المسلمونَ مِنَ الانقلابِ السياسي والعِلمِي في العالمِ أجمع، لَظهَرَ لهم أنَّ الإسلامَ بَرِيءٌ من هذهِ الوصمةِ بعدَ ما ظهرَ من أهلهِ مِنَ آثارِ العَمَلِ في الوُجودِ مالم يظهرْ أثرُه في أُمةٍ من الأممِ مِن

---

(١) رواه البخاري (٣٠٣٦_٣١٥٤) ومسلم (٢٦٤٣) وأبو داود (٤٧٠٨) والترمذي (٢١٣٨).

(٢) رواه مسلم (٢٦٤٥) في القدر، باب: كيفية خلق الآدمي في بطن أمه.

قبلُ، وإنّما هناكَ خطأً في فهم القضاءِ أوجبَ التّحريفَ في هذه العقيدةِ عند العامة، ولا بدَّ في إصلاحِ هذا الخطأ مِنْ نهوضِ أئمةِ المسلمينَ إلى تداركِ الأمرِ قبلَ أنْ يتحققَ ظنُّ الأوربيينَ في بقيةِ هذهِ الأمةِ، كما تحقّقَ في قِسمٍ عظيمٍ منها خنعَ للاستعبادِ واستنامَ لحُكم الأجنبي، فارتكسَ في أمواجِ الحيرةِ وأصبحَ هدفاً للاضمحلالِ لا سمحَ الله، ولا شكَّ أنَّ علماءَ هذهِ الأمةِ هُمُ المسؤولونَ عن هذا الحَيْفِ المُحيقِ بالمسلمينَ الذينَ أقعَدَتْهمُ الأوهامُ عنْ مُجاراةِ الأممِ الحيّةِ ومُكافحةِ الحوادثِ بسلاحِ الجدِ والعملِ، وليُعلمَ أنْ تَعلُّقَ عِلْمِ الله تعالى الأزلي بأنَّ هذا سَعيدٌ وأنَّ هذا شقيٌّ لا يَسلبُ عن الإنسانِ إرادتَهُ واختيارَهُ، وهذا هوَ مَعنى القضاءِ والقَدَرِ، وسيأتي البحثُ عن هذا مُستوفًى عند قوله: (وواجبُ إيمانِنا بالقَدَرِ):

* * *

به ولكن لا يؤثر فلا عبرة له

٤٨ـ وَعِنْدَنَا لِلعَبْدِ كَسْبٌ كُلِّفَا ولَمْ يَكُنْ مؤثِّراً فَلْتَعْرِفَا

٤٩ـ فَلَيْسَ مَجْبُوراً ولا اخْتِيَاراً وليسَ كُلّاً يَفْعَلُ اخْتِيَاراً

[مسألة كسب الأفعال:]

مَذهبُ أهلِ السُّنةِ والجماعةِ أنَّ للمخلوقِ كَسْباً في أفعالهِ الاختياريةِ، وهذا الكسبُ هو مَناطُ الثّوابِ والعِقابِ في المُكلَّفِ، فليسَ مُوجِداً لها بلْ لَهُ فيها نِسبةُ التَرجيحِ كالميْلِ للفعلِ أو التَّركِ. والأصلُ في ذلكَ قولهُ تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢] ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].

والواجبُ اعتقادُ أنَّ بعضَ أفعالِ المرءِ صادرٌ عن اختيارِهِ، والبعضُ عن اضطرارِهِ لما يُرى بداهةً من حَركتي الارتعاشيةِ والإراديةِ، فليسَ هو مجبوراً عليها كمَا يقولُ الجبريةُ وليسَ هوَ خالقاً لها كما يقولُ المعتزلةُ وهَذا معنى قولهُ: (وليسَ كُلّاً الخ) فلا يُنسَبُ الفِعْلُ للعبدِ على وجه الخلْقِ والإيجادِ والاستبدادِ، وإنما لهُ الكسبُ وهوَ ما يقعُ به المقدورُ بلا صحةِ انفرادِ القادرِ به وبذا كَلّفه ربُّ العِبادِ، وإنّما اختارَ أهلُ السُّنةِ هذا المذهبَ على مذهبِ الجبريةِ

والمعتزلة لكونه وسطا، ولأنّ الجبرية أفرطوا والمعتزلةَ فرّطوا، فخرجَ مذهبُ أهلِ السُّنةِ وَسَطاً من بينِ فرْثٍ ودَمٍ خَالِصاً سَائِغاً لِلشاربينَ، ولكونه أسهلُ من مذهبيهما.

قال الشاعر:

إذا لم يكنْ إلاّ الأسِنَّةُ مَركباً    فما حيلةُ المضطرِ إلا رُكُوبُها

وإلا فمسألةُ الكَسْبِ من أدقِ مسائلِ الأصولِ وأغمَضِها، ولا يُزيلُ إشكالَها إلا الكشفُ. قالَ الإمامُ الغزالي: هذه مسألةٌ لا يزول عنها إشكالُها في الدنيا. وقالَ الشيخُ الأكبرُ في الباب الثاني والعشرين من الفتوحات: أَنَّ صورةَ مسألةِ خلقِ الأفعالِ صورةُ لامِ ألفِ (لا) في حُروفِ الهجاءِ، فإنَّ الرائي لا يدري أيّ الفخذينِ هوَ اللامُ حتى يكونَ الآخرُ هو الألفُ. ويُسَمَّى هذا الحرفُ: حرفُ الالتباسِ في الأفعالِ. فلمْ يخلصِ الفعلُ الظاهرُ على يدِ المخلوقِ لمن هوَ. ولكنْ إنْ قلتَ هو لله صدقتَ. وإن قلتَ للمخلوقات مع الله صدقتَ ولولا ذلك لما صحَ خطابُ الله تَعالى للعبدِ بالتَّكليفِ. ولا إضافةُ العملِ إليه بِنَحوِ قولهِ اعْملوا. وقال فيه أيضاً: إنّما أضافَ تَعالى الأعمالَ إلينا لأننا محلُّ الثوابِ والعقابِ وهي لله تعالى حقيقةً. ولكنْ لمّا شهدنَا الأعمالَ بارزةً على أيدِينا وادَّعيناهَا لنا، أضافَها تَعالى إلينا بِحسَبِ دَعوانَا ابتلاءً منهُ لأجلِ الدَّعوى، ثمّ إذا كَشفَ الله عن بَصيرتِنَا رأينا الأفعالَ كلَّها لله تعالى، ولمْ نرَ إلا حَسَناً، فهوَ تَعالى فاعلٌ فينا ما نحنُ الفاعلونَ، ثمَّ معَ هذا المشهدِ العظيمِ لا بدَّ من القيامِ بالأدبِ. فما كانَ منْ حُسْنٍ شرعاً أضفناهُ إليه خلْقاً وإلينا مَحلاً. وما كانَ مِن سَيِّءٍ أضفناهُ إلينا بإضافةِ الله تعالى. فنكونُ حاكينَ قولَ الله عزَّ وجلَّ. وحينئذٍ يُرينَا الله عزَّ وجلَّ الحكمةَ في ذلكَ المُسمَّى سُوءاً، فنراهُ حُسْناً منْ حيثُ الحكمةُ فيبدلُ الله سيئاتِنا حَسناتٍ تبديلَ حُكمٍ لا تبديلَ عَيْنٍ. ومُلخصُ الأمرِ أنَّ مَنْ زعمَ أنَّ لا عملَ للعبدِ أصلاً فقدْ عاندَ وجحدَ. ومنْ زَعمَ أنّهُ مُستبِدٌ بالعَملِ فقد أخطأَ التوحيد وما بقيَ مَوْرِدُ التكليفِ إلا ما يجدهُ العبدُ في نفسِه منَ الاختيارِ اهـ.

وقالَ في البابِ الثالثِ والعشرينَ وثلاثمائةٍ: اعلمْ أنّه لا أثرَ لمخلوقٍ في الأعمالِ التي تظهر على يديهِ أبداً منْ حيثُ التكوين. وإنما لهُ فيها حُكْمٌ لا أثرٌ. وأكثرُ الناسِ لا يفرقونَ بين الحُكْمِ والأثرِ. فإنَّ الله تَعالى إذا أرادَ إيجادَ حركةٍ أو

معنى من الأمورِ التي لا يَصح وجودُها إلا في موادِها، لأنها لا تقومُ بنفسها، فلا بُدّ من وجودِ مَحلٍ يظهرُ فيهِ تكوينُ هذا الأمرِ، فَلِلْمَحَلِ حُكمٌ في الإيجاد لهذا المُمكنِ وما لهُ أثرٌ، فهذا الفرقُ بين الحُكم والأثرِ. إذا تَحقّقتهُ عَلِمتَ أنه لا أثرَ للعبدِ جملةً واحدةً في الفعلِ، ولذا أدّبنا الله عزَّ وجلَّ بقوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣].

وقالَ أيضاً: حُكمُ أفعالِ العبدِ معَ الحقِ حُكمُ آلةِ النَّجارِ والحائِك، ولله المثلُ الأعلى ونحوِها. فإنَّ الله تعالى يفعلُ بالواسطةِ وبدونِها. وبهذا القَدْرِ الذي هو كآلةٍ تَعلّقَ الجزاءُ والتكليفُ لوجودِ الاختبارِ من الآلةِ. ولا دليلَ في العقلِ يُخرجُ العبدَ عن الفِعْلِ، ولا جاءَ بذلكَ نصٌ عن الشارعِ لا يحتملُ التّأويلَ. فالأفعالُ كلُّها من المخلوقاتِ مقدورةٌ لله تعالى، ووجودُ أسبابِها بالأصالةِ منَ الله تعالى. وليسَ لمخلوق فيها مَدْخلٌ إلاّ من حيثُ كونه محلاً لها. قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] فأثبتَ الفعلَ للعبدِ بالضميرِ ونفاهُ بالفعلِ الذي هوَ خَلَقَ وقالَ أيضاً: ومَنْ أرادَ أنْ يعرفَ حقيقةَ أنَّ الله تعالى هو الفاعلُ مِنْ خلفِ حجابِ الخَلْقِ، فلينظرْ في خيالِ السّتَارةِ وصُورِها، ومَنْ هُوَ الناطقُ في تلكَ الصورِ عندَ الصبيانِ الصغارِ الذين بَعدوا عن حجابِ الستارةِ المضروبةِ بَينهم وبينَ اللاعبِ بتلكَ الصورِ والنّاطقِ فِيها. فالأمرُ كذلكَ في صُورِ العالمِ كلِّه. والناسُ أكثرُهم أولئكَ الصغارُ الذينَ فَرضْناهم. فهناكَ يعرفُ مِنْ أينَ أتى عِلمهُم، فالصغارُ في ذلكَ المجلسِ يفرحونَ ويطربونَ. والفاعلونَ يتخذونَ ذلكَ هزُواً ولعباً. والعلماءُ بالله يعتبرونَ ويعلمونَ أنَّ الله تعالى ما نصبَ هذا إلا مَثَلاً لِعبادهِ، لِيَعلموا أنَّ هذَا العالمَ مع الله تعالى مَثلُ هذه الصورِ مع مُحركِها. وأنَّ هذه الستارةَ هي حجابُ سرِّ القَدَرِ الذي لا يجوزُ لأحدٍ كَشفُهُ. ومما يَدُلّكَ أيضاً علي أنَّ أفعالَ العبدِ لله تعالى، حقيقةُ كونِهِ جعلَ نفسَهُ عينَ قِوى العبدِ المحبوبِ في حديثِ: «كنتُ سَمْعَه وبَصرَهُ ويَدَهُ ورجلَهُ»(١) وَمعلومٌ أنَّ العملَ ليسَ هوَ جسمُ الإنسانِ الحِسي وإنما هو لِقواهُ، فما تصرفَ في باطنِ العبدِ إلا الربُّ اهـ.



(١) رواه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: التواضع الحديث (٦١٣٧).

وقال سيِّدي علي الخوّاص رحمهُ الله تعالى: العبدُ محلُ ظهورِ الأفعالِ كالبابِ الذي يخرجُ منهُ الناسُ فليسَ الناسُ مُتولدينَ من نفس البابِ وإنَّما ظهرَ بروزُهم مِنهُ لا غَير. إذ الأعضاءُ الفعّالةُ في الظاهرِ أبوابٌ للحركاتِ الربانيةِ المستورةِ، فَقومٌ لا يشعرونَ بأنَّ الله تعالى هو الفاعلُ وهم المعتزلةُ، وقومٌ يشهدونَ ويشعرونَ بذلكَ وهم الجبريةُ، غلبَ عليهمُ شهودُ الفعلِ لله تعالى وَحْدَهُ، ولمْ يتسعْ نَظَرُهم حتى يضيفوه للعَبدِ كما أضافَهُ الحقُ تعالى إليه فأخطؤوا الشَّريعةَ، وقومٌ لا يشهدونَ ويشعرونَ وهم الأشعريةُ مَنَعَهم حجابُ القولِ بالكسْبِ عن الشهودِ وهَذا الأسلمُ. وقالَ الشيخُ مُحيي الدين في بابِ الأسرارِ من الفُتوحاتِ: ما طلبَ الحقُ تعالى من عبادِه أنْ يَستَعينوا بهِ في عباداتِهم وغيرِها إلاّ لِينبههم على عَجزِهم عن الاستقلالِ بالأفعالِ. وكانَ الإمامُ الجنيدُ رحمهُ الله يقولُ: إياكَ أَنْ تَقِفَ في حضرةِ شُهودِ الفعلِ لله تَعالى وحدَه دونَ عبادِهِ، فَتقعَ في مهواةٍ من التَلَفِ، ولا تَرى لكَ مع ذلكَ قط ذنباً، فتهلكَ مع الهالكينَ وفي ذلكَ هَدْمٌ للشَّرائعِ كلِّها. وقالَ في تفسيرِ قولهِ تَعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧]

اعلمْ أنَّ في هذِهِ الآيةِ الكريمةِ إثباتُ القتلِ والرمي لمن نفاهُ عنه، ثم إنَّه لم يَثبتْ على الإثباتِ بل أعقبَ الإثباتَ نفياً كما أعقب النَفْيَ إثباتاً بقولِهِ: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ وبقولِه: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ فما أسرعَ ما نَفى وما أسرعَ ما أثبتَ لعينٍ واحدةٍ، وإيضاحُ ذلك أنَّ الله تعالى قال: فاقتُلوا المشركينَ، فأظهرَ أمراً وآمِراً ومأموراً في هذا الخطابِ، فلمّا وقعَ الامتثالُ وظَهر القتلُ بالفعلِ من أعيانِ المُحدَثَاتِ قال: ما أنتم الذين قَتلتُموهم بل أنا قَتَلْتُهم، فأنتم لنا بمنزلةِ السَّيفِ لكم أَو أي آلةٍ كانتْ للقتلِ، كما أنَّ القتلَ وقع في المقتولِ بآلةٍ، ولم نقلْ أنها القاتلةُ، بل الضاربُ هو القاتل، فكذلك الضاربُ بالنسبة إلينا هو القاتلُ بل هُوَ مثلُ السَّيفِ بالنسبةِ إليهِ، والحاصلُ أنَّ جعلَ الأسباب العادية أماراتٍ ودلائِلَ على وجودِ الشيءِ من غير ملازمةٍ عقليةٍ بينهَا وبينَ ما جُعلتْ عليه دليلاً هو مذهبُ أهلِ السُّنة، أما اعتبارُ الملازمةِ العقليةِ أي عَدمِ التَّخلُفِ وإنْ كانَ بإذنِ الله فهو قولٌ يؤولُ إلى الكُفرِ، لأنَّه يستلزمُ إنكارَ المعجزاتِ والإخبارِ بالمغيباتِ كأحوالِ

الآخرة؛ إذ هُوَ من بابِ خَرْقِ العادةِ التي تَتخلَّفُ فيها الأسبابُ. وبعدُ فالتأثيرُ ليسَ إلا للواحدِ القهَّارِ جلَّ وعَلا. ومَنْ يقلْ بالطبعِ أو بالعِلةِ، فذاكَ كُفرٌ عندَ أهلِ المِلةِ. ومن يَقُلْ بالقوةِ المودَعةِ فذاكَ بدعيٌّ فلا تَلتفتْ.

* * *

٥٠- فَإِنْ يُثِبْنَا فَبِمَحْضِ الفَضْلِ وَإِنْ يُعَذِّبْ فَبِمَحْضِ العَدْلِ

[مسألة الثواب والعقاب:]

عُلِمَ ممَا تَقدَّمَ أَنَّ الله تباركَ وتَعَالى هو المنفَرِدُ بالخَلقِ والإيجادِ، وإذا كانَ كذلكَ فإعطاءُ الثوابِ لِلمُطيعِ فَضلٌ خالصٌ مِنه لِحديثِ «لن يدخلَ أحدُكم الجنةَ بعملِهِ الخ»[1] فالثَّوابُ بمحضِ فضلِ الله تَعالى في نظيرِ عملٍ لأنَّه هو الخالقُ للعملِ، ولأنَّ طاعةَ العبدِ لا تفي ببعضِ نعَمِه تعالى. وإنزالُ العقابِ على العاصي عدلٌ خالصٌ منه، ولا يُعَدُّ ذلك ظُلماً لأنَّه تَصرَّفَ في مُلكِهِ، والظلمُ إنما هوَ التَّصَرُّفُ في مُلكِ الغَيرِ؛ خلافاً للمعتزلةِ القائلينَ بوجوبِ إثابةِ المطيعِ وتعذيبِ العَاصي. وحُكِيَ عن الشيخ عفيف الدين الزَّاهدِ أنَّه كانَ بمصرَ فبلَغَهُ ما وقَعَ ببغدادَ من القتلِ أربعينَ يوماً فَقُتِلَ ألفُ ألفُ، وعَلَّقت النصارى المصاحفَ في أعناقِ الكلابِ، وجَعلوا المساجدَ كنائسَ، وألقوا الكُتُبَ في الدّجلة حتى صارتْ كالجسرِ تَمرُ عليها الخيلُ، فقال: يا رب كيفَ هذا وفيهم الأطفالُ ومَنْ لا ذنبَ لَهم فرأى في النومِ رَجلاً ومعه كتابٌ فإذا فيه:

دع الاعتراضَ فما الأمرُ لكَ ولا الحكمُ في حركاتِ الفَلَكْ
ولا تسألْ الله عنْ فِعلهِ فَمنْ خاضَ لجةَ بحرٍ هَلَكْ

* * *

٥١- وَقَوْلُهُمْ «إِنَّ الصَّلاحَ وَاجِبُ عَلَيْهِ» زُورٌ، مَا عَلَيْهِ وَاجِبُ
٥٢- أَلَمْ يَرَوْا إِيلامَهُ الأطفَالا وَشِبْهَهَا فَحَاذِرِ المِحَالا

---

(١) رواه البخاري (٥٦٧٣) ومسلم (٢٨١٦) وأحمد (٢/٤٥١) والنسائي (٨/١٢١) ومالك وابن حبان (٣٤٨).

## [هل يجب على الله تعالى فعل الصلاح والأصلح:]

رأيُ المعتزلةِ: أنَّ الله تَعالى يجبُ عليهِ فعلُ الصَّلاحِ والأصلَحِ، والمُراد بالصَّلاحِ: ما يُقابِلُ الفسادَ، كالإيمانِ في مُقابَلةِ الكُفرِ، والصحةِ في مُقابَلةِ المَرضِ والمُرادُ بالأصلح: ما يُقابِلُ الصَّلاحَ، كالثوابِ بلا تكليفٍ في مُقابَلةِ الثوابِ معَ التَّكليفِ، وكونه في أعلى الجنانِ في مُقابَلةِ كونِهِ في الجنَّةِ. وقالوا: إنَّ تركَ الصَّلاحِ والأصلح بُخلٌ وسَفَهٌ وهو مُحالٌ عليهِ، فردَّ المصنفُ عليهم: إنَّ هذا الإيجابَ إنَما هُوَ زُورٌ أي: باطلٌ، لأنَّه تَعالى يفعلُ في مُلكِهِ ما يشاءُ، ولأنَّه لو وَجبَ عليهِ الصَّلاحُ لَمَا خَلقَ الكافرَ الفقيرَ المُعذبَ في الدنيا بالفقرِ وفي الآخرةِ بالعذابِ الأليم، حُكيَ أنَّ الحافظَ ابنَ حَجرٍ مَرَّ يوماً بالسوقِ في موكبٍ عظيمٍ وهيئةٍ جميلةٍ فهجمَ عليهِ يَهوديٌّ يبيعُ الزيتَ الحارَ، وأثوابُهُ مُلَطّخةٌ بالزيتِ. وهو في غايةِ الرثاثَةِ والبَشاعةِ، فَقبضَ على لجامِ بغلته، وقالَ له يا شيخَ الإسلامِ: تزعمُ أنَّ نبيَّكم قال: «الدُّنيا سِجنُ المؤمنِ وجنَّةُ الكَافرِ»(١) فأيُّ سجنٍ أنتَ فيه وأيُّ جَنةٍ أنا فيها، فقال: أنا بالنسبةِ لِما أعدَّهُ الله لي في الآخرةِ مِن النَّعيم كأني الآنَ في سِجنٍ، وأنتَ بالنسبةِ لما أعدَّهُ الله لكَ في الآخرةِ مِن العذابِ الأليم كأنَّكَ في جنةٍ فأسلمَ اليهوديُّ. ولأنه لو وَجبَ عليهِ تَعالى فعلُ الأصلحِ، لكانَ إماتةُ الأنبياءِ والمرشدينَ مع تَبقيَةِ إبليسَ وذريتهِ من الضَّالينَ المُضلينَ أصلحُ عند المعتزلةِ لعبادِ الله وكفى بهذا فظاعةً! ولأنَّه يلزمُ على مَذهَبِهم أنَّ الله تعالى لو أماتَ شَخصاً بالِغاً في الكفرِ أنَّه لم يفعلْ ما وجبَ عليهِ من الصَّلاحيَّةِ والأصلَحيَّةِ، لأنَ إماتَتهُ في الصغرِ أو في الجنونِ أصلحُ له لِعَدَمِ التَّكليفِ.

هذهِ المسألةُ كانتْ سببَ افتراقِ أبي الحسنِ الأشعري عن شيخِهِ أبي هاشم الجُبَّائي حينما قال له: ما تقولُ في ثلاثةِ إخوةٍ: اثنينِ كبيرينِ أحدُهما مُسلمٌ، وثانيهُما كافرٌ وثالِثهُما صغيرٌ وقد ماتوا جمعاً فما مَقرُهم فقال: الكافرُ في النار، والمسلمُ في الجنةِ، والصغيرُ لا يثابُ ولا يُعاقبُ، فهو في منزلةٍ بين المنزلَتين، فقالَ أبو الحسنِ: يقولُ الصغيرُ يا رب كانَ الأصلحُ في حَقي أنْ لو متُ مُسلماً كبيراً، أو كُنتُ مع أخي في الجنةِ، فقالَ: يقولُ الله علمتُ أنَّكَ لو كبرتَ لكنتَ

---

(١) رواه مسلم في كتاب: الزهد والرقائق، رقم: (٢٩٥٦) والترمذي (٢٣٢٥).

كافراً وكنتَ مع أخيكَ الكافرِ في النَّارِ، فقالَ له حينئذٍ: يقولُ الكافرُ بلْ وجميعُ أهلِ النارِ يا ربَّنا الأصلحُ في حقِّنا أنْ لو متنَا صغاراً ونُكفى شرَّ النَّارِ فَسكتَ وبُهِتَ، فقالَ له: أبكَ جنونٌ؟ فقال: لا ولكنْ وقفَ حمارُ الشيخِ في العَقَبةِ، ثم انفردَ عنهُ يقررُ عقائدَ أهلِ السُّنةِ والجماعةِ. ولو كانَ فعلُ الصَّلاحِ واجباً عليهِ تعالى لَمَا أنزلَ الأمراضَ والبلاءَ في الأطفالِ الذين لمْ يَجنوا ذنباً، ولمْ يقترفوا إثماً، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨] ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ١٠٥] ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] فاحْذَرْ أيها المكلفُ عقابَ الله تَعالى إنْ اعْتقدتَ خِلافَ ذلكَ.

ولبعضِهم:

مـا للعِبـادِ عليـهِ حـقٌّ واجـبٌ ... كَـلَّا ولا سعـيٌ لَـديـه ضَـائِـعُ
إنْ عُـذِّبـوا فَبِعَـدْلِـهِ أو أُنعِـمُوا ... فَبِفَضْلِه وهـو الكريـمُ الـواسـعُ

* *

٥٣ـ وَجَـائِـزٌ عليـهِ خَلْـقُ الشَّـرِّ ... والخَيرِ كَالإِسْلامْ وَجَهْلِ الكُفْرِ

[مسألة خلق الشر]

عُلِمَ مما تقدَّمَ أنَّ مذهبَ أهلِ السُّنةِ أنَّ الله تعالى خالقٌ لأفعالِ العبادِ الاختياريةِ سواءٌ في ذلكَ خيرُها وشرُّها، وأنَّ العبادَ ليسَ لهم في أفعالِهم إلا الكسبُ. وأنَّ مَذهبَ المُعتزلةِ أنَّ العِبادَ هُم الذين يخلقونَ أفعالَ أنفُسِهم خيرَها وشرَّها، فاعْلمْ أنَّ خَلْقَ الخيرِ والشرِ مَنُوطٌ بالله تَعالى لأنَّ هذهِ المسألةَ من فروعِ الجائزِ في حقِهِ تعالى، وعمومُ تَعلُّقِ قُدْرَتِه سبحانَه بكلِ المُمْكناتِ، كما أنَّ إرادتَهُ تَعالى تَتَعلقُ كَذلكَ، لكنْ تَعلُّقَ تخصيصٍ لا إيجادٍ، وإنَّ الإرادةَ عندَ أهلِ السُّنةِ غيرُ العِلْمِ والرِّضا والأمرِ، فَأما مَذهبُ المُعتَزلةِ فهي كُلُّها سَواءٌ ولا تَتَعلقُ إلّا بما هُوَ خيرٌ وخَالَفوا أهلَ السُّنةِ في إرادةِ الشرِ، فالخيرُ عِندنا برضاءِ الله ومَحبتِه والشرُّ بخلافِه. قال تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف: ٢٨] غيرَ أنَّ إراداتَه تعالى عامةُ التَّعلُقِ في المُمكِناتِ وما ليسَ بكائنٍ لا تَتَعلَّقُ بهِ، قال عليه الصلاة

والسلام: «ما شاءَ الله كان وما لمْ يَشأ لمْ يكنْ»[1].

* * * *

٥٤ـ وَوَاجِبٌ إيمـانُنَـا بـالقَـدَرِ     وَبالقَضَا كَمَا أَتى في الخبَرِ

[مسألة القضاء والقدر]

الإيمانُ بالقضاءِ والقَدرِ فَرْضٌ مِنْ فرائضِ الإيمانِ والإسلامِ، فمنْ لمْ يؤمنْ بهما فهو كافرٌ، لِمَا رُوِيَ عن عليٍّ كرَّمَ الله وجهَهُ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لا يؤمنُ عبدٌ حتَّى يؤمنَ بأربعةٍ يشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ. وأنّي رسولُ الله بعثني بالحقِ، ويؤمنُ بالبعثِ بعدَ الموتِ، ويؤمنُ بالقَدَرِ خيرِهِ وشرهِ حُلوهِ ومُرِهِ»[2] وَبهذا يُعلَمُ أنَّ دليلَ ذلك سمعيٌّ، ومعنى الإيمانِ بالقَدَرِ: أنَّ الله سبحانَه وتعالى قَدَّرَ الأمورَ وأحاطَ بِها عِلماً قبلَ أنْ يُوجِدها إلى هَذا العالَمِ، وقد نَظمَ العلاّمةُ الأجهوري معنى القَضاءِ والقَدَرِ. فقال:

إرادةُ الله مـعَ التَّعلُّـقِ     فـي أزلٍ قضـاؤهُ فَحقـقِ
والقَدَرُ الإيجادُ للأشياءِ على     وجـهٍ مُعَيَّـنٍ أرادَهُ عَـلا

ففسَّر القَضاءَ على مذهبِ الأشاعرةِ، والقَدَرَ أيضاً، فالقضاءُ عِندَهم يَرجِعُ إلى صفاتِ الذَّاتِ، والقَدَرُ يَرجِعُ إلى صفاتِ الفعلِ، فالقَدَرُ حادثٌ، والقَضاءُ قَديمٌ، والماتريديةُ يُفسِرونَ القَدَرَ بأنَّه تحديدُ الله كلَّ مَخلوقٍ بِحدِّهِ الذي يُوجَدُ عليهِ مِن حُسْنٍ وقُبْحٍ ونَفْعٍ وضُرٍ إلى غيرِ ذلكَ، فيرجعُ عِندَهم لصفةِ العِلمِ وهيَ مِنْ صفاتِ الذاتِ، والقضاءُ إيجادُ الله الأشياءَ مع زيادةِ الإحكامِ والإتقانِ، فهو صفةُ فعلٍ عندَهم. واعلمْ أنَّ معنى الإيمانِ بالقَضاءِ والقَدَرِ هو الرِّضا بِهما لكنَّ هذا يُشْكِلُ بأنَّ الله قَدَّر الكُفرَ والمعَاصي، والرِّضا بالكُفرِ كُفرٌ وبالمعصيةِ معصيةٌ، وقد أجَابَ الخيالي في حَاشيتِه أنَّ الكُفرَ والمعَاصي لهما جِهتان، جهةُ كونهما مَقضيَيْنِ ومُقَدَّرَيْنِ لله، وجهةُ كَونهما مُكتَسَبَيْنِ للعبدِ، فيجبُ الرِّضا بِهما من

---

(١) رواه أبو داود (٥٠٧٥) وابن السني (٤٦) وفي سنده جهالة.

(٢) رواه الترمذي في كتاب: القدر، باب: ما جاء في الإيمان بالقدر خيره وشره الحديث (٢٢٣٢) وابن ماجه (٨١) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي.

الجهةِ الأولى لا مِنَ الثّانيةِ، وهذا يُشبهُ ما قالهُ السّعدُ: مِنْ أنَّ الكُفرَ والمعاصي مَقضِيٌ ومُقدَّرٌ لا قَضاءَ وقدَرَ، وعلى كلٍّ لا يجوزُ الاحتجاجُ بالقَدَرِ قبلَ الوقوعِ في الزّنا أو بعدَ الوقوعِ تَخلُصاً من الحَدِّ أو نحوهِ؛ بأنْ وقعَ شَخصٌ في الزّنا مثلاً وقالَ قَدَّرَ عليَّ ذلكَ وغَرَضه بهِ التّخلُصَ مِنَ الحَدِّ، وأمّا الاحتجاجُ بهِ بعدَ الوقوعِ لِدفعِ اللومِ فقطْ فلا بأسَ بهِ. كما وردَ في الحديثِ الصَّحيحِ: «إنَّ روحَ آدمَ التَقتْ مَعَ روحِ مُوسى عليهما السلامُ فقالَ مُوسى لآدمَ أنتَ أبو البَشرِ الذي كُنتَ سبباً لإخراجِ أولادكَ من الجنَّةِ بأكلِكَ مِنَ الشَّجرةِ، فقالَ آدمُ يا موسى فأنتَ الذي اصطفَاكَ الله بكلامهِ، وخطَّ لك التوراةَ بيدهِ تلومُني على أمرٍ قدْ قَدَّرهُ الله مِنْ قبلِ أنْ يخلقني بأربعينَ ألف «سنة» قال النبي ﷺ فحجَّ آدمُ مُوسى»[1].

وقد ظفرتُ برسالةٍ لمؤلفِها أحمدَ بن أحمدَ حَشاد سمَّاها (القولُ المعتَبرُ في القضاءِ والقَدَرِ) ذكرَ فيها ما يزيلُ عن القَلبِ كلَّ إشكالٍ يقعُ على القضاءِ والقَدَرِ في وُقوعِ المَعصيةِ: فقال إنَّ القضاءَ لا يُجبرُ على المَعصيةِ لأنَّه صفةُ القَاضي، والصفةُ لا تجبرُ أحداً على الفِعلِ، بل العبد مُخيَّرٌ مستطيعٌ، ولهذا المعنى استحَقَّ العقابَ، كما لو قالَ لعبدِهِ: إنْ دخلتَ الدارَ فأنتَ حُرٌّ فَدَخَلها يُعتَقُ، وكذلك في الطَّلاقِ يقعُ بدخولِ الدَّارِ، ولا يُقالُ بأنَّ اليمينَ تدلُّ على الدخولِ أو أَجبَرتهُ بهِ، كَذلكَ هَهنَا وإنْ كانَ بِقضاءِ الله، ولكنْ لا يُقالُ بأنَّ القضاءَ أجبرهُ على الفِعلِ، على أنَّ القَضاءَ سرُّ الله تعالى أخفاهُ على الخَلقِ، والأمرُ والنَّهيُ حجةُ الله على خَلقِه، فإذا تَركَ أمرَه الظاهرَ وهو مستطيعٌ فبذلكَ المعنَى يستحقُّ العقوبةَ، ولله الحجةُ البالغةُ على عِبادِهِ، فلو قُدِّر أنَّ عبداً قالَ: يا رب كيف تُؤاخذني بما قَدَّرتَهُ عليَّ قبلَ أنْ أُخلَقَ لقالَ لهُ الحقُ تَعالى: وهلْ تَعلَّقَ علْمي بكَ إلاّ بما أنتَ عليهِ ولا افتتاحَ لِعلمي ولا لمعلومي. ومعلومٌ أنَّ عِلمَ الواجبِ محيطٌ بما يقعُ من الإنسانِ بإرادته وأنَّ عَمَلَ كذا يَصدُرُ في وقتِ كَذا وهو خيرٌ يُثابُ عليهِ، وأنَّ عَملاً آخرَ شرٌّ يُعاقبُ عليه عقابَ الشرِ، والأعمالُ في جميعِ الأحوالِ حاصلةٌ عن الكِسبِ والاختيارِ، فلا شيءَ من العلمِ بسالبٍ للتخييرِ في الكَسبِ، وكونُ ما في العلمِ يقعُ لا محالةَ إنما جاءَ مِنَ حيثُ هو الواقعُ والواقعُ



(١) رواه البخاري في الأنبياء باب وفاة موسىٰ وذكره بعد الحديث (٣٢٢٨).

لا يتبدلَ، ولنا في علومِنا الكونيةِ أقربُ الأمثالِ، شخصٌ من أهلِ العِنادِ يعلم عِلْمَ اليقينِ أنَّ عصيانَه لأميرِه باختيارِه يُحَلُّ بهِ عقوبتَهُ لا محالةَ، لكنَّهُ مع ذلكَ يعملُ العَمَلَ، ويستقبلُ العقوبةَ وليسَ لشيءٍ من علمِه وانطباقِه على الواقعِ أدنى أثرٍ في اختيارِهِ لا بالمنعِ ولا بالإلزامِ، فانكشافُ الواقعِ للعالِمِ لا يصحُ في نظرِ العقلِ مُلْزِماً ولا مانِعاً، وإنما يُريكَ الوهمُ تغييرَ العباراتِ وتَشَعُّبَ الألفاظِ، هذا هو الذي لا يسمحُ العقلُ ولا الدّينُ لأحدٍ أنْ يذهبَ إلى غيرِه، وَهذَا هو الذي قامتْ عليهِ الشرائعُ، وبه استقامتْ التكاليفُ، وهو النورُ الذي قَذَفَهُ اللهُ في قلوبِ منْ شاءَ، وخصَّ بهِ أهلَ الولايةِ والصفاءِ، وقد وردَ أنَّ علياً كرَّمَ الله وجهَهُ لَمّا رَجعَ من وقعةِ صِفينَ قامَ إليهِ شيخٌ فقالَ له: أخبرْنَا عن سَيْرِنا إلى الشَّام أكانَ بقضاءِ الله وقدرِه، فقالَ والذي فَلَقَ الحبةَ وبرأَ النسمةَ ما وَطِئنا مَوطِئاً. ولا هَبطْنا وادياً، ولا عَلوْنَا تَلْعَةً إلا بقضاءِ الله وَقدرِه، فقال الشيخُ: عندَ اللهِ أحتسبُ عَنائي، ما أرى لي من الأجرِ شيئاً فقالَ له: مَه أيُّها الشيخُ عَظَّمَ الله أجرَكم في سَيْرِكم وأنتم سَائرونَ وفي مُنْصرَفِكم وأنتم مُنصرِفُون، ولمْ تكُونوا في شيءٍ من حَالتِكم مُكْرهينَ، ولا إليها مُضطرينَ، فقالَ الشيخُ: كيفَ والقضاءُ والقَدَرُ سَاقانا. فقال له: ويحك لعلكَ ظننتَ قضاءً لازماً وقدراً حاتماً، لو كانَ ذلك لبطلَ الثوابُ والعقابُ، والوعدُ والوعيدُ، والأمرُ والنَّهيُ، ولَمْ تأتِ لائمةٌ من الله لمذنبٍ. ولا مَحمَدَةٌ لِمحسنٍ، ولمْ يكنِ المحسنُ أولى بالمدحِ من المُسيءِ، ولا المُسيءُ أولَى بالذَّمِّ، تلكَ مَقالةُ عَبدَةِ الأوثانِ وجُنودِ الشّيطانِ، وشهودِ الزُورِ وأهلِ العمَى عن الصوابِ، وهم قَدَريةُ هذه الأمةِ ومَجوسِها، إنَّ الله تعالى أمرَ تخييراً ونَهى تَحذيراً وكَلَّف يَسيراً، ولمْ يُعْصَ مَغلوباً، ولمْ يُطَعِ مُستكرَهاً ولم يُرْسلِ الرُّسلَ إلى عبادِه عَبثاً، ولم يَخلقِ السمواتِ والأرض وما بينهما باطلاً..

﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧]

فقال الشيخُ: وما القضاءُ والقَدَرُ اللذان ما سرْنَا إلا بهما، قال: هو الأمرُ مِنَ الله والحُكمُ، ثُمَّ تَلا قولَه تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨] ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]

فقَامَ الشاميُّ فَرِحاً مَسرُوراً لِما سَمِعَ من المَقَالِ، وقال: فَرَّجتَ عَني يا أمير المؤمنينَ، فرَّجَ الله عنكَ ثُمَّ أنشأ يقولُ:

أنتَ الإمامُ الذي نرجو بطَاعتِه ... يومَ النجاةِ من الرَّحمنِ غُفرَانَا
أوْضَحتَ منْ ديننا ما كانَ مُلتَبساً ... جَزاكَ ربُّكَ عَني مِنْهُ إحسَانَا

[فرقة القدرية:]

ولقدْ حدثَ في الأمةِ الإسلاميةِ فِرقَتانِ كلُّ واحدةٍ منها تُسَمَّى بالقَدَريةِ، إلا أنَّ الفِرقَةَ الأُولى كافِرةٌ، وهي التي تعتقدُ أنَّ الله تعالَى لمْ يُقدرِ الأمورَ أولاً، وإنَّ الأمرَ أُنفٌ، أي يَستأنِفُ الله تعالى عِلْمَهُ حَالَ وُقُوعِهِ، وقد انقرضتْ هذه الطائفةُ قبلَ انقضاءِ القرنِ الثاني الهجري، وأما الأُخرى فطائفةٌ مِنَ المُعتَزلةِ القائلينَ أنَّ الإنسانَ يَخلُقُ أفعالَ نفسِهِ الاختياريةِ اهـ.

قالَ الإمامُ أحمدُ بنُ جعفر الطَّحَاوي: وأصلُ القَدَرِ سرُّ الله في خَلْقِهِ، لمْ يَطَّلِعْ على ذلكَ مَلَكٌ مُقرَبٌ ولا نبيٌّ مُرسَلٌ، والتعمقُ والنظرُ في ذلكَ ذَريعةُ الخُذلانِ وسُلمُ الحِرمانِ ودرجةُ الطغيانِ، فالحذَرَ كلَّ الحَذَرِ من ذلك فِكراً ونَظراً ووَسوسةً، فإنَّ الله تعالى طوى عِلْمَ القَدَرِ عنْ أنامِه، ونَهاهم عَن مُرامِه، كما قالَ تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

ومنْ سَأَلَ لِمَ فعلَ ذلكَ فقدْ ردَّ حُكمَ الكِتابِ وكانَ من الكافرينَ.

* * *

٥٥- وَمِنْهُ أَنْ يُنظَرَ بالأَبْصَارِ ... لَكِنْ بِلاَ كَيْفٍ وَلاَ انحِصَارِ
٥٦- لِلْمُؤْمِنِينَ إذْ بِجَائِزٍ عُلِّقَتْ ... هَذَا وللْمُخْتَارِ دُنْيَا ثَبَتَتْ

[مسألة رؤية الله عز وجل:]

مِنَ الجائزِ عَقلاً عليهِ تَعالى أنْ يُنظَرَ بالأبصارِ إلاّ أنَّه لمْ يثبتْ إلا لِنبيِّنا محمدٍ ﷺ في الدّنيا، وقد سألها سيدُنا مُوسَى عليهِ السلامُ فَأُجيبَ بقوله: ﴿لن تَراني﴾(١)، أما المؤمنونَ فإنَّ حظَّهم مِن الرُّؤيةِ سيكونُ في الآخرةِ. ودليل الجَوازِ عَقلاً أنَّ الباري سبحانَهُ وتَعالى موجودٌ وكلُّ موجودٍ يَصحُ أنْ يُرَى،

(١) الأعراف: ١٤٣.

فالباري عزَّ وجل يصحُ أنْ يُرَى.

## [أدلة رؤية الله عند أهل السنة]

وقَدْ أطبقَ أهلُ السُّنةِ على ذلكَ لدليلِ الكتابِ والسُّنةِ والإجماع. أمّا الكتابُ: فقولهُ تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٣].

ومنها قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]

فالحُسنَى هي الجنةُ، والزيادةُ هي النظرُ إلى وجهِ الله الكريمِ كما قالَهُ جمهورُ المفسرين.

ومنها قوله تعالى: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: ٢٣]

وأما السُّنةُ فقولُه عليهِ الصلاةُ والسلام: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر»[1]

وأمّا الإجماعُ[2]: فهو أنَّ الصحابةَ رضيَ الله عنهم كانوا مُجمعينَ على وُقوعِ الرؤيةِ في الآخرةِ. قالَ الإمامُ مالكٌ رضيَ الله عنهُ: لمّا حَجَبَ أعداءَهُ فلم يَروْه تَجلَّى لأوليائِهِ حتى رَأَوْهُ، ولو لمْ يرَ المؤمنونَ ربَّهم يومَ القيامةِ لم يُعَيَّر الكافرونَ بالحجابِ، قال الله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]

وقالَ الإمامُ الشافعي رضيَ الله عنه: لمّا حجبَ قَوماً بالسخطِ دَلَّ على أنَّ قوماً يرونَه بالرِّضا. وقال ابنُ العَربي: إنَّ رؤيةَ الله جُعلتْ تقويةً للمعرفةِ الحاصلةِ بالدنيا. فما راءٍ كمنْ سَمعا. وهذه الرؤيةُ الجائزةُ ليستْ كرؤيةِ بعضِنا بعضاً، فهي ليستْ بكيفيةٍ من كَيفياتِ الحوادثِ منْ مقابَلةٍ وجهةٍ وتَحيُّزٍ ولا انحصارَ للمَرئي عند الرائي بحيثُ يحيطُ بهِ لاستحالةِ الحدُودِ والنهاياتِ عليهِ تَعالى، وهذا معنى قولِه تَعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]

---

(١) رواه البخاري في كتاب: مواقيت الصلاة، باب: فضل صلاة العصر الحديث (٥٢٩_٥٤٧) ومسلم (٦٣٣) وأبو داود (٤٧٢٩) والترمذي (٢٥٥٤).

(٢) الإجماع: هو اتفاق المجتهدين من الأمة الإسلامية في عصر من العصور بعد عصر النبي ﷺ على حكم شرعي في أمر من الأمور العملية.

أي لا تحيطُ بهِ بل يَحارُ العبدُ في العَظمةِ والجلال حتى لا يَعرفَ اسمَه، ولا يشعرَ بمن حولَه من الخلائق، فإنَّ العقلَ يعجزُ هنالك عنِ الفَهم، ويَتلاشى الكلُّ في جنبِ عظمتِه تَعالى، وقد خصَّ الله تَبارك وتَعالى عبادَه المؤمنينَ بالرؤيةِ: ذُكورَهم وإناثَهم، إنسَهم وجِنَّهم، مَنْ تَقدَّم منهم ومَنْ تأخرَ من أممِ الأنبياءِ، حتى أهلَ الفترةِ على القولِ بنجاتِهم، والملائكة إلا الكفارَ والمنافقينَ لقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]

لأنهم لَيسوا من أهلِ الإكرامِ والتشريفِ، ومحلُ الرؤيةِ الجنة فيراهُ أهلُها في مِثلِ يومِ الجمعةِ والعيدِ، ويراهُ خواصُهم كلَّ يوم بُكرةً وعَشِيا، وبعضُهم لا يزالُ مستمراً في الشُهودِ، حتى قال أبو يزيدِ البَسطامي: إنَّ لله خواصَّ من عبادِهِ لو حجَبهم في الجنةِ عن رؤيتِهِ ساعةً لاستَغاثوا منَ الجنةِ ونعيمِها كما يستغيثُ أهلُ النارِ منَ النارِ وعذابِها. وأمّا في عَرَصاتِ القيامةِ كالمَوقفِ فالصحيحُ وقوعُها أيضاً لأنه وردَ في الحديثِ: «يُنادى إذا كانَ يَومُ القيامةِ لتلزَمْ كلُ أمةٍ معبودَها، فتقولُ هذهِ الأمةُ هذا مكاننا حتى يأتينا ربُنا، فيظهرُ لهم. فيقولُ أنا ربُكم، فيقولونَ نعوذُ بالله إنكَ لستَ ربَنا فيتجلى لهم تجلياً لائقاً بحالِ المقَام ويكشفُ عن الساقِ ويقولُ أنا ربُكم، فيراه المؤمنونَ كما يعلمون فيَخِرونَ سُجَّدا إلا المنافقَ»(١)

وكَشفُ الساقِ عبارةٌ عن رَفعِ الحِجابِ على ما عليهِ الخَلفُ، والرؤيةُ جائزةٌ عقلاً، لأنَّ الله تعالى عَلّقَها بأمرٍ جائزٍ وهو استقرارُ الجبلِ، حينَ سأل موسى عليه السلام ربَّنا تبارك وتَعالى: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف: ١٤٣]

والاستدلالُ بالآيةِ على المقصودِ من وجهينِ، الوجهُ الأولُ: لو كانتِ الرؤيةُ مُمتَنِعةً في الدنيا ما سَألها موسى عليه السلامُ، لأنَّه نبيٌّ يعلمُ ما يجبُ لله وما يستحيلُ وما يجوزُ، ولا يجوزُ على أحدٍ من الأنبياءِ الجهلُ بشيءٍ من أحكامِ الألوهيةِ، والوجهُ الثاني أنَّ رؤيةَ الباري عُلِّقتْ على أمرٍ مُمكنٍ وكلُ ما عُلِّقَ على أمرٍ مُمكنٍ لا يكونُ إلا مُمكِناً، فرؤيةُ البَاري لا تكونُ إلا مُمكنةً.



(١) رواه البخاري (٧٠٠١) ومسلم (١٨٣).

وقولُ المعتزلةِ: إنَّ موسى عليه السلامُ سَألها لأجلِ جَهَلَةِ قومِهِ، وإنَّ لنْ الداخلةَ على تَرَانِي للتأبيدِ، وقولُهم استقرارُ الجبلِ حالةَ تَحرُكِه مستحيلٌ، كلُّ ذلكَ تَقَوُّلٌ منهم، فهو مردودٌ بَدَاهةً، ورؤيةُ الربِ سبحانَه وتَعالى في الدنيا لم تثبتْ إلا لنبينا محمد ﷺ، فقد رجَّح أكثرُ العلماءِ أنَّه رأى ربَّه بِعَيْنَيْ رأسِه وهما في مَحلِهما ليلةَ الإسراءِ، ولا يقدحُ في هذا حديثُ عائشةَ وهو قولُها: مَنْ حَدَّثَ أنَّ محمداً رأى ربَّه فقد أعظَم الفِريةَ. لأنها رضي الله عنها لم تُخبِرْ أنَّها سمعتْ أنَّ النبيَّ ﷺ يقولُ: لم أرَ ربي، وإنما ذكرتْ ما ذكرتْ مُتَأوِّلةً لقول الله تبارك وتعالى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ [الشورى: ٥١] ولقوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ [الأنعام: ١٠٣] والصَحابيُ إذا قالَ قولاً خَالفَهُ غيرُهُ من الصحابةِ لم يكنْ قولهُ حجةً إتفاقاً، وإذا صَحتْ الرواياتُ عن ابنِ عباس في إثباتِ الرُؤْيةِ وجبَ المصيرُ إلى إثباتِها، فإنَّها ليستْ مما يُدرَكُ بالعقلِ ويُؤخَذُ بالظنِ وإنَّما تُتَلَقى بالسَّماعِ، ولا يستجيزُ أحدٌ أن يظنَّ بابنِ عبَّاس رضي الله عنه أنَّه تكلَّم في هذه المسألةَ بالظَّنِ والاجتهادِ، وقد قال مَعمَرُ بنُ راشدٍ حينَ ذَكر هذهِ القضيةَ: ما عائشةُ عِندَنا بأعلمَ من ابنِ عباس، ثُمَّ إنَّ ابنَ عباس أثبتَ شيئاً نَفَاهُ غيرُه والمُثبتُ مُقَدَّمٌ على النَافي. أخرجَ الطبراني بسندٍ صحيحٍ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهُ أنَّه كانَ يقولُ: (نظرَ محمد إلى ربه مرتينِ مرةً ببصره ومرة بفؤادِه)[1] على أنَّه عليه الصلاةُ والسلامُ كانَ يراهُ تعالَى في كلِ مرةٍ من مراتِ المُراجعةِ. ومنْ كلام ابنِ وفَا: إنما كان مراجعةُ موسَى عليهِ الصلاةُ والسلامْ للنبيِّ ﷺ في شأنِ الصلواتِ لِتَكررَ مشاهدةُ أنوارِ المَراتِ وأنشد يقول:

والسرُ في قولِ مُوسى إذ يُراجعه ... لِيجتلى النورَ فيه حيثُ يشهدُهُ
يبدو سَناه على وجهِ الرسولِ فيَا ... لله حُسْنُ رَسولٍ إذْ يُرددُهُ

والحكمةُ الظاهريةُ التخفيفُ في التشريع، وقد ثبتتْ الرؤيةُ في المنامِ لكثيرِ من الأولياءِ وعبادِ الله الصالحينَ، فإنَّ الشيطانَ لا يتمثلُ به تَعالى كالأنبياء عليهم الصلاةُ والسلامُ، والشواهدُ كثيرةٌ، حُكيَ أنَّ الإمامَ أحمدَ رحمه الله رأى المولى



(١) قال في مجمع الزوائد (١/ ٧٩) رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح خلا جهور بن منصور الكوفي ذكره ابن حبان في الثقات.

سبحانَه وتعالى في المنَام تسعاً وتسعينَ مرةً وقال: وَعزّتِهِ إنْ رأيتُه تمامَ المائة لأسألَنَّهُ، فرآه فقالَ: سيدي ومولاي ما أقربُ ما يتقربُ به المتقربونَ إليكَ، قال: تلاوةُ كلامِي، فقال: بِفهْمٍ أو بغير فَهمْ؟ فقال: يا أحمدُ بِفَهْم وبغيرِ فَهم. وقد قالَ بعضُ الصوفيةِ أنّهُ رأى ربَّه في منامِهِ على وَصفهِ فَقِيلَ لَهُ كَيفَ رأيتَهُ فقالَ انعكسَ بَصري في بَصِيرَتي فصرتُ كُلي بَصراً فرأيتُ مَنْ ليسَ كَمثلِهِ شيءٌ.

# القسم الثاني

## (النبـوات)

٥٧ـ ومِنهُ إرسالُ جَميعِ الرُسْلِ فلا وُجُوبَ بَلْ بِمَحْضِ الفَضْلِ
٥٨ـ لكِنْ بِـذَا إيمانُنَا قَـدْ وجَبَا فَدَعْ هَوَى قَوْمٍ بِهِمْ قَدْ لَعِبَا

[رد القول بوجوب إرسال الرسل عليهم السلام:]

مِنَ الجائزِ العقلي في حقهِ تعالى إرسالُ الرسل عليهم الصلاةُ والسلامُ من آدَم إلى سيدِنا محمد ﷺ، وهذا الإرسالُ ليسَ واجباً عليه ولا مُستحيلاً، كما يقولُه المعتزلةُ والفلاسفةُ في الأول والبراهِمة في الثاني، بل بإحسانه الخالصِ، ومَبْنى كلامِ المعتزلةِ على قاعدةِ وجوبِ الصَّلاح والأصلح، ومَبنى كلام الفلاسفةِ على قاعدةِ التعليلِ، فيقولونَ: يلزمُ من وجودِ الله وجودُ العالَم بالتَّعليلِ، ويَلزَمُ مِنْ وجودِ العَالَمِ وجودُ مَنْ يُصْلِحُهُ، وهذا الإلزامُ باطلُ، ومذهبُ أهلِ السنةِ جَميعاً هو المَذهبُ المختارُ اللائقُ بالأدبِ مع الفاعلِ المختارِ، فإياكَ أنْ تميلَ مع المخالفينَ. وتعتقدَ ما اعتقَدُوه من العقائدِ الباطلةِ التي زيَّنَها الشيطانُ لهم وأملى لهم حتى أوقعهم في البِدَعِ والمعَاصي والكُفرِ، نعوذُ باللهِ من ذلكَ.

* * *

٥٩ـ وَوَاجِبٌ فـي حَقِّهِـمُ الامَـانَـةْ وَصِدْقُهُمْ وَضِفْ لـه الفَطَانَـةْ
٦٠ـ وَمِثْـلُ ذا تَبْليغُهُـمْ لِمَـا أَتَـوْا وَيَسْتَحيـلُ ضِدُّهـا كَمَـا رَوَوْا

[الواجب والمستحيل في حق الرسل عليهم الصلاة والسلام:]

لمَّا أنهَى الكلامَ على ما يجبُ لله وما يستحيلُ وما يجوزُ، شَرَعَ في الكلامِ على ما يجبُ في حقِ الرُّسلِ وما يستحيلُ وما يجوزُ، والواجبُ هو الذي لا يقبلُ الانفكاكَ، فَذكرَ المصنفُ أربعةَ أشياءِ ملازمةً للرسلِ عليهم الصلاةُ

والسلامُ كمُلازَمةِ الظلِ للشَّاخِصِ، أولُها: الأمانةَ. وثانيها: الصدقُ. وثالثها: الفَطَانَةُ. ورابعُها: التبليغُ.

فمعنى الأمانةِ في حقهم: أنَّهم قائمونَ بأمرِ الله حافظونَ لِحُدودِه، محفوظةٌ ظواهِرُهم وبواطنهُم من ارتكابِ مَنهيٍ، ولو نُهيَ كَرَاهةً، أو خِلافَ الأولى، أو مُباحَاً، فأفعالُهم عليهمُ الصلاةُ والسلامُ دائرةٌ بينَ الواجبِ والمندُوبِ - بلْ في الأولياءِ الذينَ هم أتباعُهم مَنْ تَصيرُ حركاتُه وسَكَنَاتُه طاعةً بالنياتِ - وإذْ وَقَعَ صورةُ ذلك مِنهم فهو للتشريعِ فيصيرُ واجباً في حقِهم أو مَندوباً، وكلُّ ما أوهمَ المعصيةَ مِنهم فَمُؤَوَّلٌ بأنَّه من حَسناتِ الأبرارِ سيئاتُ المقربين، ولا يجوزُ التكلمُ بِهِ في غيرِ مَوْرِدِهِ إلاّ في مَقام البيَانِ، ومّا وقعَ مِنْ آدمَ عليهِ السلامُ فهو معصيةٌ لا كَالمعَاصي، لأنَّه تأوَّلَ الأمرَ لسرٍ بَينَهُ وبينَ خالقِه وإنْ لم نعلمه، أو كان سهواً قبلَ النبوةِ، ولا نقولُ كما قالَ بعضُهم مما يخالفُ ظاهِره الشَّرعَ: (لو كنتُ بدلَ آدمَ لأكلتُ الشجرة بتَمامِها فهو وإنْ كانَ منهياً ظاهِراً فَهو مأمورٌ بهِ باطناً). وكذا يُقالُ فيما وَقعَ من إخوةِ يُوسُفَ على القول بأنَّهم أنبياءُ، ودليلُ وجوبِ الأمانةِ لهم عليهمُ الصلاةُ والسلامُ، أنَّهم لو خانوا بفعلِ مُحرَّم أو مكروهٍ أو خِلافِ الأوْلى لَكُنَّا مأمورينَ بهِ، لأن الله سبحانه وتَعالى أمرنا باتباعِهم في أقوالِهم وأفعالِهم وأحوالِهم من غيرِ تَفصيلٍ، وهو تَعالى لا يأمُر بمُحرَّمٍ ولا مَكرُوهٍ ولا خِلافِ الأولى. والصدقُ معناهُ في حَقِّهم أنَّ أخبارَهم مطابقةٌ للواقعِ ولو بِحسَبِ اعتقادِهم، كما في قوله ﷺ: «كلُّ ذلكَ لم يكنْ» لمّا قال لَهُ ذو اليَدين: أَقصُرَتْ الصلاةُ أمْ نَسيتَ يا رسولَ الله[1] حينَ سَلَّم مِنْ رَكعتَينِ، ودليلُ وجوبِ صدقِهم عليهمُ الصلاةُ والسلام: أنَّهم لو لَمْ يَصدقُوا لَلَزِمَ الكذبُ في خَبرِه تَعالى لِتَصديقِه تَعالى لهم بِالمعجزةِ النازلةِ مَنزلةَ قولِهِ تَعالى: «صدق عبدي في كل ما يبلغ عني» وتَصديقُ الكاذبِ كَذبٌ وهو محالٌ في حقِه تَعالى.

والفَطَانةُ معناها في حقِّهم: التَّفطُنُ والتَّيقُظُ لإلزامِ الخصُومِ وإبطالِ دَعاوِيهِم الباطلةِ، والدليلُ على وجوبِ الفَطانَةِ لهم عليهمُ الصلاةُ والسلامُ آياتٌ كقولِهِ تَعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ

---

(١) رواه البخاري (١١٦٩) ومسلم (٥٧٣) ومالك (١/ ٩٣-٩٤) وأبو داود (١٠٠٨-١٠١٢) والترمذي (٣٩٤-٣٩٩) والنسائي (٣/ ٣٠-٣٦).

﴿حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣] وهذه الإشارةُ عائدةٌ إلى ما احتجَّ به ابراهيمُ على قومه من قوله تعالى على لسانه: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٧٦ - ٨١] وكقولِ الله تعالى حكايةً عن قوم نُوح: ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [هود: ٣٢] وقولُه تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] ومَنْ لمْ يكنْ فَطناً لا يمكنهُ إقامةُ الحُجةِ ولا المُجادَلَةِ، فاللائقُ بِمنصِبِ النُبوةِ أنْ يكونَ عندَهم مِنَ الفَطَانَةِ ما يَرُدُّون به الخصمَ.

والتَّبليغُ معناهُ في حقِّهم أنَّهم بلَّغوا رسالةَ ربِّهم إلى مَنْ أُرسِلوا إليهم ولم يكتموا شيئاً. والدليلُ على ذلكَ أنَّهم لو كَتموا شيئاً مما أُمِروا بِتَبليغِه للخَلْقِ لَكُنَّا مأمورينَ بِكتمانِ العِلْمِ لأننا مأمورنَ بالاقتداءِ بهم وكاتِمُ العِلْمِ مَلعونٌ، ولو جاز عليهم كِتمانُ شيءٍ من العِلم لَكتَمَ رئيسُهم الأعظم قولَه تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]

وهذا إعلامٌ مِن الله تَعالى لنَبيه عليهِ الصلاةُ والسلامُ أنَّ زينبَ ستكونُ مِن أزواجِه، فلمَّا شكاها إليه زيدٌ، قال له: أمسكْ عليكَ زوجَك واتقِ الله، وأخفى في نفسِه ما اللهُ أعلمُ به، واللهُ مُبْدِي ذلكَ بطلاقِ زيدٍ لها وتزويجها لهُ عليه الصلاةُ والسلامُ، ومعنى الخشيةِ استحياؤهُ ﷺ مِنَ الناس أنْ يقولوا: تزوجَ زوجةَ مَنْ تَبنَّاهُ، فعاتَبَهُ اللهُ على هذا الاستحياءِ لِعُلوِ مَقَامِه، هذا ما وردَ في تفسيرِها عن علي بن الحُسَين، أما ما ذكرهُ أهلُ السِّيَرِ والأخبارِ من أنَّ زينبَ عَلقتْ بقلبِ النَّبيِّ ﷺ وأخفى ذلكَ فهو لا يُلتفتُ إليه فَحاشاهُ ﷺ من ذلك.

هذا ما يجبُ للأنبياءِ عليهم الصلاةُ والسلامُ أمّا ما يستحيلُ في حقِّهم فهو ضِدُّ الصفاتِ الواجبةِ، وهي الخيانةُ ضِدُّ الأمانةِ، والكَذبُ ضِدُّ الصدقِ، والغَفلةُ ضِدُّ الفَطانةِ والكِتمانُ ضِدُّ التبليغِ

* * *

٦١ـ وَجَائِزٌ فِي حَقِّهِمْ كَالأَكْلِ ... وَكَالْجِمَاعِ لِلنِّسَا فِي الْحِلِّ

[الجائز في حق الرسل عليهم الصلاة والسلام:]

لمَّا قدَّمَ الكلامَ على الواجبِ في حقِ الرُسلِ والمستحيلِ، كذلكَ شرَعَ في الكلامِ على الجائزِ في حقِّهم، فيجوزُ عليهمُ الأعراضُ البشريةُ التي لا تُؤدي إلى نَقْصٍ في مراتِبهم العَليّةِ، كالأكلِ والشربِ والنَومِ والجِماعِ سَواء كُنَّ مسلماتٍ أو كتابيّاتٍ لا مجُوسياتٍ، أما الأعراضُ التي تؤدي إلى نقصٍ في مَراتِبهِمْ فلا تجوزُ عَليهم، مثلُ المرضِ المُنفِرِ كالجنونِ والجُذامِ والبَرصِ والعَمى والفقرِ المُدْقع وسوءِ الخُلُقِ وخِسَّةِ الأصلِ، فلمْ يثبتْ أنَّ شُعيباً كانَ ضَريراً وما كان بيعقوبَ فهو حجابٌ على العينِ منْ تَواصلِ الدُموعِ، فلذلكَ لمَّا جاءهُ البشيرُ ارتدَّ بصيراً لانقطاعِ دمعِ العَينِ، وما كانَ بأيوبَ من البَلاءِ وإنْ كان عظيماً فالحقُ أنّه كانَ بينَ الجلدِ والعَظمِ، فلمْ يكنْ مُنفِراً، وما اشتهرَ في القِصةِ من الحكاياتِ فيهِ فهي باطلةٌ، وأمَّا السهوُ فهو مُمتَنعٌ عليهم في الأخبارِ البلاغيّةِ، مثل عذابِ القبرِ ونَعيمهِ وغيرِها كقيامِ زَيْدٍ، أمّا ما صدَرَ عنهُ ﷺ حينما مرَّ على مَنْ يُلَقِّحُ النَّخلَ فقالَ لهم: لو تَركتمُوهُ لَصلحَ، فَفعَلوا فشاصَ، فَهو ليسَ من الخبرِ المعروضِ للصِّدقِ والكَذبِ، وإنَّما هو منْ بابِ الرأيِ والاستشارةِ في أمرٍ دنيوي لا أمرٍ ديني، فلذلكَ أمرَهم بالرجوعِ لِعاداتِهم. وقال لهم: «أنتم أعلمُ بأمورِ دُنياكم»[1]

وأما السَّهوُ في الأفعالِ البلاغيّةِ فيجوزُ عليهم للتشريعِ، كَسهوِ الرسولِ ﷺ في الصلاةِ، وبغيرِ التَّشريعِ، لا مثلِ الإخبارِ بوجودِ الجنةِ وعذابِ القَبرِ، إلا أنَّ هذا السهوَ الجائزَ عليهم لَيسَ ناشئاً عَن اشتغالهم بِغيرِ ربِّهم، ولذا قال بعضهم:

---

(١) رواه مسلم في كتاب: الفضائل. باب: وجوب امتثال ما قاله شرعاً دون ما ذكره ﷺ من معايش الدنيا على سبيل الرأي الحديث (٢٣٦٣).

يا سائلي عن رسولِ الله كيفَ سَهَا ... والسَّهوُ مِنْ قلبِ غافلٍ لاهِ
قد غابَ عنْ كلِّ شيءٍ سرُّه فَسَها ... عمَّا سِوَى الله فالتَّعظيمُ لله

وأما النِّسيانُ فممتنعٌ في البلاغيات قبل تَبليغِها، قَوليَّةٌ كانتْ أو فعليَّةٌ.

فالقوليَّةُ كالجنةِ أُعدَّتْ للمتقينَ، والفعليةُ كصلاةِ الضُحى إذا أمرَهم الله بفعلها لِيُقتَدَى بِهم فيها فلا يجوزُ نسيانُ كلٍّ منهما قبلَ تبليغ الأولى بالقولِ والثانيةِ بالفعل، فيجوزُ نسيانُ كل ما ذُكِرَ مِنَ الله تَعالى، وأمّا نسيانُ الشيطانِ فمستحيلٌ عليهم، إذْ ليسَ للشيطانِ عليهم سبيلٌ، وقولُ يوشع: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ [الكهف: ٦٣] تواضعٌ منهُ أو قبلَ النُبوةِ، ووسوسةُ الشَّيطانِ لآدَم تمثيلٌ ظاهريٌّ، والممنوعُ لَعِبُهُ بِبواطِنِهم، فالبواطنُ مصونةٌ، والظواهِرُ محفوظةٌ، مما لا يُؤدي إلى نقصٍ في مراتبهم عليهمُ الصلاةُ والسلامُ

* * *

٦٢- وَجَامِعُ مَعْنَى الَّذِي تَقَرَّرا ... شَهَادَتَا الإِسْلَامِ فاطْرَحِ المِرَا

[علاقة الشهادتين بجميع العقائد الدينية:]

إنَّ جميعَ العقائِد الإيمانيةِ الواجبةِ الاعتقادِ شَرعاً، مما يرجعُ إلى الألوهيةِ والنبوةِ وجوباً وجَوازاً واستحالةً، مندرجةٌ في شَهادَتي الإسلام وهي: (أشهد أن لا إلهَ إلاَّ اللهُ وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُهُ) وهما اللتانِ لَا يحصلُ الإسلامُ إلا بِهما. لأنَّ الجملةَ الأولى مِنَ الشَهادةِ أثبتتِ الألوهيةَ لله تَعالى ونَفَتْهَا عن كلِّ ما سواهُ، وحقيقةُ الألوهيةِ وجوبُ الوجودِ والقِدَم الذَّاتي، ويلزمُ منه استغناؤه عن كلِّ ما سواهُ وافتقارُ كلِّ ما سواه إليه، كما يوجبُ له البقاءَ ومُخالَفتَه للممكناتِ والتَّنزُهَ عن النقائِصِ، كالأغراضِ في الأفعالِ والأحكَامِ، ووجوبُ افتقارِ المُمكنَاتِ إليه، يستلزمُ وجوبَ حياتِه، وعمومَ قُدرَتِه وإرادتِه وعِلْمِه وَوَحْدَتِه، وعَدَمَ تأثيرِ شيءٍ سواهُ تَعالى في شيءٍ منها، ومتى وجبتْ هذهِ الأمورُ لهُ تَعالى استحالتْ نقائِضُها عليهِ تعالى، وجازَ ما سِوى ذلكَ في حقِّه تَعالى.

ويُؤخَذُ مِنَ الجملَةِ الثانيةِ وجوبُ الإيمانِ بسائرِ الأنبياءِ والرُسلِ والملائكة

والكُتبِ السماويةِ واليومِ الآخرِ وما فيه، إذ التصريحُ برسالتهِ ﷺ يستلزمُ تصديقهُ في كلِّ ما جاءَ بهِ، ومِنْ جُمْلَتِهِ ما ذُكِرَ، ويُعلَمُ مِنهُ أيضاً وجوبُ صدقِهم واستحالةُ الخيانةِ والكذبِ عليهم، وجوازُ جميعِ الأعراضِ البشريةِ التي لا تُنْقِصُ مراتِبَهم عليهمُ الصلاةُ والسلامُ، لِهذا المعنَى جعَلها الشارعُ ترجمةً عَما في القَلبِ مِنَ الإيمانِ، ودليلاً على الانقيادِ الظاهري للإسلامِ، ولمْ يقبلْ من أحدِ الإيمانَ مع القُدرةِ عليهما إلا بِهما، وقد نصَّ العلماءُ على أنَّه لا بُد مِن فهمِ مَعناهُما ولو إجمالاً، وإلا لمْ ينتفعْ بهما في الخَلاصِ من الخلودِ في النَّارِ، إذا عَلِمتَ أيُّها الطالبُ ذلِكَ فاجزمْ بصحةِ ما ذُكِرَ، ولا تجادِلْ فيما هُنالِكَ.

* * *

٦٣ـ وَلَـمْ تَكُـنْ نُبُـوَّةٌ مُكتَسَبَـهْ ... وَلَوْ رَقَى في الخيرِ أَعلَى عَقَبَهْ

٦٤ـ بَلْ ذَاكَ فَضْلُ الله يُؤْتِيهِ لِمَنْ ... يَشَـاءُ جَـلَّ الله واهِـبُ المِنَـنْ

[النبوة ليست مكتسبة:]

النبوةُ شَرْعاً: هي إيحاءُ الله تَعالى لإنسانٍ عاقِلٍ حُرٍ ذَكَرٍ بِحُكمٍ شَرعي تَكليفي سواءٌ أَمَرهُ بِتَبليغِه أَمْ لا، كانَ معهُ كتابٌ أمْ لا، كانَ لهُ شَرعٌ مُتَجدِدٌ أم لاَ، كان له نَسخٌ لشرعٍ مِنْ قَبلِهِ أو بعضِه أم لا، وكذا الرسالةُ في اشتراطِ التَّبليغِ فإنَّه لا بدَّ منهُ في مَفهومِها، وهذهِ النُبوةُ أو الرِّسالةُ لا تُنالُ بِمجرَّدِ الكَسْبِ، ولا بالجِدِ والاجتهادِ ومُبَاشَرَةِ أسبابٍ مَخصُوصةٍ كما زَعمَ الفلاسفةُ، ولو اقتحمَ العبدُ أشقَّ العباداتِ، بلْ هي بمحضِ فضلِ الله تعالى واصطفائِه: ﴿ٱللَّهُ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ﴾ [آل عمران: ١٧٩] ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحج: ٧٥].

جلَّ واهبُ المِنَنِ البَارِي تعالى.

* * *

٦٥ـ وأَفْضَلُ الْخَلْقِ عَلى الإِطْلاَقِ      نَبِيُّنَـا فَمِـلْ عـنِ الشِّقَـاقِ

## [سيدنا محمد ﷺ أفضل الخلق:]

ممَّا لا شكَّ فيهِ أنَّ نبينَا محمداً ﷺ أفضلُ الأنبياءِ والرُّسلِ على الإطلاق، لقوله عليهِ الصلاةُ والسلامُ: «أَنَا أكرَمُ الأوَّلِينَ والآخِرِينَ عَلَى الله تعالى وَلاَ فَخْرَ»(١)

ولأنَّ أمَّتَه خيرُ الأمم لِقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]

أي عُدُولاً وخياراً، ولا شكَّ أنَّ خيرَ الأمم إنما هي بِحَسَبِ كمَالِها في الدِّين، وذلكَ تابعٌ لِكمَالِ نبيِّها الذي تَبِعَتْهُ، فَتفضيلُها تفضيلٌ له. ومنَ البراهينِ القَاطِعةِ بتفضيلِهِ على جميعِ الأنبياءِ والرُّسلِ الكرامِ عليهم الصلاةُ والسلامُ اختصاصهُ بالرسالةِ العامةِ علَى الخَلْقِ أجمعينَ، قالَ تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

فَشملت رسالتُه الإنسَ والجِنَّ وهذا مما وقعَ عليهِ الإجماعُ وعُلِمَ من الدِّينِ بالضَرورةِ. وإرسالُه على الملائكةِ إرسالَ تشريفٍ لا إرسالَ تكليفٍ، لأنهم ليسوا بِمُكلَّفين. وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

مؤمِنهمْ وكافِرهم، في الدين والدنيا، أما في الدين فلأنَّه ﷺ بُعِثَ والناسُ في الجاهليةِ والضلالِ فهداهُم إلى سبيلِ الرشادِ، وأمَّا في الدّنيا فلأنهم تَخلَّصوا به من الذل ونُصِرُوا ببَركةِ دِينه، وأمَّا كونُهُ رحمةً في حقِ الكفارِ أمْنُهم ببعثَتِهِ من الخَسْفِ والمَسْخِ والقَذْفِ والاستئصَال. وأخرجَ الإمامُ أحمدُ عن عليّ كرمَ الله وجهَه أنَّه قال عليه الصلاةُ والسلامُ: «أُعطيتُ مالمْ يعطَ أحدٌ من الأنبياءِ نُصرتُ بالرُّعبِ وأُعطيتُ مفاتيحَ الأرضِ، وسُميتُ أحمد، وجُعِلَ التُرابُ لي طَهوراً وجُعلتْ أمتي خيرَ الأممِ»(٢)

---

(١) رواه الترمذي، في المناقب باب رقم (٣) الحديث (٢٦٢٠) وفي مسنده زمعة بن صالح وهو ضعيف وقال الترمذي هذا حديث غريب.

(٢) رواه البيهقي (١/ ٢١٣ـ٢١٤) وعزاه في مجمع الزوائد (١/ ٢٦٠) إلى أحمد وحسنه الهيثمي وأصل الحديث في الصحيحين.

وورد عن ابنِ عباسَ رضي الله عنهما أنّه قالَ: ما خلقَ الله وما ذرأ وما برأ نفساً أكرمَ من محمدٍ ﷺ، ما سمعتُ الله سبحانه أقسَم بحياةِ أحدٍ غيرِه، وأمّا حديثُ «ذاكَ ابراهيمُ جواباً» لمن قال له: يا خيرَ البريةِ[1]، فهو محمولٌ على مزيدِ التواضعِ وغايةِ رعايةِ الأدبِ مع إخوانِه من الأنبياءِ عليهمُ الصلاةُ والسلامُ، فقد ثبتَ التفاضلُ بين الأنبياءِ في القرآنِ بقولِه تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]

* * *

٦٦ـ والأنبيا يلونَهُ في الفضلِ ... وبعدهُم ملائكةُ ذي الفضلِ
٦٧ـ هذا وقومٌ فصّلوا إذْ فضّلوا ... وبعضُ كلٍّ بعضَهُ قدْ يفضلُ

[مراتب التفضيل:]

مما يجبُ أنْ يعتقدَ أنَّ الأنبياءَ والرسلَ عليهمُ الصلاةُ والسلامُ يتبعونَ محمداً ﷺ في الفضلِ، فمرتبتهمُ بعدَ مرتبتِه وإنْ تفاوتُوا فيها، للقُربِ منه عليهِ الصلاةُ والسلامُ، فأولوا العزمِ منَ الرُّسلِ أفضلُ من بقيّةِ الرُّسل وهم أفضلُ من الأنبياءِ والملائكةِ، وهم أجسامٌ لطيفةٌ نورانيةٌ قادرةٌ على التَّشكُّلِ بأشكالٍ مُختلِفَةٍ، كاملةٌ في العلمِ والقدرةِ على الأفعالِ الشَّاقةِ، شأنُها الطاعاتُ، ومسكنُها السمواتُ، رسلُ الله تعالى إلى أنبيائِه عليهمُ الصلاةُ والسلامُ وأُمناؤهُ على وَحْيِه، يُسَبِّحُونَ الليلَ والنهارَ لا يَفْتُرونَ، لا يَعصُونَ الله ما أمرَهم ويفعلونَ ما يُؤمرُونَ، لا يُوصَفُون بِذُكُورةٍ ولا بِأنُوثةٍ، هؤلاء الملائكةُ في الفَضلِ بعدَ الأنبياءِ أنّهم أفضلُ من غيرِ الأنبياءِ من البشرِ كأبي بكرٍ وعُمرَ رضي الله عنهما، وعلى كلٍ السكوتُ عنْ هذه المسألةِ أسلمُ، فما هي مُما كُلِّفَ الناسُ بِمعرفتِه، ولو لَقِيَ الله ساذَجاً من هذه المسألةِ بالكُليةِ لمْ يكنْ عليهِ إثمٌ هذا ما قالَه التَّاجُ السُبكي، فقدْ وردَ ما يمنعُ من الدُخولِ في ذلكَ كقولِه عليهِ الصلاةُ والسلامُ «لا تفضلوني على يونس بن مَتّى»[2].



(١) رواه مسلم (٣٣٤٩) والترمذي (٣٣٤٩) وأبو داود (٤٦٧٢).
(٢) أورد هذا اللفظ في البداية والنهاية (١/ ٣١٢) وعزاه إلى بعض ألفاظ الحديث =

والذي ينشرحُ له الصدرُ وَيثلجُ له الخاطرُ، إطلاقُ القولِ بأنَّ نبينا مُحمداً ﷺ خيرُ الخَلْقِ أجمعينَ من مَلَكٍ وبَشَرٍ؛ وخيرُ الناسِ بعدَ الأنبياءِ والملائكةِ أبو بكرٍ، ثم عمر، ثم عثمان، ثُمَّ عليٌّ رضيَ الله عَنهم أجمعينَ وعنا يا أرحم الراحمينَ، هذا المذكورُ من تَفضيلِ الأنبياءِ على الملائكةِ على غيرِ الأنبياءِ من البشرِ من غيرِ تَفْصيلٍ، هو طريقُ الأشاعرةِ المرجُوحةِ، وقَدَّمها لأنَّها طريقتُهُ، وأشارَ إلى الطريقِ الثانيةِ وهي طريقُ الماتريديةِ، لم يقولوا بأفضَلية جُملةِ كلِّ فريق ممنْ تَقَدَّمَ على جُملةِ كلِّ فريقٍ يليه، بل فصَّلوا القَولَ في التَّفضيلِ بين الفريقَين، فقالوا: رُسلُ البشرِ كَموسى أفضلُ من رُسلِ الملائكةِ كَجبريلَ، ورُسلُ الملائكةِ أفضلُ من عامةِ البشرِ كأبي بكرٍ وعُمرَ، وعامةُ البشرِ أفضلُ من عامةِ الملائكةِ كَحَمَلةِ العَرشِ والكُرسي والكَروبيينَ[1] ، ومما يجبُ اعتقادُه أنَّ بعضَ الأنبياءِ كأولي العزمِ أفضلُ من غيرِهم، وبعضَ أولي العزمِ كنبينا محمدٍ ﷺ أفضلُ من غَيرِهِ منهم كإبراهيمَ عليه السلامُ، وهو أفضلُ ممن بَقي لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥] ﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] وأَنَّ بعضَ الملائكةِ كالرُسلِ منهم أفضلُ من غَيرِهم منهم، وبعضَ الرُسل مِنهم كجبريلَ أفضلُ من غيرِه منهم كميكائيلَ، وهو أفضلُ ممنَ بقي لقولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [الحج: ٧٥] وتلخيصُ ما أشارَ إليه أولاً وآخراً أنَّ نبينا محمداً ﷺ أفضلُ المخلوقاتِ على الإطلاقِ، ثم ابراهيمُ. ثم مُوسى. ثم عيسى. ثم نوح. ثم بقيةُ الرسلِ. ثم الأنبياءُ غير الرُسل ثُمَّ هم فيما بينهم مُتَفاضِلونَ أيضاً عند الله تعالى ثم رأسُ رسلِ الملائكةِ. ثم مَنْ يليهِ منهم. ثم بقيةُ رُسلهم. ثم بقيتُهم غيرُ الرسلِ. ثمّ هم أيضاً فيما بَينهم.

* * *



= وأصل الحديث في البخاري في الأنبياء باب قول الله وإن يونس لمن المرسلين ومسلم (٢٣٧٧) وأبو داود (٤٦٦٩).

(١) الكروبيين: هم ملائكة حافون بالعرش طائفون به، لقبوا بذلك لأنهم متصدون للدعاء برفع الكرب عن الأمة.

٦٨- بالمُعْجِزَاتِ أُيِّدُوا تَكَرُّمَا وَعِصْمَةُ البَارِي لِكُلٍّ حَتَمَا

٦٩- وخُصَّ خيرُ الخَلقِ أنْ قَدْ تَمَّمَا بِهِ الجميعَ رَبُّنَا وعَمَّمَا

٧٠- بِعْثَتَهُ فَشَرْعَهُ لا يُنْسَخُ بِغَيْرِهِ حَتَّى الزَّمانُ يُنْسَخُ

[المعجزات:]

مِنَ الواجباتِ الاعتقاديةِ أنَّ الله تباركَ وتَعالى أَيَّدَ أنبياءَه بمعجزاتٍ تَصديقاً لِدَعواهم، وهي نازلةٌ منزلةَ قولِ الله تعالى: «صدق عبدي في كل ما يبلغ عني».

والمعجزةُ: هي أمرٌ خارقٌ للعَادةِ، مقرونٌ بالتَّحدي مع عَدَمِ المُعَارَضَةِ، والتَّحدي دَعوى الرِّسالةِ، وقد اشتملَ هذا التعريفُ على ما اعتبرَ المحققونَ في المعجزةِ مِنَ القيودِ سبعة.

أولُها: أَنْ يكونَ فِعلاً لله تَعالى أو ما يقومُ مقامَه من التركِ، لِيُتَصورَ كونُهُ تَصدِيقاً منهُ تَعالى للآتي بهِ، فالفعلُ كنبعِ الماءِ من الأصابعِ الشَّريفةِ[1] والتركُ كَعدَمِ إحراقِ النَّارِ لابراهيمَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ.

وثانيها: أَنْ يكونَ خَارِقاً للعادَةِ، لأنَّ الإعجازَ لا يكونُ إلا بهِ.

وثالثها: أنْ يكونَ ظُهورُه على يدِ مُدَّعِي النُبوةِ لِيُعلَم أنَّه تصديقٌ لَهُ.

ورابعُها: أَنْ يكونَ مُقارِناً للدَّعوى حقيقَةً أو حُكماً، لأنَّها شهادةٌ ولا تكونُ قبلَ الدَّعوى.

خامسُها: أَنْ يكونَ موافقاً لِلدَّعوى، فالمخالفَةُ لا يُعَدُّ تَصديقاً، كَفَلْقِ الجبَلِ عِند قولِ مُدَّعي الرسالة: مُعجِزَتي فَلْقُ البحرِ.

سادِسُها: أَنْ لا يكونَ مُكَذِباً لَهُ مَنْ كانَ مما يُعتبرُ تكذيبه، كقولِهِ مُعجِزَتي نُطْقُ هذا الجمادِ، فَنطَقَ بِأنَّه مفترٍ كذَّاب.

سابعُها: أَنْ تَتَعذَّرَ معارَضتُه إلا مِنْ نَبيٍّ مِثله.

وزادَ بعضُهُم ثامناً: أنْ لايكونَ الخارقُ واقعاً زمانَ نقضِ العاداتِ، فما يقعُ عندَ قِيامِ الساعةِ وَفيها لايُعَدُّ مُصدِقاً. وإنَّ هذهِ المعجزاتِ تَفَضُّلٌ وتَكرُّمٌ

---

(١) رواه البخاري (٣٣٧٩ و ٣٣٨٢) ومسلم (٢٢٧٩) ومالك (١/ ٣٢) والترمذي (٣٦٣٥) والنسائي (١/ ٦٠)

وإحسانٌ منه تعالى من غير إيجابٍ ولا وجوبٍ، إذ لا يجبُ عليهِ شيءٌ لأحدٍ مِن خَلقِهِ ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

## [مسألة العصمة]

كما وأنَّ عصمَته تعالى لأنبيائهِ وملائكتِه، ومنعَهم عن الوقوعِ في الذَّنبِ، وعنْ ما يُنقِصُ مقامَهم من حَركةٍ أو سُكونٍ أو قولٍ أو فعلٍ معَ بَقاءِ قُدرتِهم واختيارِهم، أمرٌ حَتَمي يجبُ على كلِّ مُسلم اعتقادُه.

## [ختم النبوة]

كما يجبُ على كلِّ مُسلم اعتقادُه أنَّ رسولَ الله ﷺ خيرُ الأنبياءِ والمرسلينَ، وأنَّ الله تبارَكَ وتَعالى خَتَمَ بنبوتِه النبوات، وبرسالتِه الرسالاتِ، فلا نبيَّ بعدَه ولا رسولَ، قالَ تَعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠]

## [عموم رسالة سيدنا محمد ﷺ]

وبِعثتُه عامةٌ إلى جميع المكَلَّفين من الإنس والجنِّ إجماعاً، ويأجوجَ ومأجوجَ والملائكةِ وجميعِ الأنبياءِ والأمم السابقة، لِدُخولِ الجميع تحتَ قولِه ﷺ: «بعُثتُ إلى الناسِ كافةً»[1]، ولِشُمولِه لَهم مِن لَدُن آدمَ إلى قيامِ السَّاعة، وجميعِ الحيواناتِ والجماداتِ، حتى إلى نفسِه ﷺ، وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ [سبأ: ٢٨]

وفيهِ ردّ على العِيسَويةِ[2] من اليهودِ حيثُ زَعموا تخَصيصَ رسالتِه

---

(١) رواه البخاري في كتاب. المساجد، باب: جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً الحديث (٤٢٧) ومسلم (٥٢١) والنسائي (١/ ٢١٠-٢١١) والبيهقي.

(٢) العيسوية: فرقة يهودية تنتسب إلى أبي عيسى إسحاق بن يعقوب الأصفهاني الذي ابتدأ دعوته في زمن مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، واتبعه بشر كثير من اليهود.

زعم أبو عيسى هذا أنه نبي، وأنه رسول المسيح المنتظر، وكان يحرم الذبائح كلها، وأوجب على أتباعه عشر صلوات أمرهم بإقامتها، وكان يزعم أن سيدنا محمداً ﷺ نبي أرسله الله تعالى إلى العرب فقط دون غيرهم من العالمين.

حارب أصحابَ المنصور بالرَّيِّ نقُتِل، وقُتِل أصحابه.

بالعرب، ومَنْ نفى بعثتهُ ﷺ كُلاً أو بعضاً كمن نفى الإسلامَ كذلك، فهو كافر إن كان مُكلَّفاً وبلغتهُ الدعوةُ، ولانسخَ لشريعتهِ عليه الصلاةُ والسلامُ في زمنٍ من الأزمانِ إلى قيامِ السَّاعةِ، لإطلاقِ قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩] ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥] ولحديثِ: «لا تزالُ هذهِ الأمةُ قائمةً على أمر اللهِ لا يضرُهم مَنْ خالفهم حتى يأتي أمرُ اللهِ»(١).

* * *

٧١ـ وَنَسْخُـهُ لِشَـرْعِ غَيْـرِهِ وَقَـعْ حَتْمـاً أَذَلَّ اللهُ مَـنْ لَـهُ مَنَـعْ

٧٢ـ وَنَسْخَ بَعْضِ شَرْعِهِ بِالبَعْضِ أَجِزْ وَمَا فِي ذَا لَهُ مِنْ غَضِّ

[مسألة النسخ](٢)

ردَّ المصنفُ على اليهودِ والنَّصارى ومَنْ جَرى مَجراهم، حيثُ زَعموا أنَّ نبينَا ﷺ لمْ ينسخْ شَرعَ أحدٍ من الأنبياءِ، وهذا النَّسخُ أمرٌ حَتمي لايقبلُ التأويلَ قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]

وهو جائزٌ عقلاً وواقعٌ سَمعاً بإجماعِ المسلمينَ، كما أنَّ بعضَ شَرْعِهِ ينسخُ بَعضاً، وهو يشملُ الكتابَ بالسُّنةِ.

فَمِنْ أمثلةِ نَسْخِ الكتابِ بالكتابِ قولهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة: ٢٤٠] نُسخَتْ بقولهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤] لِتأخرِها نُزولاً وإنْ تَقدمتْ تلاوةً.

والسُّنةُ تُنسَخُ(٢) بالسُّنةِ، كحديثِ: «كنتُ نهيتكُم عنْ زيارة القُبور ألا فزوروها»(٣)



(١) رواه البخاري (٧١) ومسلم (١٠٣٧) ونحوه الترمذي (٢١٧٧) وأبو داود (٤٢٥٢).

(٢) النسخ: هو رفع الشارع حكماً شرعياً عن المكلف بدليل متراخ.

(٣) رواه مسلم (٩٧٧) وأبو داود (٣٢٣٥) والترمذي (١٠٥٤) وأحمد (٢/٤٤١) والنسائي (٤/٨٩) وابن ماجه (١٥٧٢) والبيهقي (٤/٧٦).

وبالكتاب. كحُكم استقبال بيت المقدس الثابت بالسُّنة الفعلية باستقبال الكعبة الثابت بقوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤]. ويُنسخ الكتابُ بالسُّنةِ ولو آحاداً على الصحيح كجوازِ الوصيةِ للوالدين والأقربين الدال عليه كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠] بحديث: «لا وصيةَ لوارثٍ»[١] ويَشملُ هذا النسخ ما نُسِخَتْ تلاوتُه وحُكمُه جميعاً. نحو: «عشرُ رَضعاتٍ مُحرِّماتٌ»[٢]. كان مما يُتلى فنُسخنَ بِخَمْسِ معلوماتٍ، وما نُسِخَتْ تلاوتُه دونَ حُكْمه، نحو «الشيخُ والشيخةُ إذا زَنيا فارجُموها البتة نكالاً منَ اللهِ واللهُ عزيزٌ حكيمٌ»[٣]. كان مما يتلى فَرجم النبيُّ ﷺ المحصنينَ، وما نُسِخَ حكمُهُ دونَ تلاوته كآية ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ﴾ [البقرة: ٢٤٠] نُسخ ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤].

* * *

٧٣ـ وَمُعْجِـزاتُـهُ كثيـرةٌ غُـرَرْ    منهـا كَـلامُ اللهِ مُعجِـزُ البَشَـرْ

[معجزات رسول الله ﷺ]

أيَّدَ اللهُ سبحانَه وتَعالى نبينَا محمداً ﷺ بمعجزاتٍ كثيرةٍ، واضحةٍ بيِّنةٍ، بُرهاناً على صِدقِ دعْواه في الرسالةِ، لأنَّ المعجزاتِ الخارقةِ للعادةِ الخارجة عن طوقِ البَشرِ هي نازلةٌ منزلةَ قوله تعالى في الحديث القدسي:

«صَدق عبدي في كل ما يبلغ عني».

وأعظمُ هذه المعجزاتِ القرآنُ العظيمُ الذي أعْجزَ البلغاءَ والفُصَحاءَ عن مُعارضتِه والإتيانِ بمثله، ولقد تحدَّى اللهُ سبحانَه وتعالى المكابرينَ والمعاندينَ

---

(١) رواه الترمذي (٢١٢٢) والنسائي (٦/٢٤٧) وأبو داود (٣٥٦٥) وابن ماجه (٢٧١٣) والبيهقي (٦/ ٢٦٤) وأحمد (٥/ ٢٦٧) وقال الترمذي حديث حسن صحيح.

(٢) رواه مسلم (١٤٥٢) ومالك (٢/٦٠٨) وأبو داود (٢٠٦٢) والترمذي (١١٥٠) والنسائي (٦/ ١٠٠).

(٣) روى ذلك عن عمر بن الخطاب البخاري (٦٤٤٢) ومسلم (١٦٩١) ومالك (٢/ ٨٢٣) والترمذي (١٤٣١) وأبو داود (٤٤١٨) وأحمد (١/ ٢٣ و ٢٩).

بقوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣].

وأعلنَ عَجْزَهم في الحالِ والمآلِ بقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ [البقرة: ٢٤]. وبقوله: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

ولذلكَ لمَّا سَمِعَ الوليدُ بن المغيرة من النبيِّ ﷺ قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

دُهِشَ لفَصاحة هذه الآية وبلاغتها وجَمْعها لِمكارم الأخلاقِ على قلة ألفاظِها، وسَرعانَ ما أعلنَ عن رأيِه في مَجْمَع قُريش قائلاً: يا قومُ لقد سَمِعتُ مِنْ محمدٍ كَلاماً آنفاً ما هُوَ مِنْ كلام الإنسِ ولَا من كلام الجِنِّ، إنَّ له لحلاوةً، وإنَّ عليه لَطَلاوةً، وإنَّ أعلاه لَمُثمِرٌ، وإنَّ أسفلَهُ لَمُغْدِقٌ، وإنَّه يعلو ولا يُعْلَى عَليهِ، ومَا يقولُ هٰذَا بَشَرٌ.

ولَقد أُوتيَ رسولُ الله ﷺ مِنَ المعجزاتِ كثرةً ما وصلَ إليها أحدٌ من الأنبياء مع طولِ مُدَدِهم وقِصَرِ مُدَّتِهِ، وذلكَ أدلُ دليلٍ على مَزيدِ عنايةِ الله تَعالى به وعَظيمِ قَدْرِه، منها شَقُّ صَدْرِهِ الشَّريفِ. وإخراجُ العَلَقَةِ التي هِيَ حظُ الشَّيطانِ مِنْ قلبه، وإخبارُهُ عن المُغَيّباتِ كَبيتِ المَقْدِس وما فيه حينَ تَرَدَّدَ الكُفارُ في مِعراجِه، وسؤالهم لهُ أنْ يصفَه، وكانشقاقِ القَمَرِ [١]، وتَسليمُ الحَجَرِ والشَجَرِ عليهِ، وتسبيحُ الحصَى في كَفِّهِ، وحنينُ الجِذْع الذي كانَ يَخطبُ إليه قبلَ اتخاذِ المِنبرِ [٢]، وردُّ عَيْنِ قَتادةَ حينَ سالتْ على خده فكانت أحسنَ عينيهِ وأحدَّهما نظراً [٣]. وشهادةُ الضبِّ بنُبوتِهِ...

* * *



(١) رواه البخاري (٣٤٣٧) ومسلم (٢٨٠٠).

(٢) رواه البخاري (٨٧٦) والنسائي (٣/ ١٠٢).

(٣) قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (٢/ ٣٨٤) رواه البيهقي وأبو نعيم كلاهما في دلائل النبوة.

٧٤- واجزِم بِمعراجِ النبيِّ كما رووْا  وبرِّئن لِعائشةَ مِمّا رمَوا

## [الإسراء والمعراج]

مِنَ الواجباتِ الإيمانيةِ على المُكلَّفِ أنْ يعتقدَ أنَّ الله سبحانه وتعالى خصَّ نبيَّنا محمداً ﷺ بمعجزةِ المِعْرَاجِ، وهي العُروجُ بجسْمه ورُوحِه يقظَةً، من صَخْرَةِ بيْتِ المَقْدِسِ إلى سِدْرَةِ المُنتهى إلى حيثُ شاءَ الله، ورأى الربَّ تباركَ وتعالى بِعيْنَيْ بَصرِهِ رؤيةً تَليقُ بذاتِه تعالى بِلا كَيْفٍ ولا انحصارٍ، وذلكَ بعدَ الإسراءِ بِهِ مِنَ المسجدِ الحرَامِ إلى المَسْجِدِ الأقصى على البُراقِ، يشهدُ لذلكَ الكتابُ والسُّنةُ قالَ تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١].

والمِعراجُ مِنَ الأرضِ إلى السَماءِ ثابتٌ بالأخبارِ الصَحيحةِ المشهورةِ، فمَن أنكرَهُ كالمُعتزِلةِ وغيرهم الذين قصَروا الإسراءَ إلى بيتِ المَقْدِسِ لا إلى السماءِ فهو مُبتدِعٌ.

ولا يمتنعُ ذلِكَ عقلاً لأنَ جوازَ استبعادِ صعودِ البَشَرِ مُؤذِنٌ بجوازِ استبعادِ نُزولِ الملائكةِ المُؤدِي إلى إنكارِ النُبوةِ وهو كُفرٌ، ومِنَ المَعلومِ الضَروري أنَّ منكرَ الإسراءِ كافرٌ بلا ريبٍ لثُبوتهِ بالقُرآنِ العظيمِ، وكونُ السماءِ لَها أبوابٌ تُفتَحُ ممّا نَطَقَ به القرآنُ العظيمُ، قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأعراف: ٤٠].

فذكرَ أنَّ لَها أبواباً وأنَّها لا تُفتَحُ كما تُفتَحُ لأرواحِ المُؤمنينَ، والأحاديثُ النَبويةُ مُصرحةٌ بذلكَ، وأنَّ السماءَ تَقبَلُ الخرْقَ والالتآم، وذلكَ بِقُدرةِ الله تعالى لا سيَّما وقد ثبتَ بالقُرآنِ في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَـٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥].

وإذَا كانَ عَرْشُ بلقيسَ استُحْضِرَ من أقصى اليمنِ إلى أقصى الشَّامِ في مقدارِ لَمْحِ البَصَرِ، فَنبيُّنا محمدٌ ﷺ لا يُستبعدُ عروجُه إلى السمواتِ في المدةِ القليلةِ، وأنَّ قُرصَ الشَمسِ الذي يَزيدُ على كُرةِ الأرضِ مائةً ونيفاً وستين مرة

كما ثَبَتَ في علم الفلك يَصلُ إلينا شُعاعُه في ثمانِ دقائقَ مع ما بَيْنَنا وبين الشَّمس مِن البُعْدِ والمَسافةِ، على أنَّ ما نُشَاهِدُه مِنَ الآلاتِ البُخَارية كالطائراتِ وناطحاتِ السَّحابِ والسيَّاراتِ والمُخْترعاتِ الحديثة التي تقطعُ المسافاتِ الطويلة بالزَمَنِ القَصير لأكبرُ دليلٍ على ثُبوتِ الإسراءِ والمِعْراجِ، وأَنَّ ذلكَ أصبحَ التسليمُ بِهِ بَدَهياً لا يحتاجُ إلى بُعْدِ نَظَرٍ ولاَ رَوِيَّةٍ وكَثْرةِ تَعَمُّقٍ.

[براءة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها]

ويجبُ على المُكَلَّفِ أنْ يعتقدَ براءةَ أُمِّ المؤمنينَ السَّيدة عائشةَ رضِيَ اللهُ عنها زَوجِ رسولِ الله ﷺ مما رَمَاها به المُنَافقونَ، وقَذَفُوهَا به، كَما جاءَ به القرآنُ، وانعَقَدَ عليه إجماعُ الأمةِ، وَوَردتْ به الأحاديثُ الصحيحةُ، وأنها رضيَ الله عنها تَخلَّفت في طَلَب عِقْدِهَا، وكانَ العقد من جَزْعِ ظَفَار فَحُمِلَ هَوْدَجُها ظناً أنَّها فيه، وسارَ القَومُ ورجعتْ فلم تجدْهُ فمرَّ بها صَفوانُ بنُ المُعَطَّلِ فَحَمَلَها ولمْ يَنْظرْ إليها، وقادَ بها البعيرَ مُوَليها ظَهره، حتَى أدركَ بها النبيَّ ﷺ فرَمُوها به، فأنزلَ الله تَعالى في براءَتِها العشرَ آياتٍ من أولِ سُورةِ النُورِ[1] وهو قولُه تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ إلى قوله ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ١١ ـ ٢٦].

* * *

٧٥ـ وَصَحْبُهُ خَيْرُ القُرُونِ فاسْتَمِعْ ... فَتَابِعِي فَتَابِعٌ لِمَنْ تَبِعْ
٧٦ـ وخَيْرُهُمْ مَنْ وَلِيَ الخِلاَفَةْ ... وَأَمْرُهُم في الفَضْلِ كَالْخِلاَفَةْ
٧٧ـ يَلِيهِمُ قَوْمٌ كِرَامٌ بَرَرَةْ ... عِدَّتُهُمْ سِتٌ تَمَامُ العَشَرَةْ

[فضل الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم]

اختارَ اللهُ سبحانَه وتَعالى لِحبيبِهِ محمدٍ ﷺ أصحاباً آمنوا بِه وعَملوا بماجاءَ بِه، ونَصَروه على أعدائِه، وبَذَلُوا أَرواحَهم في نَشْرِ هذا الدينِ، فَهُمْ خيرُ خَلْقِ اللهِ سِوى النبيينَ والمُرسَلينَ، ولقد ذكرَ اللهُ تَعالى فَضْلَهم بالقرآنِ بقولِه تعالى:



(١) روى حديث الإفك بكامله البخاري (٢٤٥٣) ومسلم (٢٧٧٠) والترمذي (٣١٧٩) والنسائي (٢/ ١٦٣ـ١٦٤).

﴿وَالسَّـٰبِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَـٰجِرِينَ وَالْأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١٠٠] وبقوله: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ١٨] وبقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُۥ أَشِدَّآءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] وقال عليه الصلاةُ والسلامُ: «إنَّ اللهَ تعالى اختار أصحابي على العالمينَ سوى النبيينَ والمُرسلينَ»[١].

هذا ما يجبُ على المُكلَّفِ اعتقادهُ، وأنَّ مَنْ لازمه ﷺ منهم وقاتَلَ معه أو قُتِلَ تحتَ رايتهِ لَهُ الأرجحيةُ في الفضلِ على غيرِهِ، وإنْ كانَ شرفُ الصُّحبةِ حاصلاً للجميعِ، وقد تقدَّمَ في صَدْرِ الكتابِ مَنْ هو الصحابي. وأمَّا التَّابعي هُوَ مَنْ لَقِيَ الصَّحابيَّ، فَرتبتهُ تَلِي رتبةَ الصَّحابي، وأمَّا تابعُ التَّابعي تَلِي رتبتَهُ رتبةَ التَّابعي، والأصلُ في هذا الترتيب قولُه ﷺ «خيرُ أُمتي القرنُ الذي يَلُوني، ثُمَّ الذين يَلُونَهم. ثُمَّ الذينَ يَلُونَهم»[٢]. وإنَّ القرونَ التاليةَ لها الأفضليةُ على حَسَبِ السَّبْقِ في الزَّمنِ، فمَنْ كانَ أسبقَ فهو أفضلُ، لقوله ﷺ: «ما مِنْ يومٍ إلَّا والذي بعدَهُ شرٌّ مِنهُ وإنَّما يُسرعُ بِخيارِكُم»[٣].

وممَّا يجبُ أن يعتقدَ أنَّ أصحابَه ﷺ الذين وُلُّوا الخِلافَةَ بَعدَه المُقدَّرةَ مُدَّتُهابثلاثين عاماً لهم الأرجحيةُ في الفَضْلِ على غيرهم، وهم الأئمةُ الأربعةُ، وإنَّ أولئكَ الأئمةَ أمرُهم في الفَضْلِ كأمرِهم في الخِلافةِ، فالذي سَبقَتْ له الخِلافةُ أفضلُ مِنْ غيره، فاتَّفقَ الأشعريةُ والمَاتريديةُ أنَّ أفضلَ الصحابةِ أبو بكرٍ الصدِّيقُ، ثُمَّ عُمرُ ثُمَّ عثمانُ ثُمَّ عليٌّ رضي الله عنهم. وبذلكَ حَكَمَ الجمهُورُ، ولو لم يكنْ لهم دليلٌ ما حَكَموا بهِ، وهو ردٌّ على الخَطَّابيةِ في تَقديمِ عُمرَ والرَّاونديةِ في تقديمِ العَباسِ بنِ عبدِ المُطلبِ، والشيعةِ وجمهورِ المعتزلةِ في تقديمِ عَلي.

## [العشرة المبشرون بالجنة]

ويَلِي هؤلاءِ الخلفاءَ الأربعَ في الفَضْلِ ستُّ تمامُ العَشرةِ المبَشرينَ بالجنةِ وهم: طلحةُ بنُ عُبيدِ اللهِ، والزبيرُ بنُ العَوام، ابنُ عمةِ الرسولِ ﷺ، وعبدُ الرَّحمنِ بنُ عوفٍ، وسَعدُ بنُ أبي وَقَّاص، وسعيدُ بنُ زيد، وأبو عُبيدة بن

---

(١) قال في مجمع الزوائد (١٠/١٦) رواه البزار ورجاله ثقات وفي بعضهم خلاف.

(٢) رواه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم الحديث (٢٥٣٤).

(٣) رواه الترمذي، ج:٦، رقم: ٢٢٠٧.

الجرَّاح، رواهُ الترمذي وابنُ ماجه[1]، لم يرِدْ نصٌ بتفاوتِ بعضِهم على بعضٍ في الأفضليةِ بل ثَبتَ التبشيرُ في الكُلِّ بالجنَّةِ بالحديثِ الشَّريفِ.

* * *

٧٨ـ فَـأَهْـلُ بَـدْرٍ العَظِيـمِ الشَّـانِ ... فَـأَهْـلُ أُحُـدٍ فَبَيْعَـةُ الـرِّضْـوَانِ

٧٩ـ والسَّابِقُونَ فَضْلُهُمْ نَصّاً عُرِفْ ... هَذَا وَفِي تَعْيِينِهِمْ قَدِ اخْتُلِفْ

## [أهل غزوة بدر]

إنَّ ممَّا يُعلَم أنَّ أهلَ بَدرٍ، وهم ثلاثمائةٍ وثلاثَةَ عشَرَ رجلاً من الإنسِ، وسبعونَ من الجِن، وثلاثةُ آلافٍ منَ الملائكةِ، فالرجالُ منهم رُتبتُهم تَلِي رُتبةَ الستةِ من العَشرةِ سَواءٌ استُشهِدُوا فيها أوَّلاً، فالذينَ استُشهِدُوا فيها من الأنصار ثمانيةٌ ومنَ المهاجرينَ ستةٌ، وبَدرٌ اسمٌ للوادي وهو الآنَ قريةٌ مشهورةٌ بينَ مَكّةَ والمدينةِ على نحوِ أربعِ مَراحلَ من المَدينةِ. ووُصِفَتْ هذه الغزوةُ بِعظَمِ الشَّأنِ تَميِيزاً لها عنْ بقيةِ الغَزَوات أعظَمهنَّ بدرٌ لحضورِ الملائكةِ والجِنّ فيها مع الإنس، وسُمِيتْ هذه الغزوةُ بيوم الفُرقانِ، وقد أيَّدَ اللهُ تَعالى فيها المسلمينَ مع قِلّتهِمْ كما ذُكِرَ، وخَذَلَ المشركينَ مع كَثرتِهم، إذْ كانوا ألفاً. والسِّرُ في ذلكَ يرجعُ إلى قوةِ شَجاعَتِهم المستَمدَةَ من قوةِ إيمانِهم ونِيتِهم الحَسنةِ، ألا وهي إعلاءُ كلمةِ الله، ونَصرُ رَسولِ الله. والله تَعالى يقول: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧]، ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٠].

## [أهل غزوة أُحُد]

ثُمَّ يَلي هؤلاءِ المؤمنينَ في الفَضلِ، أهلُ غَزوةِ أُحُدٍ، وهو جبلٌ معروفٌ بالمدينةِ المنوَّرةِ وسواءٌ أيضاً من استُشهِدَ بها كالسبعينَ أم لاَ. وكانُوا ألفاً ورجَعَ بثلاثمائةٍ مِنَ المنافقينَ، رئيسهمُ عبدُ الله بنُ أبي سَلُول. وكانَ النَّصرُ أوَّلاً للمسلمينَ وآخِراً للمشركينَ، وسرُ هذا الخذلانِ تَخلُفُ المسلمينَ عن طاعةِ قائدِهِم عليه الصلاةُ والسلامُ، لَمَّا أمرَ فِرقةَ الرُماةِ أنْ لا يُبارحُوا الجبلَ. وهكذَا سُنّةُ الله في أهلِ الإيمانِ، أنَّهم لا يُنصَرونَ إلا باتِّباعِ الرَّسولِ، ولا يُخذَلونَ إلا



(١) رواه أبو داود (٤٦٤٨_٤٦٥٠) والترمذي (٣٧٤٨_٣٧٥٨)، وهو حديث صحيح.

[أهل بيعة الرضوان]

ثُمَّ يلي هؤلاءِ المؤمنينَ في الفَضلِ أهلُ بيعةِ الرضوانِ وهم ألف وخمسمائةٍ؛ خرجَ بهم النبيُّ ﷺ لزيارة البيتِ، فَصَدَّهُ المشركونَ فأرسلَ إليهم عثمانَ للصُلْح فشاعَ أنَّهم قتلوهُ، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا نبرحُ حتَّى نناجزَهم الحربَ»(١).

ودَعا الناسَ عِندَ الشَجرةِ للبيْعَةِ على المَوتِ فَبايعوهُ على ذلك. ولمْ يتخلفْ عنها إلاّ الجدُ بنُ قَيْس وكانَ منافِقاً اختبأ تحتَ بَطنِ ناقتِه، وهو ابنُ عم البرَاء بن مَعرور، وكانَ من المُؤلَّفَةِ قلوبهُم، ثُمَّ تبينتْ حياةُ عثمانَ رضي الله عنه، فصالحهم النبيُّ ﷺ على شرطٍ، ورجعَ إلى المدينةِ، فأنزلَ اللهُ فيهم: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨].

والسابقونَ في الإسلام الذين صَلُّوا إلى القِبلَتين لَهم الأرجحيةُ في كثرةِ الثَّوابِ على غيرِهم ممن لَم يُشاركوهم فيما ذُكر، وقد بيَّنَ اللهُ فَضلَهم بقولِه: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١٠٠]، ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ [الحديد: ١٠].

ولقدْ اختلفَ العلماءُ في تَعيينهم فَمِنْ قَائِلٍ هُم أهلُ بَيْعةِ الرضوانِ، ومِن قَائِلٍ هُم أهلُ بَدْرٍ، والمُفَضَّلُ في جميعِ هذهِ المراتبِ الجُملةُ على الجُملةِ لا الأفرادُ على الأفرادِ.

* * *

٨٠ـ وَأَوِّلِ التَّشَاجُرَ الَّذِي وَرَدْ ... إِنْ خُضْتَ فيه واجْتَنِبْ دَاءَ الحَسَدْ

[تأويل الخلاف الذي وقع بين الصحابة رضوان الله عليهم]

لمَّا ذكرَ أنَّ الصحابةَ هُم خيرُ القرونِ، احتاجَ إلى الجوابِ عمَّا وقعَ بَينَهم مِن المُنازَعاتِ المُوهِمةِ قَدْحاً في حَقِّهم، وإنْ لم يكُونوا معصُومينَ، فما وردَ عنهم



(١) روي بألفاظ مختلفة في المغازي انظر البداية والنهاية (٤/ ١٦٧).

بِسَنَدٍ صحيح مِن المُشاجراتِ يجبُ حَمْلُه على مَحْمَلٍ حَسَنٍ، لِحفظِهم مما يوجبُ التَّضليلَ أوْ التَفسيقَ، ولمْ يخرجْ واحدٌ منهم عن العَدالةِ بما وقَعَ بينَهم لأنه كانَ عن اجتهادٍ منهم؛ من ذلك مُخاصمةُ السيدة فاطمة لأبي بكر الصدِّيق رضيَ الله عنهما حين مَنَعها ميراثَها من أبيها، فَتُؤَوَّلُ أنَّها لمْ يَبلغْهَا حديثُ: «نحنُ معاشرَ الأنبياءِ لا نُورِّثُ، ما تركناهُ صدقةٌ»(١).

هَذا إنْ قضتْ الضرورة بالخَوضِ في هَذا الشأنِ كالتَعليمِ والرَّدِ على المُعَانِدينَ، وإلاَّ فالأحسنُ الإمساكُ عنْ هَذا البحثِ لأنَّه يُؤدي إلى رمي الصَّحابة بما هُم عَنهُ براءٌ، وقد قال ﷺ: «اللهَ اللهَ في أصحَابي، لا تَتخذوهم غَرضاً من بَعدي مَنْ آذاهُم فَقدْ آذاني، ومَنْ آذاني فَقدْ آذى اللهَ، ومن آذى الله يُوشِكُ أنْ يأخُذَهُ»(٢).

وفي روايةٍ: «لا تَسُبوا أصحَابي فمن سَبَّ أصحَابي فعليه لعنةُ الله والملائكةِ والناسِ أجمعينَ لا يَقْبلُ الله منه صَرْفاً ولا عَدْلاً»(٣).

* * *

| | |
|---|---|
| ٨١ـ وَمَـالِـكٌ وَسَـائِـرُ الأئِـمَّـةْ | كَـذَا أَبُـو القَـاسِـمْ هُـدَاةُ الأُمَّـةْ |
| ٨٢ـ فَـوَاجِـبٌ تَقْلِيـدُ حَبْرٍ مِنْهُـمُ | كَـذَا حَكَـى القَـوْمُ بِلَفْـظٍ يُفْهَـمُ |

## [أئمة الأمة ومسألة تقليدهم]

يجبُ عليكَ أيُّها المكلَّفُ أنْ تعتقدَ أنَّ الإمامَ مالكَ بنَ أنس إمامَ المدينةِ، وسائرَ الأئمةِ المُجتَهدينَ الذين أوْضَحوا سُبُلَ الشَّريعةِ الغَرَّاء كأبي حَنيفة النُعمانَ بنِ ثابتٍ، ومُحمد بن إدريس الشَّافعي، وأحمد بن حَنبلَ، وغيرهم، وكذا أبو القَاسِم بنُ مُحمد الجُنَيدُ ونظَراؤُه من الصُوفيةِ، وكَذا الإمامُ أبو الحَسَنِ

---

(١) رواه البخاري في كتاب: الخمس، باب: فرض الخُمُس. الحديث(٢٩٢٩) ومسلم (١٧٦٠).

(٢) رواه الترمذي في كتاب المناقب، رقم (٣٨٦٣) ورواه أحمد (٤/ ٨٧) وقال الترمذي هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

(٣) عزاه في المجمع (١٠/ ٢١) إلى الطبراني وأورد أحاديث بمعناه ومنها ما هو حسن وفي الصحيحين قوله ﷺ «لا تسبوا أصحابي فلو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه».

الأشعري، وأبو منصور الماتريدي، إماما أهل السنة والجماعة، كلُّ هؤلاء على حقٍّ، وإنهم هداةُ الأمةِ وعلى طريقهم يُحتذى وبهم يُقتدى، وإنَّ عليكَ واجباً أنْ تُقلِّدَهُم في الفُروعِ العَمَليَّةِ إنْ لم تكنْ مُتأهلاً للاجتهادِ، وأمّا التَّقليدُ في أصولِ الدِّينِ فقدْ تقدَّمَ الكلامُ فيهِ والأصلُ في هذا قولُ الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧].

وقد انعقدَ الإجماعُ على أنَّ مَنْ قلَّدَ في الفُروعِ ومسائِلِ الاجتهادِ واحداً من هؤلاءِ الأئمةِ بعدَ تحققِ ضَبطِ مَذهبِهِ بَريءٌ من عُهْدَةِ التَّكليفِ.

* * *

٨٣ـ وَأَثْبِتَنْ لِلأَوْلِيَا الكَرَامَةْ     وَمَنْ نَفَاهَا انْبِذَنْ كَلامَهْ

## [كرامات الأولياء]

ممّا يجبُ اعتقادُه ثبوتُ الكَرامةِ[(١)] للأولياءِ[(٢)]، وأنَّها جائزةٌ عقْلاً، واقعةٌ شرْعاً، أمّا جوازُها عقْلاً: فإنهُ ليسَ بمُستحيلٍ في قُدرةِ الله تعالى، بلْ هي مِن قَبيلِ المُمكِنَاتِ كَظُهورِ مُعجزاتِ الأنبياءِ، هذا مَذهبُ أهلِ السُّنةِ من المَشايخِ العَارفينَ، والنُّظَّارِ الأصوليينَ، والفُقهاءِ والمحدِّثينَ، وتَصانيفهم ناطقةٌ بذلكَ أنَّ كلَّ ما جازَ للأنبياءِ مِنَ المعجزاتِ جَازَ للأولياءِ مثلُه مِنَ الكَراماتِ بِشَرْطِ عَدَمِ التَّحدي، ولا تَلتبسُ هذه بالمعجزةِ لأنَّ المعجزةَ مقرونةٌ بالتَّحدي ووجوبِ إظهارِها مِنَ النبيِّ، والكَرامةُ يجبُ على الوَليِّ إخفاؤها إلا عندَ ضَرورةٍ أوْ إذْنٍ، أو حالٍ غالبٍ، أو لتقويةِ يقينِ بَعضِ المُريدينَ، وأمّا وُقوعُها نَقلاً فقدْ جاءَ في القُرآنِ والأخبارِ والآثارِ بالإسنادِ ما يَخرُجُ عن الحَصرِ والتَّعدادِ، فَمِنْ ذَلكَ ما أخبرَ اللهُ عَنْ مريمَ رضوانُ الله عَليها بقولِهِ تَعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران: ٣٧] ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ

---

(١) الكرامة: أمر خارق للعادة، يظهر على يد عبد ظاهر الصلاح ملتزم بمتابعة النبي ﷺ، مصحوب بصحة الاعتقاد والعمل الصالح.

(٢) الولي: العارف بالله تعالى وصفاته حسب الإمكان، المواظب على الطاعة المجتنب للمعاصي، إنما سُمّيَ ولياً لأن الله تعالى يتولى أمره فلا يكله إلى نفسه ولا إلى غيره.

﴿رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم: ٢٥].

وكانَ في غيرِ أوانِ الرُطَبِ، وكذلك ما أخبرَ الله تعالى من العجائبِ على يدِ الخضر مع موسى عليهِ السلامُ، وكذلك قصةُ أصحابِ الكهفِ وكلامُ الكلبِ معهم، وقصةُ آصف بن برخيا مع سليمان في عرشِ بلقيسَ في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠]

وكلُ هؤلاءِ ليسوا بأنبياءَ، ومِنْ ذلك في الحديثِ المشهورِ في الصَّحيحَينِ[1] حديثُ جُريجٍ الرَّاهب الذي كلَّمهُ الطفلُ في المَهْدِ حينَ قالَ له: يا غلامُ مَنْ أبوكَ قالَ: فلانُ الراعِي. ومِنْ ذلكَ ما جاءَ في الصَّحيحَين في أبي بكرٍ الصدِّيق مع ضيفِهِ الذي قالَ فيه: وايمُ الله ما أكلنا لقمةً إلا رَبَا من أسفلها أكثرُ منها حتى شبعوا وصارتْ أكثرَ مما كانتْ قبلَ ذلكَ. ومن ذلك ما في الصَّحيحَينِ عن عمر رضيَ الله عنه أنّه قالَ: يا ساريةُ الجبلَ، في حالِ خُطبتهِ في يومِ الجُمعة فبَلغ صوتُهُ إلى ساريةَ[2] في ذلكَ الوقتِ، فتَحرَّزَ من العَدوِ في مكانٍ مِنَ الجَبلِ في تلك الساعة فكانَ ذلكَ لِعمرَ كَراماتانِ، إحداهما الكشفُ، والثانيةُ بلوغُ الصوتِ مع بُعدِ المسافةِ.

ومن ذلكَ حديثُ خُبيبٍ المشهورِ في البُخاري. وخُروجُ أُسَيْدِ بنِ حُضَيْر وعبَّاد بنِ بشْر مِنْ عِنْدِ النَّبيِّ ﷺ في ليلة مُظلمةٍ ولمَّا أنْ تفرقا صارَ مع كلِّ واحدٍ مثلُ المِصباحِ يستضيئانِ بهما[3]. ومِنْ ذلكَ خطابُ ابن عُمرَ للأسدِ الذي منَعَ الناسَ الطريقَ وقولهُ: تنحَّ فبصبصَ بِذَنَبِه وذَهبَ فمَشى الناسُ، فقال ابنُ عُمر: صدق رسول الله ﷺ: «مَنْ خافَ مِنَ الله خوَّفَ الله مِنه كلَّ شيءٍ»[4].

ومن ذلِكَ مَشيُ العَلاء بن الحَضْرَمي هُو وجيشهُ على الماءِ.

---

(١) رواه البخاري (١١٤٨) ومسلم (٢٥٥٠).

(٢) حادثة عمر هذه ليست في الصحيحين كما أشار المصنف إنما رواها الواقدي والبيهقي في الدلائل واللالكائي في شرح السنة كذا في كشف الخفا (٢/ ٣٨٠-٣٨١).

(٣) رواه البخاري (٣٥٩٤).

(٤) رواه القضاعي (٤٢٩) وعزاه في كشف الخفاء (٢/ ٢٤٩) أيضاً إلى أبي الشيخ في الثواب والديلمي بسند ضعيف.

ولِقائلٍ أن يقولَ: ما هذِه الكَراماتِ الكثيرةِ التي وردتْ عنِ الأولياءِ ولَم يرِدْ عن الصَحابةِ إلاّ النزرُ اليسيرُ منها؟ فهلْ الأولياءُ أفضل من الصحابةِ حتى يصدرَ عَنْهم هذِه الخوارقُ العديدةُ؟ فالجوابُ ما أجابَ به أحمدُ بنُ حَنْبل رحمهُ الله: إنَّ أولئكَ كانَ إيمانُهم قوياً لم يَحتاجُوا إلى زيادةِ شيءٍ يَتَقَوُونَ بهِ، وغيرُهم كانَ إيمانهم ضَعيفاً فَقَوَوا بإظهارِ الكَراماتِ. ويقالُ في مريمَ كانتْ في بدايتِها يُتَعرَّفُ إليها بِخَرْقِ العادَةِ تَقْويةً لإيمانِها وتكميلاً ليقينها، فكانتْ كُلمَّا دخلَ عليها زَكريا المحرابَ وجدَ عِندَها رزقاً فلما قَوِيَ إيمانُها وكَمُلَ يقينُها ردت إلى السبَبِ. وقيل لها: ﴿ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبًا جَنِيّٗا﴾ [مريم: ٢٥].

وقالَ أبو القاسم القُشَيرِي: كلُ نبي ظهرتْ كرامتهُ على واحدٍ منْ أُمتِه نهي معدودةٌ من جُملَةِ معجزاتهِ ﷺ. ولِقَائِلٍ يقولُ: إنَّ الكرامةَ تُشبَّهُ بِالسحرِ، والجوابُ: إنَ السحرَ يظهرُ على يدِ الفُسّاقِ والزنادقةِ والكُفَّار، وأمّاالأولياء فهم المواظبونَ على الطاعاتِ، التاركونَ للمَنهياتِ، المُعرِضُونَ عن المُشتَبهاتِ فظهورُ الأمرِ الخارقِ عَنْهم كَرامةٌ لهَم قالَ تَعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

ومَنْ نفى الكراماتِ كأبي إسحقَ الإسفراييني والحَلبي من أهلِ السنّةِ والمُعتزلةِ عامةً فلا يُؤخذُ بِقَولِهم بعدَ مَا تَقَرَّرَ ذلكَ...

* * *

٨٤ـ وَعِنْدَنَا أنَّ الدعَاءَ يَنْفَعُ     كَمَا مِنَ القُرآنِ وَعْداً يُسْمَعُ

## [الدعاء]

مَذْهبُ أهلِ السُنةِ أنَّ الدُعاءَ: وهو رفعُ الحاجاتِ إلى رافعِ الدَّرجاتِ ينفعُ مما ينزلُ وممّا لمْ ينزلْ. فينفعُ الأحياءَ والأمواتَ ويَضرُّهم، وهو يُوصِلُ إلى المطلوبِ ولو صَدَر من كافرٍ، لحديثِ أنس رضيَ الله عنه: «دعوةُ المظلومِ مُستَجابةٌ وإنْ كانَت مِنْ كافرٍ»[1].

---

(١) رواه الطيالسي عن أبي هريرة كما في الجامع الصغير الحديث (٤٢٠٤) بسند صحيح.

والقضاءُ الذي قَضى الله على عبادِه على قِسْمين: مُبْرَمٌ ومُعلَّقٌ، والدُعاءُ ينفعُ فِيهما، فَالمَعلَّقُ لا استحالةَ في رفع ما عُلِّقَ رفعُه منه على الدعاءِ. ولا في نُزولِ ما عُلِّقَ نزولُه منه على الدعاءِ. وأمّا المُبْرَمُ فالدعاءُ وإنْ لمْ يرفعْهُ لكنْ رُبما أثابَ اللهُ العبْدَ على دعائه برَفْعِه، أو أنزلَ بالداعي لُطفَه فيه، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ﴾ [الأنعام: ٤١].

والإجابةُ هي المُصَرَّحُ بها في حديثِ مناجاةِ موسى عليه السلام «وإنْ دَعَوْني استجبت لهم فإما أن يروه عاجلاً، وإمّا أنْ أصرفَ عنهم سُوءاً، وإمّا أنْ أدخرَهُ لهم في الآخرةِ»[1] وقد دَعا ﷺ في مواطنَ كثيرةٍ كيوم بَدْر، وعَلى قاتلي أهلِ بئرِ مَعُونه، وعلى المُستَهزئينَ، ومن آدابِ الدعاءِ تَحرِي الأوقاتِ الفَاضلةِ كالسُجود، وعند الآذانِ، وتقديم الوُضوءِ، والصلاةُ واستقبالُ القِبْلَةِ ورفع الأيدي. وتقديمُ التَسوية، والاعترافُ بالذَّنبِ والإخلاصُ وافتتاحهُ بالحَمدِ والثناءِ، والصَّلاةُ على النبيِّ ﷺ والسؤالُ بالأسماءِ الحُسْنَى وخَتْمهُ بالصلاة على النَّبي ﷺ وجَعلِهِ في وَسطِهِ أيضاً. ولقدْ شذَّ المعتزلةُ فقالوا: إنَّ الدعاءَ لا ينفعُ وشبهتهُم بذلكَ أنْ ما أرادَ اللهُ حصولَه لا بُدَّ وأنْ يحصلَ، وما لمْ يُرِدْ فلا، سواء حَصَلَ بهما دعاء أمْ لا وأوَّلُوا الآياتِ على مَعنَى العبادةِ وحُجَّتُنا عليهم ما ذَكرنَا والله أعلمُ.

* * *

٨٥ـ بكلِّ عَبْدٍ حَافِظُونَ وُكِّلُوا ... وَكَاتِبُونَ خِيرَةٌ لَنْ يُهْمِلُوا
٨٦ـ مِن أمرِهِ شَيْئاً فَعَلْ وَلَوْذَهِلْ ... حَتَّى الأنينَ في المَرَضْ كَمَا نُقِلْ
٨٧ـ فَحَاسِبِ النَّفْسَ وقَلِّلْ الأمَلا ... فَرُبَّ مَنْ جَدَّ لأمْرٍ وَصَلا

[الإيمان بالحَفظَةِ والكَتَبةِ من الملائكة]

إنَّ الله تَعالى وَكَّلَ بكلِّ عَبدٍ ملائكةً حافِظينَ يحفظونَه من الآفاتِ لقوله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]



(١) انظر الدر المنثور (٧/ ٣٠٢).

وسُمّوا بذلك لأن ملائكة الليلِ تَعقبُ ملائكةَ النهار، وبالعكس، وفي الحديث: «إنَّ الحَفَظَةَ عشرةٌ بالليلِ وعشرةٌ بالنَهارِ، فيجتمعونَ في صَلاةِ الصُبح والعَصرِ، فيسألُهُم اللهُ وهو أعلمُ بهم، فيقولُ كيفَ تركتُم عِبادي فيقولونَ يا ربَّنا تركناهُم وهم يُصلونَ وأتيناهُم وهُمْ يُصَلونَ»(1).

وسألَ عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ النبيَّ ﷺ عَنهم فقالَ: «لكلِّ آدمي عَشرةٌ بالليل، وعشرة بالنَّهارِ، واحدٌ عن يمينِهِ وآخرُ عن شمالِهِ، واثنانِ بينَ يديهِ ومِنْ خلفه، واثنانِ على جبينِهِ، وآخرُ قابضٌ على ناصيتِهِ فإنْ تواضعَ رفعهُ وإنْ تكبَّرَ وَضعَهُ، واثنان على شَفَتيه لَيس يحفظانِ عليه إلا الصلاة على النبيِّ ﷺ، والعاشر يحرسهُ مِنَ الحَيةِ أنْ تدخل فاهُ، والكاتبون هُم المَلَكانِ»(2).

والجَمعُ اللغَويُّ هو ما فوقَ الواحدِ قال تعالى:

﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧ ـ ١٨].

وفي الحديث: «إنَّ كاتبَ الحسنَاتِ عن يمينِ الرَّجُلِ. وكاتبَ السيئات عن يَسارِهِ. وكاتبُ الحَسناتِ أميرٌ على كاتب السيئات، فإذا عملَ حسنةً كتَبها مَلَكُ اليمين عَشراً، وإذ عمل شراً قالَ صاحبُ اليمينِ لِصاحبِ الشِّمالِ دعْهُ سبعَ ساعاتٍ. لعلهُ يُسبحُ أو يَستغفرُ»(3). وهذان الملكانِ مُوكّلان بكتابةِ ما يَصدُرُ عن العَبد قولاً أو فِعلاً ولو مباحاً، حتى الأنينَ في المرَضِ لعُمومِ النَّصِ، فإذا عُلِمَ ذلكَ فَعلى الإنسانِ أنْ يُحاسِبَ نفسَه على القليلِ والكثيرِ، فَمنْ حاسَبَ نَفسَهُ في الدنيا هانَ عليهِ الحسابُ في الآخرةِ. وسأل رجلٌ من الأنصار النبيَّ ﷺ «أي المؤمنينَ أفضلُ، فقال: أحسنُهم خُلقاً قال: فأي المؤمنين أكيَسُ قال: أكثرُهم للموتِ ذِكراً وأحسنُهم لما بعدَه استِعداداً أولئك الأكياسُ»(4).

---

(1) رواه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة الحديث (٣٠٥١) ومسلم (٦٣٢) ومالك (١/ ١٧٠).

(2) عزاه في فتح الباري (٨/ ٣٧٢) إلى الطبراني.

(3) عزاه في الدر المنثور (٧/ ٥٩٤) إلى ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا عن ابن عباس.

(4) رواه ابن ماجه في كتاب: الزهد باب ذكر الموت والاستعداد له الحديث (٤٢٥٩) بإسناد ضعيف.

والشأنُ كُله أنْ يكونَ الإنسانُ قليلَ الأملِ في الدنيَا. راغبا في الدار الآخرةِ، مُجداً في الأعمالِ الصالحةِ، فَمنْ جدَّ وَجدَ، ومَنْ سارَ على الدربِ وصلَ. قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ [الليل: ٥ ـ ١٠].

* * *

٨٨ـ وَوَاجِبٌ إيمانُنا بِالمَوْتِ ... وَيَقْبِضُ الروحَ رَسُولُ المَوْتِ
٨٩ـ وَمَيِّتٌ بِعُمْرِهِ مَنْ يُقْتَلُ ... وَغَيْرُ هَذا بَاطِلٌ لا يُقْبَلُ

## [مسألة الموت]

إنَ مذهبَ أهلِ السُّنة وجوبُ الإيمانِ بالموتِ وهو: انقطاعُ تَعلُّقِ الرُّوحِ بالبَدنِ، ومُفَارقَةٌ وحَيلولةٌ بينهما، وتَبدُلُ حالٍ بحالٍ. وانتقالٌ منْ دارٍ إلى دارٍ. قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠]

وهوَ نازلٌ بكلِّ ذي رُوحٍ لا مَحالةَ. وإنَّ رسولَ الموتِ وهوَ عزرائيلُ. ومعناهُ عبدُ الجبَّارِ هو الذي يَتولى قَبضَ أرواحِ العَالَمِ السُفلي والعُلوي، وكلَّ حيوانٍ، خلافاً للمعتزلةِ بتخصيصِ الثَّقلين، وعزرائيلُ مَلَكٌ عظيمٌ هائلُ المَنْظرِ، مُفزعٌ جداً رأسُه في السماءِ العُليا، ورِجْلاهُ في تُخومِ الأرضِ السُفلى، ووجهُهُ مُقَابلُ اللوحِ المحفوظِ. والخلْقُ بينَ عَينيهِ، ولهُ أعوانٌ بعددِ منْ يموتُ، يترفقُ بالمؤمنِ، ويأتيهِ في صُورةٍ حَسَنةٍ دونَ غيرِه، وإتيانُ المَوتِ على العبدِ وهو على عَمَلٍ صَالحٍ وكَذَا اتخاذُ السواكِ مما يُسَهِّلُ الموتَ، وإسنادُ التَّوفي إليه تعالى في قوله: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [الزمر: ٤٢] فهو من باب الحقيقةِ، إلا أنَّ المَلَكَ لما باشرهُ أُسندَ إليه كقوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ [السجدة: ١١] وكَنِسْبَتِه إلى أعوانِه لمعالَجتهم نَزْعَ الروحِ في قوله تعالى: ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ [الأنعام: ٦١]

## [هل المقتول ميت بأجله؟]

وإنَّ مَذهبَ أهلِ الحَقِ أيضاً أنَّ المقتولَ ميتٌ بأَجلِه، وأنَّ الأجلَ واحدٌ لا يتقدَّمُ ولا يَتأخرُ. فَكلُ حيٍ يموتُ عندَ حضُورِ أَجلِهِ منْ غيرِ دَخْلٍ للقَاتِلِ،

وإنما القتلُ سَبَبٌ. لأن الله تعالى قد حكم بآجالِ العِبادِ على ما عَلِمَ من غير ترددٍ. وبأنه إذا جاءَ أجلُهم لا يَستأخرونَ ساعةً ولا يستقدمونَ. وقالَ أكثرُ المعتزلةِ: إنَّ القاتِلَ قَطَعَ على المقتولِ أجَلَهُ حتَّى لو تَحفَّظَ منهُ لعَاشَ إلى تمام أجَلِه، واحتجوا ببعضِ الأحاديثِ الواردةِ في أنَّ بعضَ الطاعاتِ تزيدُ في العُمُرِ، وبأنَّه لو كانَ مَيِّتاً بأَجَلِه لَمَا استحقَ القاتِلُ ذماً ولا عقاباً ولا دِيةً ولا قصاصاً، والجوابُ عن الأولِ أنَّ الله تعالى كانَ يعلمُ أنَّه لو لمْ يفعلْ هذه الطاعةَ لكان عُمرهُ أربعينَ سنةً. لكنهُ عَلِمَ أنَّه يفعلُها فيكونُ عمرُه سبعينَ سنةً. فَنُسبتْ هذه الزيادةُ إلى تلكَ الطاعةِ بناءً على عِلْمِ الله تعالى أنَّه لولاها لَمَا كانتْ تلكَ الزيادةُ، وعنِ الثاني أنَّ وجوبَ العِقابِ والضمانِ على القاتِلِ تَعبُّديٌّ لارتكابِ المنهي. وكَسْبُه الفعلَ الذي يخلقُ الله تَعالى عُقَيبَهُ الموتَ بطريقِ جَرْيِ العَادةِ، فإنَّ القتلَ فِعلُ القاتِلِ كَسْباً وإنْ لم يكنْ له خَلْقاً، والموتُ قائمٌ بالميتِ مخلوقٌ لله تَعالى لا صنعَ فيهِ للعبدِ تَخليقاً ولا اكْتِساباً.

* * *

**٩٠- وَفِي فَنَا النَّفْسِ لَدَى النَّفْخِ اخْتُلِفْ وَاسْتَظْهَرَ السُّبْكِيْ بَقَاهَا اللَّذْ عُرِفْ**

## [مسألة بقاء الروح بعد فناء الجسد]

اتفقَ العلماءُ على بقاءِ الروحِ بعدَ مُفارقةِ الجسمِ، وتكونُ مُنعَّمةً أو مُعذَّبةً، ثمَّ اختلفوا في فَنائِها عندَ النَّفخةِ الأولى المُشارِ إليها في قولِه تَعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨] وتُسَمَّى نفخةُ الفَناءِ، ولا يبقى عندها حيٌّ إلا ماتَ إلّا من شاءَ اللهُ، وذهبَ قومٌ إلى أنَّ فناءَ الروحِ ظاهر في قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] وقوله ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦] وقالَ قومٌ بعَدَمِ فَنائِها، واستظهرهُ الإمامُ أبو الحسنِ تَقي الدِّين علي السُّبكي، مُستدلاً بأنَّهم اتفقوا على بَقائِها بعدَ الموتِ لِسؤالِها وتَنعيمِها أو تَعذيبِها، والأصلُ في كلِّ باقٍ استمرارهُ حتَّى يظهرَ ما يصرفهُ عنهُ، وهو المختارُ عندَ أهلِ الحقِّ.

* * *